كلمة الوزارة

ذكرى تشرين التحرير

محمد الأحمد
وزير الثقافة

تمرُّ علينا ذكرى حرب تشرين التحريرية المجيدة، كما في كل عام لتذكّرنا بالبطولات والتضحيات وأيَّام العزّ والفخار والعنفوان والانتصار على العدو، وتكتسب في هذا العام طعماً آخرَ يضاف إلى الذكرى ونحتاج إليه في هذه الأيام التي يحقق فيها أبطالنا من القوات المسلحة في الجيش العربي السوري الإنجازات العظمى على الإرهابيين وحلفائهم، فالجيش الذي صنع انتصار حرب تشرين هو الجيش نفسه الذي يصنع الانتصارات الجديدة، وهؤلاء الأبطال الجدد هم أبناء وأحفاد أبطال تشرين، والانتصار على الأعداء متواصل لا انقطاع فيه، والشعب الشامخ المعطاء هو الشعب نفسه، والقيادة المظفَّرة اليوم، التي قادت وتقود المعارك بحنكة وشجاعة، هي استمرار أيضاً للمدرسة القيادية نفسها التي أسسها ورسخ دعائمها القائد المؤسّس حافظ الأسد، وعلى هذا الطريق الوطني والقومي التحرري يمضي بنا القائد بشار الأسد نحو النصر المؤزر والحاسم. إنها ذكرى عظيمة وخالدة في صفحات التاريخ الحديث، وفي وجدان الشعب، خلّدها الفن القصصي والمسرحي والشعري والسينمائي، ولا يزال يستلهم منها لتكون رافداً دفّاقاً للفن والإبداع، كما سيستلهم مبدعونا من بطولات اليوم، فالبطولة كتاب مفتوح أو نبع لا ينضب لتخصيب

العقل والخيال. اليوم، وعلى وقع الإنجازات التي يحققها أبطال الجيش العربي السوري في كل بقاع الوطن، وهم يضعون نهاية للإرهاب وداعميه، يزداد منسوب الأمل عند السوريين بالانتصار الحاسم و النهائي، ومع هذا الأمل العابق بالبطولة يستعيد السوريون ألقهم وبهجتهم، وتزول عنهم هذه الشدة، وكما أدهشوا العالم بصمودهم الأسطوري وبطولاتهم الملحمية، سيدهشونه أيضاً بإعمار بلدهم وصناعة نهضته الجديدة. السوريون سيصنعون مستقبلهم بإرادتهم، وهذا سيكون عنوان المرحلة القادمة من القرن الواحد والعشرين. إنها لحظة التحدي الكبرى، والتحدي المصيري دائماً يليق بالأبطال السوريين، إنها معركة جديدة، لا تحتاج إلى الدماء بل إلى العقول اليقظة والنفوس الكريمة المتوثبة. تحتاج إلى شجاعة التخلي عن كثير من الأفكار التي تجاوزها الزمن، وإلى نقض وتنحية كل ما يعرقل تقدم الأمة ويفتّت طاقاتها ويبدّد ثرواتها.

في هذه اللحظات المفصلية والحرجة، ربما يريد الأعداء أن يُجهضوا انتصاراتنا على الإرهاب التكفيري، ويسعوا لفتح معارك جديدة، تحت عناوين صراع الهويات القومية، لتقسيم الأوطان، وتفتيت المجتمعات، والدخول في حروب داخلية جديدة، ولمواجهة مثل هذه الاحتمالات، لا بدّ من التيقظ الشامل، ولا بُدَّ من وضع إستراتيجيات جديدة على كلِّ الجبهات المعنية بمصير الإنسان، حاضره ومستقبله، في أوطاننا، والجبهة الثقافية معنية جداً باستنفار العقول واستنهاض المثقفين الوطنيين الحريصين على وحدة شعوبهم.

المثقفون العرب اليوم، والسوريون في مقدمتهم مطالبون بتكوين هذه الجبهة الثقافية التي تُظهر الوعي والحرص الشديد على الوحدة والانسجام في التنوع دون قهر أو هيمنة، ووفق هوية حضارية مشتركة بين الأوطان العربية.

كلمة العدد

ثعابين الأرشيف

ناظم مهنا
رئيس التحرير

منذ سنوات وأنا أتحاشى المبالغات، ولا أستخدمها لا بالمدح ولا بالذم، ولكن مع هذه الرواية أنا مذهول ومنفعل من بدايتها حتى آخر كلمة فيها، ومن ينظر إلى صفحات النسخة التي قرأتُها سيجد أن هوامشها امتلأت بالتعليقات، ولو جمعتُ التعليقات التي كتبتها لاحتجت إلى عشرات الصفحات، وتستحق هذه الرواية أن تُقرأ وأن يُكتب عنها، وقد نجح أسعد كعادته في أن يخرجنا من حيادنا البارد، وأن يذهب بنا إلى حالين متعاكسين؛ إلى ذروة الانفعال والانتشاء وإلى قمة التأمل في الوقت نفسه.

كنت قد قرأت كل ما كتبه أسعد الجبوري من شعر ورواية، وهو صديق قديم، وكان لي شرف كتابة مقدمة روايته الأولى: «التأليف في طبقات النهار» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب. وعلى أهمية ما كتب، ورغم إعجابي بخياله الغرائبي المركب، وأنا شاهد على تحوله غير المتوقع من كتابة الشعر إلى كتابة الرواية، إلا أنني لم آخذ كتابته على محمل الجد مثل هذه المرة، ومع هذه الرواية.

إنها ملحمة روائية وفتح جديد في السرد العربي، ولا تأتي أهميتها من مضمونها وحسب، وهو غايةٌ قصوى في الجرأة والتحلي بالبصيرة الفذة والتحليل المتماسك المقنع،

ولا من الحوارات الشيقة والرشيقة، ولا من الشخصيات الغرائبية والشديدة الواقعية والتي تكونت في أرحام شديدة الغرابة! ولا من هذا المزج بين التراجيدي والكوميدي، ولا من هذا التدفق في الأحداث الواقعية والمأساوية التي تُسرد بلغة متهكمة إلى حد القسوة، ولا تأتي أهميتها أيضاً من اللغة الوقائعية والفنتازية، كما لا تأتي أهميتها من الشكل المبتكر، وإدخال أطياف جديدة من ذاكرة العقل العربي الجريح والمُقطّع على مقصلة الإرهاب، أطياف تدخل فضاء السرد الواقعي والافتراضي على شكل فواصل أو خيوط تشكل المعادل المابعد حداثوي للعصر العنكبوتي، جنون وفوضى الأرشيف، وخروج الثعابين من مخازن الذاكرة، إن قوة هذه الرواية تتأتّى من هذه العناصر مجتمعة لتشكل التناغم السردي الذي يهبط علينا من علوٍّ بعد الانسياب كهدير الشلالات. يمكن أن نتحدث كثيراً عن الشكل المبتكر لهذه الرواية، ولكن ليس هنا المكان المناسب لذلك، وكل عنصر من العناصر السابقة يحتاج إلى وقفة طويلة، وتحتاج هذه الرواية إلى قراءات تواكب جدتها وجرأتها.

على الرغم من أنها فاتحة روايات مناهضة للإرهاب، وهجائية كبرى لزمن الإرهاب، إلا أنها تتجاوز موضوعاتها لتكون عملاً روائياً كبيراً ذا أبعاد كونية، في زمن الفوضى وزمن الروايات السطحية والألعاب الشكلية والفهلوية، إنها «دون كيشوت عربي جديد»، وفي الرواية إشارة إلى رواية دون كيشوت في الصفحة (٤٣) يقول الراوي طارق: «عندما وضعني أبو قعبرة على ظهر حمار في تلك الساعة من ظهيرة ذلك اليوم الصيفي الملتهب بطقسه، وقادني مربوطاً بحبل كان يمسكه بيده من على ظهر حصانه الهزيل، ذكرت نفسي بـ«سانشو» تابع دون كيشوت.. فها أنا وإياه كأننا سندخل معركة طواحين الهواء..».

رواية تشكل ضربة موجعة للأدب السخيف الشعبوي والاستغرابي. لا يكترث أسعد الجبوري هنا للروايات وللحكايات الكاذبة وللاختلاقات وللخدع الإعلامية، إنه يكوّن رؤيته وقراءته الخاصة كصاحب مقولة مستقلة وغير تابعة، لا تخضع للمؤثرات ولا للإغراءات: «لم تعد تلك العقول صلبة مثل الصلصال. ربما لأن تلك المرويات، استطاعت

إلى حد ما تفكيك عناصر ذلك المخدر الذي غيّب العقول عن دورها، ليعيش الناس على هامش الحياة كمجموعات قريبة من الدواب» (ص٨٦). هذه الرواية كتبت والإرهاب في ذروته، فكانت ضد التيار.

المكان فيها ينبثق ويتعدد مثل الفقاعات التي تحركها الثعابين التي تطوف في المستنقعات. جحور الثعابين الصحراوية تخرج من كل مكان، من الرقة والأنبار والطوف، والزمن هو زمن الظلام الوهابي، والصحراء المجازية ليست فقط الخارطة العربية، بل الجسد العربي أيضاً وقد تحول إلى صحراء ثانية! ألم نُشِر إلى أنها رواية هجائية؟!

لقد قرأت رواية أسعد منذ صدورها ومضى على ذلك أُشهر، انتظرت حتى يخفت انفعالي الأولي بها، وها أنا أعود بعد هذه الفترة التي تكفي لتبريد الانفعال، ولكن غلبت علي دهشتي، وترك العمل الرائع أثره عليّ، وربما لا أستطيع التخلص منه بسهولة، إنني أرجو أن تقرأ هذه الرواية، وتنتشر على نطاق واسع، وتنال ما تستحق من الاهتمام.

❁ ❁ ❁

طريقي إلى الفينومينولوجيا[١]

مارتن هيدغر
ترجمة: د. علي محمد إسبر

بدأت دراساتي الأكاديميّة في شتاء العام الدراسيّ (١٩٠٩-١٩١٠م)، وتناولت اللاهوت، في جامعة فرايبورغ؛ لكن الجهد الرئيس في أثناء دراسة اللاهوت -الذي تُرك له وقت كافٍ- كان من أجل الفلسفة التي ضُمِّنت في منهاج الدراسة الجامعيّة بطبيعة الحال. وحدث منذ ذلك الحين أن وُضِعَ على مكتبي المخصص للدراسة مُجلّدا كتاب هُسّرل[٢] «مباحث منطقية Logical Investigations» في فصلي الدراسي الأول في المعهد اللاهوتي. كان هذان المجلّدان من مقتنيات مكتبة الجامعة، وكان سهلاً أن يؤجّل موعد تسليمهما مرّة بعد أخرى. وقد كان هذا العمل[٣] -على نحوٍ واضح- غير حائز، إلا على اهتمام بسيط، من الطلاب؛ لكن كيف دخل إلى هذه البيئة الغريبة جداً عنه؟

تعلّمتُ من مراجع كثيرة في دوريّات فلسفيّة أنَّ فكر هُسَّرل قد حُدِّدَ من فرانتس برينتانو[٤]. والحقيقة أنّه منذ عام (١٩٠٧م)، كانت أطروحةُ دكتوراه برينتانو «في المعنى المتنوِّع للوجود عند أرسطوطاليس[٥] On the manifold meaning of being since Aristotle» (١٨٦٢م) المُساعدَ والمُرشدَ الرئيس لمحاولاتي الخرقاء الأولى للدخول إلى الفلسفة، فقد أثارت هذه الأطروحةُ نفسها سؤالاً أقلقني بطريقةٍ غامضةٍ تماماً مُفاده: إذا كان الوجودُ يُقالُ بمعانٍ متنوّعة، عندئذٍ ما يكونُ معناه الأساس الموجّه؟ بالتالي ماذا يعني

الوجود في عموميته المطلقة؟ ذلك إلى أنّه في السنة الأخيرة من دراستي في الجيمانزيوم، عثرتُ على كتاب كارل برايغ حين كان في ذلك الوقت أستاذ كرسي العَقَديّات(٦)، وعنوانه: «في الوجود. مختصر الأنطولوجيا On Being. Outline of Ontology»، وكان قد نُشر في عام (١٨٩٦م)، في الوقت الذي كان فيه برايغ أستاذاً مساعداً في كلية اللاهوت، في جامعة فرايبورغ.

قدّمت الأقسام الأكبر، من عمل برايغ، مقاطع نصيّة واسعة مأخوذة من أرسطوطاليس، وتوما الأكويني، وسوارتس(٧)، إضافةً إلى أتيمولوجيا المفاهيم الأنطولوجية الأساسيّة(٨).

توقّعتُ من مباحث هُسِّرل المنطقية تقديم معونةٍ أكيدةٍ على الأسئلةِ المثارة، من برينتانو في أطروحته للدكتوراه؛ غير أنَّ جهودي لم تكن مُجديةً، لأنني لم أبحث في الدرب الصحيح، وللأسف أدركتُ ذلك متأخراً جدّاً.

ذلك إلى أنّي بقيتُ مفتوناً بعمل هُسِّرل(٩) الذي قرأته مرّةً بعد أُخرى، في سنواتٍ متتالية، دون أن أصل إلى تبصُّرٍ وافٍ، في ما كنتُ مفتوناً به. انبعثَ سحرٌ من عمل هُسِّرل، امتدّ ليشمل المظهر الخارجيّ لبنية الجملة وصفحة العنوان. وصادفتُ على صفحة العنوان نفسها، للمرّة الأولى اسم الناشر ماكس نيمير Max Niemeyer وتبدو هذه المصادفة ماثلة أمام عينيّ الآن، كما كانت في ذلك اليوم الزّاهي آنذاك. كان اسم هذا الناشر مرتبطاً بالفينومينولوجيا التي كانت مجهولةً بالنسبةِ إليّ، وكانت قد ظهرت لفظة فينومينولوجيا في العنوان الفرعي للمجلد الثاني. هذا، إلى أنَّ فهمي لمصطلح فينومينولوجيا لا يتعدّى كونه محدوداً ومتذبذباً، وكذلك كانت معرفتي أيضاً، أعني في تلك السنوات التي ظهر فيها الناشر ماكس نيمير مع عمله.

لماذا وكيف كلا الاسمين-دار نشر نيمير والفينومينولوجيا-ارتبطا معاً؟ هذا ما سيصبح لاحقاً أكثر وضوحاً.

توقّفتُ بعد فصولٍ دراسيّةٍ أربعة عن دراساتي اللاهوتيّة، وكرّستُ نفسي نهائياً للفلسفة. وقد بقيتُ أحضرُ محاضراتٍ لاهوتيّةً في السنوات التالية لعام (٢٠١١م)، في قاعة محاضرات كارل برايغ في العَقَديّات. ذلك أنَّ اهتمامي باللاهوت التأمُّليّ speculative theology قد أرشدني إلى القيام بذلك، إضافةً إلى ذلك النّوعِ النفّاذ من التفكير الذي كان ذلك الأستاذ يُظهرهُ على نحوٍ عينيٍّ في كلّ ساعةِ محاضرة.

هذا، وبعد خطواتٍ معدودة من المشـــي مع برايغ-بعد أن سمح لي بمرافقته-سمعتُ منه للمرّة الأولى عن معنى اللاهوت التأمُّليّ، بالنسبةِ إلى كلٍّ من هيغل وشِلّنغ، بصفته متميِّزاً من النسق الدوغمائيّ للمدرسيّة. وهكذا، دخل الربطُ بين الأنطولوجيا واللاهوت التأمُّلي، بصفته بنيةً للميتافيزيقا، حقلَ بحثي.

بعـــدُ، من حين إلى آخر كان يَذْوى هذا الحقلُ نفســـه، على خلفيّـــة مقارنته بما كان هاينرش ريكرت Heinrich Rickert[10] يبحثه في ســـمناراته: فهنـــاك مؤلّفان كتبهما تلميذ ريكرت، أعني إميل لاسك Emil Lask الذي قُتِلَ على الجبهة الغاليكية عام (١٩١٥م). وقد أهدى ريكرت الطبعة الثالثة المنقّحة بالكامل من عمله «موضـــوع المعرفة، مدخل إلى الفلسفة المتعالية The Object of Knowledge، Introduction to Transcendental Philosophy» الذي كان قد نُشِـــرَ في العام نفســـه (١٩١٥م)، أقول: أهداه على النحو الآتي: «إلى صديقي الحميم (إميل لاسك)»، وقد أظهر الإهداء على نحوٍ مُفترض أنَّ إفادة الأســـتاذ (ريكرت) كانت مســـتمدةً من تلميذه (إميل لاســـك)، كما أنَّ مؤلَّفي إميل لاســـك المشـــار إليهما آنفاً وهما: أولاً-منطق الفلســـفة ونظريّة المقولات، دراســـة في الحقل المهيمن على الشكل المنطقيّ (١٩١١م) The Logic of Philosophy and the Doctrine of Categories، A Study of the Dominant Realm of Logical Form ثانيـــاً- نظرية الحكـــم (١٩١٢م) The Doctrine of Judgment يُظهران بوضـــوح كافٍ تأثير مباحث هُسِّرل المنطقيّة فيهما.

ســـاقتني الظروف إلى أن أُنقِّب في عمل هُسّـــرل من جديد. على أي حال بقيت بداياتي المتكررة مع هذا العمل غير مُرضـــية، لأنني لم أتمكن من التغلّب على الصعوبة الرئيسة التي تعلّقت بســـؤالٍ بســـيط هو: كيف يمكنُ لطريقة تفكيرٍ في نهجٍ يُسمّي نفسه فينومينولوجيا أن تكون قابلةً للتطبيق؟ ما أقلقني في هذا السؤال جاء من الغموض الذي ظهر في عمل هُسِّرل للوهلةِ الأولى.

نُشِـــرَ المجلّد الأوّل من عمل هُسّـــرل للمرّة الأولى في عام (١٩٠٠م)، وقدّم فيه دحضـــاً للنزعة النفسانيّة psychologism في المنطق، بإظهار أنَّ نظرية الفكر والمعرفة لا يمكن أن تســـتند إلى علم النفس، بالمقابل تضمّن المجلّد الثاني -الذي كان قد نُشِرَ في السنة التالية ونُشِـــر ثلاث مرّاتٍ في ما بعد-وصفاً لأفعال الوعي الماهويّة، من أجل تكوين المعرفة. وهذا يُعَدُّ علمَ نفس في نهاية المطاف! بماذا تعلّق أيضـــاً القســـم التاسع من المبحث الخامس من

مباحث هُسِّـــرل المنطقيّة: تعلّق بـ«معنـــى تحديد برينتانو للظّاهرة النفســيّة»؟! وبذا تقهقر هُسِّـــرل بوصـــفه الفينومينولوجيّ لظواهر الوعي، ليتراجع إلى موقف النزعة النفسانيّة التي كان قد دحضـــها. لكن، إذا كان مثل هذا الخطأ الفادح لا يمكن أن يُعزى إلى عمل هُسِّـــرل، عندئذٍ يجب أن نسأل: ما الوصف الفينومينولوجي لأفعال الوعي؟

في أيِّ منحى يكمنُ ما هو مميّز بالنســبة للفينومينولوجيا إذا لم يكن في المنطق ولا في علم النَّفْس؟ أيمكنُ أن يوجد فرعٌ جديدٌ فعلاً من الفلســفة من المُتاح أن يظهر هنا، حتى لو كان متفرّداً بنظامٍ وأسبقيّةٍ خاصّين به؟

لقد أعيتني السُّـــبل، ولم أجد حلاً لهذه الأسئلة. وبقيتُ غير عارفٍ ماذا أفعل وأين أتجه، حتى استطعتُ أن أصوغ الأسئلة بوضوح، ليكون ممكناً التعبيرُ عنها!

حضـــرني الجـــواب فـــي عـــام (١٩١٣م)، ذلـــك أنَّ الكتاب السَّـــنويّ للفلســـفة والبحث الفينومينولوجيّ الذي حرّره هُسِّـــرل، كان قد بدأ بنشـــره ماكس نيمير، وافتُتح المجلّد الأول ببحث هُسِّرل «أفكار»[١١].

تُعَدُّ الفينومينولوجيا المحض Pure phenomenology علماً أساساً للفلسفة، مميّزاً بوساطة الفينومينولوجيا. تـــدل لفظة «محض» على الفينومينولوجيا الترنســـندنتالية (علم الظواهر المتعالـــي) transcendental phenomenology. على أيّ حال، تُحـــدَّد ذاتيّة المعرفة (فعل وتقييم الموضـــوع)، بصفتها متعالية. ويُظهر مصطلحا «ذاتيّة» و«متعالية» أنَّ الفينومينولوجيا بصورة مقصودة ومقرّرة انتقلت إلى تراث الفلسفة الحديثة؛ لكن بطريقة أنَّ الذاتيّة المتعالية تُحقِّقُ -بأكبر قَدْرٍ ممكنٍ- تحديداً أصليّاً وكليّاً، بوساطة الفينومينولوجيا.

تحتفـــظُ الفينومينولوجيا بخبرات الوعي، بصـــفتها حقل فكرتها الرئيســـة، لكن يتم هذا الآن في استقصـــاء مُخطَّط ومُحكم منظوميّاً لبنية أفعال الخبرة، ذلك بالترافق مع استقصاء لموضوعات واقعةٍ تحت الخبرة في هذه الأفعال نفسها بالصلة مع موضوعيتها.

ذلك إلى أنه في هذا المشروع الكليّ للفلسفة الفينومينولوجية، بما فيها المباحث المنطقيّة أيضاً-التي إذا جاز التعبير ما تزال محايدة فلسفيّاً-يمكن تعيين مكانها النسقيّ. وقد نُشرت في العام نفســـه (١٩١٣م) في الطبعة الثانية من الناشر نفسه. وقد خضعت غالبية المباحث المنطقية في غضـــون ذلك إلى تنقيح عميق جداً، ولئن كان المبحث الســـادس الأكثر أهمية بالصلة إلى الفينومينولوجيا (تمهيد للطبعة الثانية)؛ إلا أنه قد تمَّ حجبه!

لكن، مقالة هُسِّرل «الفلسفة بصفتها علماً دقيقاً» Philosophy as Exact Science التي أسهم بها هُسِّرل في المجلّد الأول من مجلة لوغوس الجديدة Logos اكتسبت في آخر الأمر أساساً كافياً، بوساطة أطروحة هُسِّرل البرامجيّة في «أفكار».

حاز عمل الناشر نيمير، استناداً إلى هذه المنشورات، المرتبة الأولى بين ناشري الكتب الفلسفيّة. وقد سادت قناعة واضحة إلى حدٍّ ما في ذلك الوقت مفادها أنَّ مدرسةً جديدةً قد ظهرت في الفلسفة الأوروبية. مَنْ كان بمقدوره أن ينكر صحة هذا الأمر؟

لكن، مثل هذا التقدير التاريخيّ لم يُحِطّ بما حدث بفعل الفينومينولوجيا، وهذا الأمر نفسه حدث مسبقاً بالنسبة إلى المباحث المنطقيّة. والحقيقة أنَّ هذا يبقى غير مصرّح به، ولا يمكن إلا بصعوبة التعبير عنه اليوم على نحوٍ ملائم. وقد قوّت إيضاحات هُسِّرل البرامجية وتقديماته المنهجية بالأحرى سوء الفهم الذي بوساطته زُعم أن «الفينومينولوجيا»، أي بداية الفلسفة أنكرت كلّ الفكر السابق عليها.

ذلك إلى أنه بعد نشر كتاب «أفكار» بقيتُ مفتوناً بالسِّحر اللامنقطع الذي سببته لي المباحث المنطقيّة. وقد أحدث هذا السِّحرُ اضطراباً لا يُمَكِّنُ هو نفسه من إدراك مصدره، مع أنه يجعلُ المرء غير متيقّنٍ من أنه يأتي من عدم القدرة على تحقيق فعل التفكير الفلسفيّ الذي يدعى فينومينولوجيا ببساطة، ذلك عن طريق قراءة الأدب الفلسفي.

تناقصت حيرتي ببطء، وتلاشى تشوشي بجهد، حدث ذلك فقط بعد أن التقيتُ بـ«هُسِّرل» في حلقته الدراسيّة.

جاء هُسِّرل إلى فرايبورغ في عام (١٩١٦م) كخلف لـ«هاينرش ريكرت». فقد تولّى ريكرت كرسي فندلباند Windelband(١٢) في هايدلبرغ. وقد تجلّى تعليم هُسِّرل تدريجيّاً بصورة التدريب على الإبصار الفينومينولوجي phenomenological seeing الذي يقتضي في الوقت نفسه أن يتخلّى المرء عن الاستخدام اللامعياريّ للمعرفة الفلسفيّة؛ لكن يقتضي أيضاً أن يكف المرء عن منح السُّلطة للمفكرين الكبار في أثناء الحوار. على أيِّ حال، صار الأوضح بالنسبة إلي هو زيادة الاعتياد على الإبصار الفينومينولوجي الذي أصبح خصباً، بسبب تفسير كتابات أرسطو، وصار الأقل وضوحاً هو أنني استطعتُ أن أفصل نفسي عن أرسطو وسائر المفكرين اليونانيين. وبالطبع لم أستطع أن أرى مآلَ النتائج الحاسمة لعملي المتكرر على أرسطو.

كما تدرّبتُ أنا نفسي على الإبصار الفينومينولوجي، تعليماً وتعلُّماً، في أثناء قربي من هُسِّرل بعد عام (١٩١٩م)، وفي الوقت نفسه حاولتُ الخروج من فهمي المتحوّل لأرسطو، واتجهتُ باهتمامي من جديد نحو المباحث المنطقية، وفي مقدمتها المبحث السادس في طبعته الأولى. ذلك أنه قد أُحْدِثَ في ذلك المبحث تمييزٌ بين العِيان الحسيّ والعِيانِ المقوليّ[١٣] كشف لي نفسه في مداه، بالقياس إلى تحديد المعنى المتنوّع للوجود.

ذلك أنه من أجل هذا السبب قمنا نحن –أصدقاءً وتلاميذَ– باستجداء الأستاذ هُسِّرل مرة بعد أخرى، ليعيد نشر المبحث السادس الذي كان عندئذٍ من الصعب الحصول عليه. وتماشياً مع إخلاصه في ما يتعلق بقضية الفينومينولوجيا، قام الناشر نيمير بنشر الفصل الأخير من المباحث المنطقيّة مرّة أخرى عام (١٩٢٢م). وقد دوّن هُسِّرل في التمهيد: «كما هي الأمور دائماً، ينبغي عليّ أن أُلبيَّ رغبات أصدقاء هذا العمل، وأن أجعل فصله الأخير في متناول اليد من جديد، كما كان في صيغته القديمة». وقد أراد هُسِّرل نفسه بعبارة «أصدقاء هذا العمل» أن يقول: إنه لم ينهِ عمله في كتابه «مباحث منطقيّة» بعد نشر كتابه «أفكار».

هذا، وبسبب من المكان الجديد لنشاطه الأكاديميّ فإنَّ ولَعَ وجهدَ تفكيره اتجها نحو تطوير نسقيٍّ لخطة مقدَّمة في كتابه «أفكار» أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وهكذا استطاع هُسِّرل أن يكتب في التمهيد مشيراً إلى المبحث السادس: «إنَّ نشاطي التدريسي في فرايبورغ أيضاً، أرفد اتجاه اهتمامي نحو المشكلات العامة والنسق».

وهكذا تكرّم عليّ هُسِّرل باللقاء معه على نحوٍ واسع؛ لكن في الواقع حدث ذلك في تضارب، غير أني عملتُ على المباحث المنطقية كلّ أسبوع في سيمنارات خاصّة، مع طلابٍ متقدّمين، إضافةً إلى محاضراتي وسيميناراتي المعتادة. وكان التحضيرُ لهذا العمل تحديداً خِصْباً بالنسبةِ إليّ. هناك تعلّمتُ شيئاً واحداً –في المقام الأول يكون الأفضل بالنسبةِ إلى المرء الاندفاعُ بالعِيان، بدلاً من الاسترشاد ببصيرةٍ مؤسّسة مسبقاً: إنَّ ما يظهر لفينومينولوجيا أفعال الوعي، بصفته إظهاراً ذاتيّاً للظواهر، كان مُفكّراً فيه على نحوٍ أغنى، أصليّاً، من قِبَلِ أرسطو وفي التفكير اليوناني كلّه، والوجود الفعليّ بصفته أليثيا (aletheia)[١٤]، والأليثيا بصفتها لا تحجُّباً لما هو حاضر، تُعَدُّ الوجودَ مُتكشِّفاً، والإظهار نفسه.

إنَّ الذي تُعيدُ المباحث الفينومينولوجية اكتشافه، بصفته اتجاهاً داعماً للفكر، ينكشفُ في سمةٍ أساسيّةٍ للتفكيرِ الفلسفيّ اليونانيّ، إن لم يكن بالفعل للفلسفة بما هي.

وكلّما أصبح هذا الاكتناهُ أكثر وضوحاً بالنسبة إليّ، أصبح السؤال أكثر إلحاحاً: من أين وكيف يكون مُحدّداً ما يجب أن يكون واقعاً تحت الخبرة، بصفته الأشياء نفسها، بالمطابقة مع مبدأ الفينومينولوجيا؟ أيكونُ الوعي وموضوعيته، أيكون الوجود وموجوداته في لا تحجُّبِها وتحجُّبها؟

هكذا جُلبتُ إلى طريق سؤال الوجود، متنوِّراً بالاتجاه الفينومينولوجيّ، لكن مرة أخرى صار الأمر صعباً وفي طريقة مختلفة هذه المرّة، عن تلك الطريقة السابقة التي وجّهت الأسئلة بهدي أطروحة برينتانو. لكن طريق التساؤل صار أطول مما توقّعت، فقد اقتضى وقفاتٍ كثيرةً، وانعطافات، وطُرقاً خاطئةً، وإنَّ ما حاولتُهُ في محاضراتي الأولى في فرايبورغ، ومن ثمة في ماربورغ، أراني الطريق؛ لكن في صورةٍ مموهّةٍ.

«برفيسور هيدغر-ينبغي عليك أن تنشر شيئاً الآن. هل بحوزتك أيُّ مخطوطة؟». خاطبني بهذه الكلمات عميد كليّة الفلسفة في ماربورغ حين جاء إلى درسي في أحد أيام الفصل الدراسي الشتوي للعام الدراسيّ (١٩٢٥-١٩٢٦م). أجبت: بالتأكيد. عندئذٍ قال العميد: لكن يجب أن يُطبع بسرعة؛ ذلك أنَّ الكليّة كانت قد رشّحتني كخلف لـ«نقولاي هارتمان» على كرسي الفلسفة، إلا أنه في غضون ذلك رفضت الوزارة في برلين الترشيح، مع إيضاح مُفاده أنني لم أنشر أيَّ شيء في السنوات العشر الأخيرة.

هذا، وينبغي عليَّ الآن أن أُقدّم عملي المُصان إلى الجمهور، وحدث بسبب تدخُّل هُسِّرل مع دار نشر ماكس نيمير، أن كانت مستعدةً مباشرةً لطباعة خمس عشرة نسخة تجريبيّة طباعيّة من عملي المُعدّ للظهور في كتاب هُسِّرل السنويّ. وأُرسلت على الفور نسختان تجريبيتان مُنجزتان إلى الوزارة من الكليّة: لكن بعد مُضي بعض الوقت، أُرجعتا إلى الكليّة من الوزارة مع ملاحظة: «غير وافٍ». في شهر شباط من العام التالي (١٩٢٧م)، نُشِرَ النصّ الكامل من كتابي «الوجود والزمان» في المجلّد الثامن من الكتاب السنويّ كمنشورٍ مستقل.

بعد ذلك غيّرت الوزارة حكمها السلبيّ بعد ستة أشهرٍ، ووافقت على اقتراح الكرسيّ.

هذا، وبسبب مناسبة صدور هذا المنشور الغريب، أعني كتابي «الوجود والزّمان»، أقمتُ علاقةً، للمرّة الأولى، مع دار نشر ماكس نيمير، إذ ما كان مجرد اسم على صفحة عنوان عمل هُسِّرل السّاحِر في الفصلِ الدراسيّ الأول، صار واضحاً الآن وفي المستقبل، بكلِّ شموليّةِ واعتماديّةِ واتساعيّةِ وبساطةِ عملي المنشور.

ذلك إلى أنه في صيف عام (١٩٢٨م)، في أثناء فصلي الدراسي الأخير في ماربورغ، كان يجري إعداد الكتاب التذكاري لعيد ميلاد هُسِّرل السبعين؛ لكن في بداية هذا الفصل مات ماكس شلر Max Scheler[١٥] على نحوٍ مفاجئ. وقد كان واحداً من المُحرِّرين في كتاب هُسِّرل السنوي، إذ نشر بحثه الكبير «الصورية في الأخلاق والأخلاق الماديّة للقيمة Formalism in Ethics and Material Ethics of Valu» في مجلدين عام (١٩١٦م)، ويجب أن يُعدّ هذا البحث لـ«شلر» -إلى جانب كتاب «أفكار» لـ«هسرل-أكثر إسهام ذي معنىً في الكتاب السنوي، ذلك أنه بسبب نتائجه المؤثرة جداً، وضعَ كلاً من هدف وتأثير دار نشر نيمير في ضوء جديد.

ظهر الكتاب التذكاريّ عن هسّرل على نحوٍ عاجل، بمناسبةِ عيدِ ميلاده، كملحقٍ للكتاب السّنويّ. وقد تشرّفتُ بتقديمه إلى أستاذ شهير داخل حلقة من تلاميذه وأصدقائه في (٨/ نيسان/عام ١٩٢٩م).

هذا، وطوال السنوات العشر التالية أُوقفت الطبعات الموسّعة جميعها، إلى أن أقدمت دار نشر نيمير على طباعة تفسيري لترتيلة هلدرلين «كما في يوم عيد As on a Holiday» في عام (١٩٤١م)، دون ذكر عام للنشر. وكنتُ قد ألقيتُ هذا التفسير نفسه كمحاضرة عامة في العام نفسه في جامعة لايبتزغ. وكان مالك دار النشر السيد هرمان نيمير قد جاء من هالِهِ Halle[١٦] لسماع هذه المحاضرة، وتناقشنا في ما بعد في موضوع النشر.

عندما قرّرتُ بعد اثنتي عشرة سنة أن أنشر سلسلة محاضراتٍ مبكرة، اخترتُ دار نشر نيمير من أجل هذه الغاية. لم يعد يحمل دار نشر نيمير شعار «هاله على نهر زاله Halle a. d. Saale». ذلك أنه بعد توالي خسارات كبيرة وصعوبات مختلفة، وتَعَرُّضٍ لمآزق شخصيّة قاسية، قام مالك دار النشر وقتئذٍ، بإعادة تأسيس شركتها في توبنغن.

«هاله على نهر زاله» في هذه المدينة نفسها، علّم المدرّس الجامعي السابق إدموند هُسِّرل في تسعينيات القرن المنصرم[١٧] في جامعة تلك المدينة، وفي ما بعد في فرايبورغ. وقد روى دائماً قصة خروج «مباحث منطقيّة» إلى النور، ولم ينس أن يذكر دار نشر ماكس نيمير مع امتنانه وإعجابه، هذه الدار التي أخذت على عاتقها مغامرة نشرٍ، في انعطاف القرن، لعملٍ واسع قام به مدرسٌ جامعيٌّ معروفٌ قليلاً، سار في طُرقه الجديدة الخاصّة به، وهكذا توجّب عليه أن يُقصي الفلسفة المعاصرة التي تجاهلت عمله لسنوات حتى بعد ظهوره،

إلى أن أدرك فلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey[١٨] أهميته. لم تكن دار النشر قادرةً على معرفة أنَّ اسمه سيبقى مرتبطاً بالفينومينولوجيا مستقبلاً، هذه الفينومينولوجيا التي ستُحدِّد قريباً روح العصر، في مجالات معرفيّة متنوّعة-وفي معظم الأحيان بطريقة مُضمرة.

ماذا بالنسبة إلى يوم الناس هذا؟ يبدو أنَّ عصر الفلسفة الفينومينولوجية قد انتهى. إنها مأخوذة مسبقاً كأمر مضى وانقضى، كيما تُدَوَّن تاريخيّاً إلى جانب مدارس الفلسفة الأخرى، إلا أنها في ما يتعلّق بمظاهرها جميعها لا يمكن أن تكون مدرسة، إنها إمكانية للتفكير، لكنها تتغير في بعض الأحيان، وبالتالي تبقى قائمة، وتكون فقط على هذا النحو، من أجل المثابرة، ومن أجل مطابقة ما يجب أن يكون عليه الفكر. إذا كانت الفينومينولوجيا مُختبرة ومُتذكرة على هذا النحو، يمكن أن تختفي بصفتها تسمية، ذلك لصالح مادة التفكير التي يبقى ظهورها لغزاً.

الهوامش

١- إشارة: جميع الهوامش والتعليقات من عمل المترجم.

٢- إدموند هسرل فيلسوف ألماني (١٨٥٩-١٩٣٨م)، يُعدّ مؤسساً للفينومينولوجيا (علم وصف ظواهر الوعي)، وكان له تأثير هائل في الفلاسفة الوجوديين.

٣- يعني هيدغر كتاب إدموند هسرل مباحث منطقيّة.

٤- فرانتس برينتانو فيلسوف ألماني (١٨٣٨-١٩١٧م)، كان أستاذاً لـ«هسرل» الذي أخذ عنه فكرة قصدية الوعي، أي أن الوعي في حقيقته هو وعي بموضوع، ولا يوجد وعي بلا موضوع.

٥- تتوزع الأقسام الأربعة لكتاب برينتانو تبعاً للمعاني الأربعة التي عزاها أرسطو للوجود وهي: الوجود بمعنى العَرَض؛ الوجود بوصفه حقّاً؛ الوجود بمعنى الوجود بالقوة والوجود بالفعل؛ الوجود تبَعاً للمقولات.

٦- العَقَديّات dogmatics: فرع من علم اللاهوت يهدف إلى تفسير عقائد دين ما.

٧- فرانسيسكو سوارتس (١٥٤٨-١٦١٧م) لاهوتي وفيلسوف إسباني، كان له تأثير كبير في رينيه ديكارت.

٨- أتيمولوجيا etymology: علم التأثيل: بسط أو تعليل لأصل لفظة ما وتاريخها؛ أو: دراسة تُعنى بأصل الكلمات وتاريخها. والأنطولوجيا: علم الوجود بما هو وجود، فعلوم مثل الفيزياء والكيمياء والتاريخ وعلم النفس، إلخ.. يدرس كلٌّ منها قطاعاً محدداً من الوجود، لكن لا يوجد أي علم فيها يستطيع دراسة الوجود في كليته، لأنَّ هذه الدراسة تقتصر فقط على الأنطولوجيا.

٩- يقصد هيدغر بهذا العمل كتاب إدموند هُسِّرل «مباحث منطقيّة».

١٠- هاينرش ريكرت فيلسوف ألماني (١٨٦٣-١٩٣٦م) ينتمي إلى الكنطية المحدثة.

١١- يقصد هيدغر كتاب هسرل «أفكار لإيجاد فينومينولوجيا محض وفلسفة فينومينولوجية» الصادر عام (١٩١٣م).

١٢- فلهلم فندلباند فيلسوف ألماني (١٨٤٨-١٩١٥م) ينتمي إلى تيار الكنطية المحدثة، ويُعدّ مؤسس مدرسة بادن.

١٣- آثرنا ترجمة لفظة intuition بـ«عِيان» عوضاً عن حَدْس، ذلك أنَّ لفظة حَدْس في اللغة العربية تفيد الرجم بالغيب، بينما تفيد لفظة عِيان معنى المعرفة المباشرة للموضوع، سواء أكانت هذه المعرفة حسيّة أم عقليّة. (المترجم).

١٤- aletheia لفظة يونانية تعني نزع الحجاب أو اللاتحجّب، ويدل بها هيدغر على الحقيقة، فالحقيقة لم تعد تقوم على مطابقة القول للشيء كما رسّخ ذلك أرسطو في الموروث الفلسفيّ؛ بل على الكشف، أو على نزع الحُجب عن الموجودات.

١٥- ماكس شلر فيلسوف ألماني (١٨٧٤-١٩٢٨م) حاول أن يطبق المنهج الفينومينولوجي على الحياة العاطفية والوجدانية للموجود الإنساني.

١٦- هاله أكبر مدن ولاية زاكسن-أنهالت الألمانية وتسمى باسم «هاله على نهر زاله» لتمييزها عن المدينة الواقعة في ولاية شمال الراين - وستفاليا التي تحمل الاسم نفسه.

١٧- يعني هيدغر القرن التاسع عشر.

١٨- فلهلم دلتاي فيلسوف ألماني (١٨٣٣-١٩١١م) أراد إحداث ثورة كوبرنيكية في العلوم الإنسانية، إذ اعتقد أنَّ الظاهرة الإنسانية قابلة للفهم، وليس للتفسير.

الحرب الباردة والعولمة
مقارنة تحليلية

يونس كامل صالح

من الأسوار إلى الشبكات

كان يجري الحديث على مدى ربع القرن الماضي عن عالم ما بعد الحرب الباردة، أي أنه جرى تعريف العالم بما لم يكنه، لم يكن أحد يعرف ماذا كان. ولكن نظاماً دولياً جديداً قد حل الآن بوضوح محل الحرب الباردة: إنه نظام العولمة. هذا صحيح، إنه نظام العولمة- أي التكامل بين الأسواق، والتمويل، وتطور التكنولوجيا على نحو يقلص العالم من حجمه المتوسط إلى الحجم الصغير، مما يجعل كل إنسان قادراً على الوصول إلى مواقع أبعد حول العالم، بل أسرع وبتكلفة أرخص عما كان عليه الحال من قبل.

إنَّ العولمة لا تمثل توجهاً اقتصادياً فحسب، كما لا تمثل مجرد بدعة جديدة. ومثلها مثل جميع النظم الدولية السابقة، تقوم العولمة، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، بتشكيل السياسات الداخلية والاقتصادية، فضلاً عن العلاقات الخارجية للبلدان جميعها عملياً تقريباً.

إن الحرب الباردة كنظام دولي، قد امتلكت بنية خاصة للقوة: التوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بما في ذلك حلفاء كلٍّ منهما. وقد كان للحرب الباردة قوانينها الخاصة: ففي مجال الشؤون الخارجية، لم يكن بمقدور أي من القوتين العظميين التعدي على المجال الأساسي لنفوذ القوة الأخرى، بينما في المجال الاقتصادي، كانت البلدان المتخلفة تركز

على تنمية صـــناعاتها الوطنية، والبلدان النامية على النمو القائم على الصـــادرات، والبلدان الشيوعية على سياسة الاكتفاء الذاتي، في حين كانت الاقتصادات الغربية تركز على التجارة المنظمة.

كما كان لدى الحرب الباردة أفكارها المهيمنة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية، علاوة على الانفراج في العلاقات الدولية، وعدم الانحياز، كما امتلكت الحرب الباردة أيضاً توجهات ديموغرافية: كانت حركة الناس من الشرق إلى الغرب تعاني من الجمود إلى حدٍ كبير نتيجة للستار الحديدي، في حين كانت الحركة من الجنوب للشمال متدفقة على نحوٍ أكثر انتظاماً. كما امتلكت الحرب الباردة أيضـــاً تكنولوجيات محددة لها: ســيطرة الأسلحة النووية والثورة الصـــناعية الثانية، ولكن المطرقـــة والمنجل كانتا ما تزالان أداتين مناســبتين. وأخيراً كان للحرب الباردة قلق خاص بها: إنه التدمير النووي، وإذا ما أخذنا هذه الأمور مجتمعة، يمكن القول إن نظام الحرب الباردة لم يقم بتشـــكيل كل شـــيء، وإنما صـــاغ الكثير من الأشياء. أما نظام العولمة في يومنا هذا، فيمتلك صـــفات وقواعد وبواعث وســـمات مختلفة تماماً، ولكن نفوذه مؤثر بالقدر نفســـه. **لقد كان نظام الحرب الباردة يتسم بملمح واحد رئيسي، التقسيم. فقـد تـمّ تقسـيم العالـم، وكانت التهديـدات والفرص تميل إلـى النمو من الجانـب الذي تمّ الانقسـام عنه. ويمكن، على نحو مناسـب، وضـع نظام الحرب الباردة بشـكل رمزي في صـورة واحدة: السور. ولنظام العولمة سمة واحدة رئيسة أيضاً: التكامل. فالتهديدات والفرص أمام أي بلد اليوم، إنما تنمو على نحو متزايد من الجانب المرتبط به هذا البلد. ويمكن الإشارة إلـى هذا النظام برمز واحد: شـبكة الاتصـالات العالمية بالكمبيوتـر (الإنترنت). إذاً فقد تمّ الانتقال، بالمعنى الواسع، من نظام كان مبنياً حول أسوار إلى نظام ينبني، على نحو متزايد، حول شبكات.**

وعلى خلاف نظام الحرب الباردة، يمتلك نظام العولمة ثقافته المهيمنة، مما يفســـر ميل التكامل نحو إضفاء طابع التجانس. حقَّق التجانس الثقافي، في العصور السابقة على الصعيد الإقليمي- إضفاء الطابع الروماني على أوروبا وعالم البحر المتوسط، وإضفاء العرب الطابع الإســـلامي على آسيا الوســـطى والشرق الأوسط وشمالي إفريقيا وإســـبانيا، وإضفاء الطابع الروســـي على أوروبا الشرقية والوســـطى وأجزاء من أوراسيا في ظل السوفييت. وإذا تحدثنا من الزاوية الثقافية، نجد أن العولمة تمثل بدرجة كبيرة انتشـــار الأمركة (للأفضل وللأسوأ) من ساندويتشات الهامبرغر والبيك ماك إلى ميكي ماوس.

بينما كان الثقل- وخاصة ثقل إلقاء الصواريخ- هو المقياس المحدد للحرب الباردة. إن السرعة- سرعة التجارة، والسفر، والاتصالات، والابتكارات، هي المقياس المحدد لنظام العولمة. وبينما كانت «المعاهدات» تمثل وثيقة نظام الحرب الباردة، فإن «الصفقة» تمثل وثيقة نظام العولمة. **وإذا كان قلق الحرب الباردة يتمثل في الخوف من الإبادة من عدو معروف جيداً في نظام عالمي ثابت أو مستقر، فإن قلق نظام العولمة يتمثل في الخوف من التغيير السريع من جانب عدو لا يمكن رؤيته، أو لمسه أو الشعور به. إنه الإحساس بأن وظيفتك أو مجتمعك أو مكان عملك يمكن أن يتغير في أي لحظة بفعل القوى الاقتصادية والتكنولوجيا المجهولة، التي قد تكون أي شيء إلا أن تكون مستقرة.** وفي حين كان كارل ماركس وجون كينز الاقتصاديين المحددين لنظام الحرب الباردة، فإن جوزيف شومبيتر وأندي جروف يمثلان الاقتصاديين المحددين لنظام العولمة، وهما يفضلان إطلاق العنان للرأسمالية. إن شومبيتر، وهو وزير مالية النمسا السابق وأستاذ بجامعة هارفارد، قد عبَّر عن وجهة نظره في كتابه «الرأسمالية، والاشتراكية، والديمقراطية» الصادر عام (١٩٤٢م)، قائلاً: إن جوهر الرأسمالية يتمثل في عملية «التدمير الخلَّاق»- الدورة الأبدية لتدمير المنتجات أو الخدمات القديمة الأقل كفاءة وإحلال منتجات أكثر كفاءة محلها. أما جروف، فقد اتخذ من مقولة شومبيتر «مريض البارانويا هو الذي يعيش فقط» عنواناً لكتابه الذي روَّج لوجهة النظر القائلة بأن الابتكارات التي أدت إلى تغير الصناعة مستمرة بالحدوث اليوم على نحو شديد التسارع. وبفضل عمليات التقدم التكنولوجي المفاجئ هذه، أصبحت سرعة عدّ آخر اختراع اختراعاً بلا قيمة. ولذا فإن مريض البارانويا هو الذي يعيش فقط، أي فقط أولئك الذين ينظرون على الدوام من فوق أكتافهم لمعرفة من الذي يبتدع شيئاً جديداً يمكن أن يدمرهم، وعندئذ يقومون بعمل ما ينبغي عليهم القيام به ليظلوا متقدمين بخطوة.

حلبة المصارعة اليابانية وسباق المئة متر

وإذا ما تمّ تشبيه الحرب الباردة بلعبة رياضية فإنها تشبه المصارعة اليابانية. إنها تشبه رجلين ضخمين داخل الحلبة، بجميع أنواع الأوضاع والطقوس وركلات الأقدام، مع قدر ضئيل بالفعل من الاتصال حتى نهاية المباراة، وأخيراً وبسبب الدفعات العنيفة قد يُدفع الخاسر خارج الحلبة، دون أن يتعرض أحدهما للقتل. وفي المقابل، إذا شبهنا العولمة بلعبة رياضية، فإنها سباق المئة متر يتكرر على الدوام، لا يهم عدد المرات التي يكسبها المرء، فعليه أن

يتسابق ثانية في اليوم التالي. وإذا ما خسر المرء بمقدار (١٪) فقط من الثانية، فإن الأمر يمثل كما لو أنه خسر بمقدار ساعة.

وأخيراً، والأكثر أهمية، تمتلك العولمة بنية خاصة بالقوة الأكثر تعقيداً من بنية الحرب الباردة. لقد كان نظام الحرب الباردة مبنياً، على وجه الحصر، حول الدول القومية، ومتوازناً عند المركز بفعل القوتين العظميين، وفي المقابل، ينبني نظام العولمة حول ثلاثة توازنات متداخلة وتؤثر في بعضها بعضاً.

يتمثل التوازن الأول في التوازن التقليدي بين الدول القومية، ولا يزال هذا التوازن يتسم بأهمية في ظل نظام العولمة، ولا يزال بمقدور هذا التوازن أن يفسر كثيراً من الأخبار التي يمكن قراءتها في الصفحات الأولى من الجرائد، سواءً أكان توسعاً لحلف الناتو في أوروبا الشرقية، أم التدخل في شؤون بلدان الشرق الأوسط كسورية والعراق وليبيا واليمن وغيرها من البلدان.

ويكمن التوازن المهم الثاني بين الدول القومية والأسواق العالمية. تتكون الأسواق العالمية من ملايين المستثمرين الذين يحركون الأموال في أنحاء العالم جميعها من خلال مجرد نقرة على فأرة الحاسوب. ويمكن تسميتهم بـ«القطيع الإلكتروني». إنهم يتجمعون في المراكز المالية العالمية مثل فرانكفورت، وهونغ كونغ، ولندن، ونيويورك «أي الأسواق العظمى». إن بمقدور الولايات المتحدة تدمير البلدان الأخرى بالبخس من قيمة سنداتها المالية.

أما التوازن الثالث في نظام العولمة- وهو الأحدث بين كل التوازنات- فيتمثل في التوازن بين الأفراد والدول القومية. ونظراً لأن العولمة حطمت كثيراً من الأسوار التي كانت تحد من حركة الناس، ومدى ما يمكنهم الوصول إليه، ونظراً لأن العولمة قامت في الوقت ذاته بربط العالم عبر الشبكات الإلكترونية فإنها تمنح الأفراد قدراً من القوة المباشرة أكبر مما كان عليه الأمر في أي حقبة تاريخية سابقة.

إننا اليوم لا نمتلك قوة عظمى فحسب، ولا أسواقاً عظمى فحسب، وإنما أيضاً أفراداً ذوي قدرات تمكينية عظمى. يشعر بعض هؤلاء الأفراد بغضب شديد، ويتمتع بعضهم بروح بناءة عالية، ولكن جميعهم قادر الآن على العمل بصورة مباشرة على المسرح العالمي دون حاجة إلى الوساطة التقليدية من جانب الحكومات أو حتى الشركات.

فنحن إذاً لم نعد نعيش في «عالم ما بعد الحرب الباردة» ذلك العالم الذي كان يموج بالفوضى والتفكك، إننا نعيش الآن في ظل نظام دولي جديد يجري تعريفه من خلال العولمة،

بأجزائهـا وسـماتها المتحركة. ولا تزال الطريـق طويلة حتى يتمّ إدراك كيف سـيعمل هذا النظـام. لقد آن الأوان للاعتراف بظهور نظـام جديد، ومحاولة تحليل الأحداث التي تجري داخله. إن العولمة من حيث الجوهر هي إعادة للتقسيم الدولي للعمل، التي أدت إلى تقليص تكاليـف العمل. ويظهر ذلك واضـحاً من خلال السـوق. إنها ترتكز علـى دعامتين. الأولى هي الاتصـال، وهي تميل للإحلال تدريجياً محل المحرك الأساسي في القرنين الماضيين: التقـدم. فمن المدارس إلى الأعمال التجارية، ومن العائـلات والقانون إلى الحكومة، يوجد الآن أمر واحد: الاتصال.

أمـا الدعامة الثانية فهي السـوق الذي يحل محل التماسـك الاجتماعي، بمعنى فكرة المجتمع الديمقراطي الذي يجب أن يسـير بدقة مثل السـاعة. لا يوجد في السـاعة أي جزء غير ضـروري، وكل الأجزاء موحدة. من هذه الاسـتعارة التي تعود للقرن الثامن عشر، يمكننا اشـتقاق صـيغة اقتصـادية ومالية حديثة. وينبغي أن يسير كل شـيء وفق معايير «السـوق الرئيسي». ما القيم الأساسية، من بين القيم الجديدة؟ الأرباح المفاجئة، والكفاءة والمنافسة، وفي هذا العالم المترابط داخلياً ويحركه السوق، لن يعيش سوى الأقوى، الحياة معركة، وغاية.

كل السلطة للسوق

إنَّ الداروينية الاقتصـادية والاجتماعية بدعواها الدائمة للمنافسة والانتقاء الطبيعي والتأقلـم، تفرض نفسـها على كل فرد وكل شـيء. ينقسـم الأفراد، في ظـل هذا النظام الاجتماعي الجديد، إلى «مذيب» و«غير مذيب»، أي بمعنى قابل للاندماج داخل السوق أو غير قابل لذلك. ويمنح السـوق حماية للقابلين للاندماج داخله فحسـب. وبفضل العولمة يمكن أن ينجح النشطاء الذين يتحلون بأربع صفات أساسية وهي: أنهم كوكبيون، ودائمون، وفوريـون، وغير ماديين من حيث طبيعتهم. فالعولمة، في الحقيقة، مشـيدة كشـيء إلهي حديـث، إذ تتطلب الخضـوع والإيمان والعبـادة وأداء طقوس جديدة. يملي السـوق الحق، والجميل، والجيد، والعادل. لقد أصـبحت قوانين السـوق بمنزلة لوح حجـري للتبجيل. إن الابتعاد عن هذه القوانين سيعرض البشرية للفناء. لا يوجد سوى طريق واحد فقط هو طريق الليبرالية المفرطة من أجل إدارة الشؤون الاقتصادية، ومن ثمّ السياسية. إن الشؤون السياسية هي في واقع الأمر الشؤون الاقتصادية، والاقتصادية هي المالية، والمالية هي الأسواق.

كان البلاشفة سابقاً يقولون كل السلطة للسوفييت! ويطالب مؤيدو العولمة بما يلي: كل السلطة للسوق! والتأكيد قاطع، بحيث أصبحت العولمة، بما لديها من عقيدة ودُعاة، نوعاً من التوتاليتارية الجديدة. وهي تطرح أسئلة عديدة منها: هل يُعَدُّ هذا النظام نهاية للتطور العالمي؟ أي أن هذا النظامَ نظامٌ أبدي، وهل العولمة قادرة على أن تحل مشاكل البشرية بصورة جذرية؟ ليس من السهولة بمكان الإجابة عن هذين السؤالين، ولكن إذا تابعنا تقرير التنمية البشرية للعام (٢٠٠٧م)، على سبيل المثال، فإنه يؤكد أن (١،٥) مليار نسمة يعيشون على أقل من دولار في اليوم. وهذا يطرح التساؤل التالي: لماذا لا يجرى جزء ضئيل من ثروة العالم من أجل فقراء العالم؟ لو تمّ تخصيص (٢٪) فقط من هذه الثروة لمدة (٢٠) سنة لتنمية البلدان المتخلفة، فمن الممكن أن يختفي البؤس الشديد وتختفي معه مخاطر العنف المستوطن في هذه البلدان نتيجة ذلك.

بيد أن العولمة صماء وبكماء إزاء تلك الاعتبارات، وتتنامى الفجوة كل يوم. وإذا تمّ جمع الناتج القومي الإجمالي لجميع البلدان المتخلفة فلن يعادل مجموع ثروة أغنى ثلاثة أفراد في العالم[1].

وعلى الرغم من أن العولمة تحتوي على الكثير من الجوانب الإيجابية، ولكن كيف يمكن التغاضي عن حقيقة انخفاض دخل الفرد في أكثر من (٨٠) بلداً[2] أو في نصف دول العالم تقريباً خلال الـ (١٥) سنة الماضية.

تمثل العولمة عرضاً من أعراض نهاية الدورة: ليس نهاية العصر الصناعي فحسب (مع وجود التكنولوجيا الجديدة اليوم)، وليس نهاية الثورة الرأسمالية الأولى فحسب (مع الثورة المالية)، ولكنها أيضاً نهاية الدورة الفكرية، الدورة التي كان يقودها العقل، كما عرَّفها فلاسفة القرن الثامن عشر. لقد ولَّد العقل السياسة الحديثة، وأشعل شرارة الثورتين الفرنسية والأمريكية، ولكن هذا العقل المشيّد للدولة والمجتمع، والصناعة، والقومية، والاشتراكية، قد تغير تغيراً عميقاً. ويمكن القول من زاوية الفلسفة، إن هذا التحول يمسك بناصية الدلالة الضخمة للعولمة.

لقد عرفت البشرية، منذ العصور القديمة، مبدأين تنظيميين عظيمين: الآلهة، ثمّ العقل، وقد أصبح السوق يخلفهما. والآن هناك خشية من أن انتصار السوق وتوسع العولمة سيسبب حدوث مجابهة ربما تكون حتمية بين الرأسمالية والديمقراطية، تقود فيها الرأسمالية إلى

تركز الثروة والقوة الاقتصادية في أيدي مجموعة صغيرة، وهو ما يقود بدوره إلى التساؤل الآتي: كم ستستغرق عملية إعادة التوزيع من وقت كي تجعل هيمنة الأقلية الغنية مقبولة لدى غالبية سكان العالم؟ إن السوق يعجز عن الإجابة عن هذا السؤال، والعولمة لا تعطي الرفاه لدول العالم بصورة عادلة.

وأخيراً إن السؤال الكبير المطروح الآن كيف يمكن منع أكثر من نصف البشرية من التمرد؟

الهوامش

١- ميلتون فريدمان، دراسات في الاقتصاد الوضعي، باريس، (٢٠١٠م).

٢- فريدريك نوردون، معضلات السياسة الاقتصادية في عصر الأسواق المالية، مجلة الحوليات، شباط، (٢٠١٠م).

البعد الأيديولوجي للعولمة

د.جهاد ملحم

يجب علينا اليوم أن نعتنق منطق العولمة الذي لا ينفصم - أن كل شيء من قوة اقتصادنا إلى سلامة مدننا، إلى صحة شعبنا، يعتمد ليس على ما يجري ضمن حدودنا فقط، بل على ما يجري في نصف الكرة الأرضية الآخر... العولمة لا رجعة فيها.

«بل كلينتون، الرئيس الأمريكي الأسبق»

العولمة (Globalization) هي كلمة حديثة في اللغة العربية وتعود في أصلها الاشتقاقي العربي إلى كلمة عالم وتعني تعميم الشيء ليصبح عالمياً، أو نقله من حيز الخصوصية إلى مجال العمومية في مستواها الكوني. والتعريف الأكثر شمولاً للعولمة، الذي يردده دعاتها، بأنها نظام عالمي جديد يقوم على حرِّيَّة انتقال المعلومات وتدفُّق رؤوس الأموال والسِّلع والتِّكنولوجيا والأفكار والمنتجات الإعلاميّة والثَّقافيّة والأفراد بين المجتمعات الإنسانيّة جميعها حيث تجري الحياة في العالم كأنه قرية صغيرة. والعولمة، في نهاية المطاف، هي ظاهرة تسير بالمجتمعات الإنسانية قاطبة نحو التجانس الثقافي وتكوين الشخصية العالمية ذات الطابع الانفتاحي على ما حولها من مجتمعات وثقافات مختلفة. إلا أن معارضي العولمة يرون فيها الوجه السياسي القبيح لسيطرة النمط الأمريكي والغربي في العالم دون الأنماط الأخرى، بل هي أبشع وأحدث صور الهيمنة الاستعمارية.

وقد ظهر مصطلح العولمة عام (١٩٦٠م) في كل من الأدبين الشعبي والأكاديمي، لتوصيف عملية، حالة، منظومة، قوة، وعصر. لكن الكلمة نفسها استخدمت على نطاق

واسع، أولاً وقبل كل شيء في الولايات المتحدة، في وقت مبكر من عام (١٩٤٠م). في تلك الفترة كانت الولايات المتحدة أعظم قوة اقتصادية وعسكرية عرفها التاريخ البشري. وقد عبّر جورج كينان أحد مخططي السياسات الأمريكية في شباط/ فبراير من عام (١٩٤٨م) عن ذلك بقوله: «نمتلك حوالي (٥٠٪) من ثروة العالم، بينما لا نشكل سوى (٦,٣٪) من عدد السكان فقط، لذلك ستكون مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة إنشاء نمط من العلاقات الدولية يسمح لنا بالحفاظ على هذا التفوق المطلق».



مظاهرات معادية للعولمة في أثناء انعقاد قمة دول العشرين في هامبورج، ٧-٨ تموز/يوليو ٢٠١٧م.

ما هي الأيديولوجية؟

يمكن تعريف الأيديولوجية بأنها منظومة من الأفكار المشتركة على نطاق واسع، والمعتقدات النمطية، والقواعد والقيم الموجهة، والمثل العليا التي تقبلها مجموعة معينة من الناس حقيقةً واقعة. تقدم الإيديولوجية للأفراد صورة متماسكة تقريباً للعالم ليس كما هو عليه الآن فقط، بل كما يجب أن يكون عليه مستقبلاً، وتعمل على تنظيم التعقيد الهائل للخبرات الإنسانية على شكل صور بسيطة، لكنها مشوهة في الغالب، تُعَدُّ بمنزلة دليل وبوصلة العمل السياسي والاجتماعي. ويسعى دعاة العولمة لإشباع المجتمع بقيمهم ومبادئهم المفضلة، بتقديمهم لعامة الناس جدول أعمال محدد من الأشياء التي يجب مناقشتها، والمطالب التي يجب تحقيقها، والأسئلة التي يجب طرحها. ويتحدثون إلى مستمعيهم بقصص وحكايات تقنع، وتمجّد، وتدين، وتميّز الحقائق من الأكاذيب، وتفصل السيئ عن الجيد.

ولذلك يمكننا القول إن الإيديولوجية تجمع بين النظرية والتطبيق لأنها توجه وتنظم الأفعال البشرية بما يتوافق مع دعاوى عامة ومجموعة من القواعد الإرشادية.

إذاً، مثل كل العمليات الاجتماعية، تحتوي العولمة على بعد أيديولوجي يشمل مجالاً واسعاً من القواعد والدعاوى والمعتقدات والروايات حول الظاهرة نفسها. على سبيل المثال، فإن الجدال الشعبي المحتدم حول ما إذا كانت العولمة تمثل شيئا سيئاً أو جيداً يقع في مجال الأيديولوجية. وبالتالي، قبل الغوص في البعد الأيديولوجي للعولمة، يجب أن نبين أن هناك اختلافاً تحليلياً مهماً بين كلمة Globalization – وهي عمليات اجتماعية تقوي الترابط العالمي يصفها نقاد شتى بطرق مختلفة ومتناقضة في أغلب الأحيان – وكلمةGlobalism – كأيديولوجية تمنح مفهوم العولمة معاني وقيم الليبرالية الجديدة (النيوليبرالية) أو «العولمة الجديدة».

سنحاول في هذا البحث تحليل الدعاوى الأيديولوجية الخمس التي تتكرر باستمرار في خطب وأحاديث وكتابات مؤيدي العولمة، آخذين في الحسبان أن هدفها تسويق أجنداتهم السياسية والاقتصادية.

الدعوى الأولى: العولمة هي حول تحرير الأسواق وتكاملها عالمياً

مثل كل الأيديولوجيات، تبدأ أيديولوجية العولمة بمحاولة تقديم تعريف رسمي حول ماهية الظاهرة ككل. بالنسبة إلى الليبراليين الجدد، فإن تعريفاً كهذا يرتكز على فكرة السوق ذاتية التنظيم التي تشكل إطاراً للنظام العالمي مستقبلاً. وكما هو حاصل الآن، يلتمس الليبراليون الجدد أن يزرعوا في عقول عامة الناس الرابطة غير النقدية للعولمة بما يؤكدونه من فوائد تحرير الأسواق، وهم، على وجه خاص، يقدمون تحرير الأسواق العالمية وتكاملها كظاهرتين طبيعيتين تزيدان في الحرية الفردية والتقدم المادي في العالم.

وهذه الدعوى التي يطلقها مؤيدو العولمة لتحرير الأسواق وتكاملها لا تتحقق إلا من خلال مشروع سياسي يعمل على هندسة الأسواق الحرة. ويتطلب ذلك استخدام سلطة الدولة لإضعاف وإلغاء السياسات الاشتراكية والمؤسسات التي تحد من حرية الأسواق. وبما أن الحكومات القوية هي وحدها التي تتولى هذه المهمة الطموحة في تغيير الترتيبات الاجتماعية القائمة، فإن تحريراً ناجحاً للأسواق يعتمد على تدخل حكومات مركزية قوية، مع العلم أن مثل هذه التدخلات تقف بقوة ضد الشعار المثالي الذي يرفعه الليبراليون الجدد

المتمثل في تحديد دور الحكومات. ومع ذلك، يتوقع مؤيدو العولمة من الحكومات دوراً فعالاً في تنفيذ أجنداتهم السياسية. وهذا الدور الفعال الذي لعبته الحكومات الليبرالية الجديدة في كل من أمريكا، بريطانيا، أستراليا ونيوزيلندا بين عامي (١٩٨٠ و١٩٩٠م) يشهد على أهمية تدخل الحكومات القوي في هندسة الأسواق الحرة.

علاوة على ذلك، فإن الادعاء بأن العولمة هي حول تحرير الأسواق وتكاملها على الصعيد العالمي يثبت حقيقة ما هو في الواقع مبادرات سياسية طارئة. فقد حقق مؤيدو العولمة النجاح لأنهم أقنعوا عامة الناس بأن الليبرالية الجديدة للعولمة تمثّل هدفاً، أو على الأقل، تشخيصاً حيادياً للشروط الاجتماعية الفعلية التي يدّعون تحليلها. ومما لا شك فيه، أن الليبراليين الجدد قادرون حقاً على تقديم دليل تجريبي معين على تحرير الأسواق التجارية. فهل يعود انتشار مبادئ السوق فعلياً لوجود علاقة ميتافيزيائية بين العولمة وانتشار الأسواق التجارية؟ أو هل يعود لأن لدى أنصار العولمة السلطة السياسية والمنطقية لصياغة العالم إلى حد كبير توافقاً مع معادلتهم الأيديولوجية الشهيرة: تحرير الأسواق + تكاملها = العولمة؟

أخيراً، فإن المبالغة في تمثيل العولمة بالجانب الاقتصادي فقط يقلل من أهمية الأبعاد الأخرى للظاهرة، حيث يُنظر إلى الأبعاد السياسية والثقافية كعمليات ثانوية فقط تعتمد على حركات الأسواق العالمية. إنّ كان على المرء قبول الدور المركزي للبعد الاقتصادي للعولمة، لا يوجد سبب للاعتقاد أن هذه العمليات يجب أن تكون بالضرورة مرتبطة بتحرير الأسواق. هناك وجهة نظر أخرى بديلة تقترح مزاوجة العولمة بخلق إطار تنظيمي عالمي يجعل الأسواق خاضعة للمساءلة أمام المؤسسات السياسية الدولية. وحالياً، يرى أنصار العولمة في تقديم العولمة مشروعاً يعمل على تحرير الأسواق العالمية وتكاملها إضافة إلى تحرير الأفراد من سيطرة الحكومات بأنه الطريق الأفضل لتجنيد عامة الشعوب في الصراع ضد هذه القوانين والمؤسسات التي يجدونها أكثر صرامة. وبمقدار النجاح الذي يحققونه في تسويق مفاهيم الليبرالية الجديدة إلى أجزاء واسعة من العامة، بمقدار ما يصبح لديهم إمكانية المحافظة على نُظُم اجتماعية تناسب مصالحهم الخاصة.

الدعوى الثانية: العولمة حتمية ولا رجعة فيها

من نظرة أولى، فإن فكرة الحتمية التاريخية للعولمة لا تبرر بشكل مقنع أيديولوجية تستند إلى مبادئ الليبرالية الجديدة. بعد كل ذلك، وطوال القرن العشرين المنصرم، قام الليبراليون

والمحافظون بتوجيه انتقادات منطقية ضـد الماركسـيين لادعاءاتهم الحتمية التي تقلل من شأن حرية الإنسـان ومن قدرة العوامل غير الاقتصادية على تشكيل الواقع الاجتماعي. ومع ذلـك، يعتمد مؤيدو العولمة على رواية أحادية مماثلة، رواية اقتصـادية للحتمية التاريخية. وفقاً لتفسير أنصار العولمة، تعكس العولمة الانتشار الحتمي لقوى السوق التي لا رجعة فيها مدفوعة بالابتكارات التكنولوجية.

صـورة الليبرالية الجديـدة للعولمة كنوع من القوى الطبيعية، مثـل الطقس أو الجاذبية، تجعل من السهل لدعاتها إقناع عامة الناس بضرورة التكيّف مع نظام السوق إذا أرادوا البقاء والازدهار. بناء عليه، فإن دعوى الحتمية يمنع تسييس الخطاب العام حولها. إذ إن السياسات الليبرالية الجديدة سـتكون فوق السياسة، لأن أصحابها بكل بساطة يطبقون قوانين الطبيعة. وهذا الأمر يتطلب من الناس، بدلاً من العمل وفقاً لمجموعة من الاختيارات، الامتثال لقوانين السوق العالمية فقط التي تقتضي التخلص من سيطرة الحكومات. وكما اعتادت رئيسة وزراء بريطانيا السـابقة مرغريت تاتشـر القول: «ليس هناك بديل». إذا لم يكن بالإمكان فعل أي شـيء حول الحركة الطبيعية للقوى التكنولوجية والاقتصـادية، عندئذ يجب على الجماعات السياسـية أن تذعن وتفعل الأفضـل لحالة غير قابلة للتغيير. ستكون المقاومة غير طبيعية، وغير عقلانية، وخطيرة.

تجعل فكرة الحتمية من السـهل أيضـاً إقناع عامة الناس على تقاسم أعباء العولمة، وتدعم بذلك أي مبرر يستخدمه غالباً سياسيو الليبرالية الجديدة: «إنها الأسواق هي التي جعلتنا نقتطع مـن ميزانية البرامج الاجتماعية». وكما عبّر الرئيس الألماني السـابق رومان هيرزوغ في نداء تلفزيوني موجه لعامة الشعب، أن الضغط الذي لا يقاوم من قوى العولمة يتطلب من كل شخص أن يقدم تضحية. من المؤكد، أن الرئيس هيرزوغ لم يوضّح مطلقاً، ما نوع التضحيات التي سوف تنتظر كبار المُسـهمين والمديرين التنفيذيين للشركات. وتوضح لنا بعض الأمثلة الحديثة، مثل الانهيار الدراماتيكي لشـركة إنرون (Enron) في الولايات المتحـدة الأمريكية عام (٢٠٠١م)، وإفلاس كثير من البنوك الأمريكية والأوروبية عام ٢٠٠٨، أن التضحيات تتم على حساب العمال والموظفين الذين فقدوا مهنهم أو تأميناتهم الاجتماعية نتيجة السياسات الليبرالية الجديدة.

أخيـراً، فإن دعوى أن العولمـة حتمية ولا رجعة عنها يتم إدراجها في خطاب أكثر تطوراً يعطي مكانة متميزة لبعض البلدان في طليعة تحرير الأسـواق من السيطرة السياسية. وكما

يؤكد كثير من النقاد، فإن المتفائلين من مؤيدي العولمة المطلقة غالباً ما يستخدمون العولمة كناية عن أمركة للعالم يتعذر الوقوف أمامها. وهكذا يبدو أن قوى العولمة قد أحيت نموذج القرن التاسع عشر عن الطليعة الإنكليزية الأمريكية التي روّج لها كثيرون من أمثال هربرت سبنسر وويليم غراهام سومر. المكونات الرئيسة الكلاسيكية للأسواق الحرة موجودة كلها في أيديولوجية العولمة. نجد فيها أن قوانين الطبيعة الراسخة تحبذ الحضارة الغربية والنموذج الاقتصادي الذاتي للمنافسة الكاملة، فضائل المؤسسة الحرة، ورذائل تدخل الدولة، ومبدأ عدم التدخل، والعملية التطورية غير القابلة للعكس والتي تؤدي إلى بقاء الأصلح.

الدعوى الثالثة: لا أحد مسؤول عن العولمة

اللغة الحتمية التي تُصاغ بها أيديولوجية العولمة تقدم لنا صورة بلاغية أخرى. إذا كانت القوانين الطبيعية للسوق قد أسهمت بالفعل في مسار الليبرالية الجديدة من التاريخ، عندئذ لن تعكس العولمة أجندة استبدادية لطبقة اجتماعية معينة أو لزمرة محددة. في هذه الحالة، فإن أنصار العولمة يقومون فقط بالضرورات التي لا يمكن تغييرها بقوة فائقة. ليس الشعب مسؤولاً عن العولمة؛ السوق والتكنولوجيا هما المسؤولتان. بعض الأفعال البشرية يمكن أن تسرع أو تؤخر العولمة، لكن في التحليل النهائي، فإن اليد الخفية للسوق سوف تؤكد دائماً على حكمتها الأكبر. يقول روبرت هورماتس، رئيس مؤسسة غولدمان ساكس الأمريكية الدولية للخدمات المالية والاستثمارات: الجمال العظيم للعولمة يكمن بأنه لا يمكن السيطرة عليها من فرد، أو من حكومة، أو من مؤسسة.

لكن السيد هورماتس محق بالمعنى الرسمي فقط. قد لا تكون هناك مؤامرة واعية من قوة شيطانية واحدة، لكن لا يعني هذا عدم وجود أحد مسؤول عن العولمة. إن تحرير الأسواق العالمية وتكاملها جاء بإرادة بشرية ولم يأتِ من الفضاء الخارجي. ويرى كثير من النقاد بأن مبادرة أنصار العولمة في تحرير السوق وتكاملها حول العالم تخلق علاقات قوى غير متكافئة وتحافظ عليها. ولأن الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد بعيد هي الأقوى عسكرياً واقتصادياً على مستوى العالم، تجد أكبر «الشركات عبر الوطنية» مقرها في أراضيها. هذا لا يعني أن قوانين الولايات المتحدة فوق هذه العمليات الضخمة للعولمة، لكنها تشير إلى أن مستوى العولمة واتجاهها يتحدد إلى درجة كبيرة بالسياسة الخارجية والوطنية للولايات المتحدة.

باختصار، الادعاء بأن العولمة عملية من دون قيادة لا تعكس الواقع في عالم اليوم. بدلاً من ذلك، فإنها تخدم الأجندة السياسية في الدفاع عن مصالح دول الشمال الغنية وتوسعها في حين تعمل على تأمين قوة الكيانات التابعة لها في نصف الكرة الجنوبي. وكما هي الحال في فكرة الحتمية التاريخية، فإن الفكرة القائلة بأن لا أحد هو المسؤول تهدف إلى عدم تسييس النقاش العام وبالتالي تجميد الحركات المعادية للعولمة. ما دام جزء كبير من السكان يتقبل صورة العولمة كقوة ماحقة موجهة ذاتياً تجد طريقها ببساطة، يصبح من الصعب للغاية تنظيم حركات مقاومة لها. وعندما يتوقف الناس العاديون عن الاعتقاد بإمكانية اختيار ترتيبات اجتماعية بديلة، فإن مقدرة العولمة لبناء هويات استهلاك سلبية تكتسب قوة أكبر.

الدعوى الرابعة: منافع العولمة للجميع

تقع هذه الدعوى في قلب أيديولوجية العولمة تماماً لأنها تقدم جوابا إيجابياً عن السؤال المعياري الحاسم فيما إذا كانت العولمة أمرا سيئاً أم حسناً. غالباً ما يربط أنصار العولمة حججهم بالمنافع المزعومة الناتجة عن تحرير الأسواق: ارتفاع مستوى المعيشة العالمي، فعالية اقتصادية، حرية فردية، وتقدم تقني غير مسبوق. يقول جورج ديفيد، نائب رئيس شركة التكنولوجيات المتحدة الأمريكية: نحن نعيش في عصر مثالي حيث تتراجع الحواجز بين الدول، ويتحرر الاقتصاد ويتعافى، وتتسع التجارة والاستثمار، وتتقلص الفوارق في الدخول بين الأمم، وتتزايد الثروة إلى مستويات عالية، وأعتقد أن من المرجح أن تظل الأمور كذلك.

ومع ذلك، لا يُظهر لنا السيد ديفيد أبداً الأبعاد الإيديولوجية وراء تصريحاته. من «نحن» بالضبط؟ ما الدلائل على أن عصر الليبرالية الجديدة مثالي؟ وماذا تعني كلمة «اقتصاد معافى»؟ في الواقع، وعلى كل حال، هناك دليل صلب يدل على النقيض من ذلك. عندما تسير السوق بعيداً في السيطرة على الحصيلة السياسية والاجتماعية، فإن الفرص ومكافآت العولمة ستنتشر بشكل غير متساو، وستتركز السلطة والغنى بأيدي زمرة مختارة من الناس، من الأقاليم، والشركات على حساب الأكثرية. حتى إن المعطيات المأخوذة من البنك الدولي تفيد أن تفاوت الدخل بين الدول يتوسع فعلياً بتواتر أسرع مما حصل في أية مرحلة سابقة من مراحل التاريخ الحديث.

في تقرير للأمم المتحدة نشر بين عامي (١٩٩٩ و٢٠٠٠) حول التنمية البشرية تبين أنه، قبل انطلاق العولمة بشكل كبير في عام (١٩٧٣م)، فإن نسبة الدَّخل بين أغنى الناس وأفقرهم هي بنسبة (٤٤) إلى واحد. بعد خمس وعشرين سنة من ذلك التاريخ ارتفعت النسبة إلى (٧٤) إلى (١). وبعد انتهاء الحرب الباردة عام (١٩٩٠م)، ارتفع عدد الأشـخاص تحت خط الفقر من(١,٢) مليار شـخص عام (١٩٨٧م) إلى (١,٥) مليار شخص عام (٢٠٠٢م). إذا استمرت الاتجاهـات الحالية، فإن عدد الفقراء سيصـل بحلول عـام (٢٠٢٠م) إلى حوالي (٢) مليار شخص. هذا يعني أنه في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، سيعيش (٢٥٪) من الجنس البشـري على أقل من (١٤٠) دولاراً في العام الواحد. وفي الوقت نفسـه، فإن أغنى (٢٠٠) رجل في العالم ضـاعفوا ثروتهم الصـافية إلى أكثر من (١٠٠٠) مليـار دولار ما بين عامي (١٩٩٤ و١٩٩٨م)، كمـا بلغت ثروة أغنى ثلاثـة من مليارديرات العالم مجموع الدخل الوطني لحوالي ٦٠٠ مليون نسـمة من البلدان الفقيرة. وآخر الإحصـائيات الصادرة تقدر أن الثروة المالية لـ(١٪) من العائلات الأمريكية فقط تساوي الثروة المجتمعة لـ(٩٥٪) من عائلات الطبقات الدنيا، مما يعكس زيادة مهمة في التفاوت الطبقي في العشرين سنة الأخيرة.

هناك قلة من مؤيدي العولمة تقر بوجود عينات من عدم المسـاواة على مسـتوى العالم، لكنها تصـر على أن الأسـواق بحد ذاتها سـوف تصـحح في نهاية المطاف هذه «الفوارق». وتعتقد أن هذه الاضـطرابات العرضـية ضرورية على المدى القصـير، وستفسح في نهاية المطـاف المجال إلى قفزات نوعية في الإنتاج العالمي. أمـا مؤيدو العولمة الذين ينتقدون التوصـيف الرسـمي للعولمة بأنها مفيدة لكل شخص، يجب عليهم أن يتحملوا نتائج نقدهم. وهذا ما حصـل مع جوزيف سـتيجلتز، حامل جائزة نوبل والرئيس الاقتصادي السابق للبنك الدولي، حيث لاقى هجوماً عنيفاً لنقده العلني السياسـات الاقتصادية المتمسكة بالليبرالية الجديدة التي خلقتها مؤسسـته، وقد جادل سـتيجلتز بأن برامج الإصـلاح الاقتصادية التي فُرضـت على بلدان العالم الثالث من البنك الدولي وصـندوق النقد الدولي (IMF) غالباً ما أدت إلى نتائج كارثيّة، وأشـار أيضـاً إلى أن أنصار العولمة استخدموا أزمة اقتصاديات آسيا لعـام (١٩٩٧- ١٩٨٨م) من أجل الإسـاءة إلى تدخل الدولـة وتقديم مزيد من الدعم لتحرير الأسواق. مع نهاية عام (١٩٩٩م)، أُجبر ستيجلتز على الاستقالة من منصبه في البنك الدولي، وبعد خمسة أشهر، أُلغي عقده الاستشاري نهائياً مع البنك العالمي.

الدعوى الخامسة: العولمة تعزز انتشار الديمقراطية في العالم

هذه الدعوى لمؤيدي العولمة متأصلة في تشديد الليبراليين الجدد على أن السوق الحرة والديمقراطية مصطلحان مترادفان. فقد أكد باستمرار «الحس السليم»، والتوافق الحالي لهذه المفاهيم في كثير من الأحيان أنها تذهب دون منازع في الخطاب العام. وهذا ما عبّر عنه فرانيسيس فوكاياما، من جامعة جونز هوبكنز، بقوله: إن مستوى النمو الاقتصادي الناتج عن العولمة سيؤدي إلى خلق مجتمعات مدنية معقدة مع طبقة وسطى فعّالة تسهل العملية الديمقراطية.

وتتوقف حجج المؤيدين على مفهوم للديمقراطية يشدد على الإجراءات الشكلية مثل الانتخابات التي تتم على حساب المساهمة المباشرة للأكثرية الواسعة في صناعة القرارات السياسية والاقتصادية. هذا التعريف «السطحي» للديمقراطية يعكس نموذجاً نخبوياً ومتسلطاً في ديمقراطية منخفضة المستوى أو ما يسمى بديمقراطية السوق الرسمية. من الناحية العملية، فإن البراعة في صياغة عدد قليل من العناصر الديمقراطية في البنية السلطوية يكفل بشكل أساسي لهؤلاء الفائزين في الانتخابات البقاء منعزلين عن الضغوط الشعبية وبالتالي يمكنهم أن يحكموا بفعالية. بناء عليه، التأكيد بأن العولمة تعزز انتشار الديمقراطية في العالم يستند إلى حد كبير على مفهوم سطحي للديمقراطية.

في عام (١٩٩٨م)، قدمت الدول الديمقراطية تقريراً بيّن أن أكثر من نصف مستوردات الولايات المتحدة هو من دول الجنوب. بعد عشر سنوات، ومع المزيد من البلدان التي اختارت النموذج الديمقراطي، صدّرت الدول الديمقراطية بالكاد ثلث مستوردات الولايات المتحدة. وهذا الاتجاه العام يتنامى. وبزيادة الدول التي تتبنى الديمقراطية كنظام حكم، فإن المزيد من رجال الأعمال الأمريكية يظهر أنهم يفضلون البلدان الديكتاتورية. هذه الوقائع تطرح علامات استفهام فيما إذا كانت الصفقات الأجنبية وقرارات الاستيراد من الشركات الأمريكية هي فعلياً تقوّض أساس استمرار الديمقراطيات الهشة. لماذا الكثير من المانحين الأقوياء في بلدان الشمال الغني يضعون هذه القرارات في مجال المال والأعمال؟ من جهة أولى، تميل الأجور للانخفاض في الأنظمة الاستبدادية أكثر مما هي عليه في الأنظمة الديمقراطية، وتُعطى الشركات ميزة النقدية في بيع الصادرات إلى الخارج. ومن جهة أخرى، فإن انخفاض الأجور، وعدم وجود تأثير فعّال للنقابات العمالية، وغياب القوانين المتشددة التي تحمي البيئة تعطي الأنظمة الديكتاتورية أفضلية جذب الاستثمار الخارجي.

علاوة على ذلك، فإن دعوى العولمة حول تدعيم الديمقراطية وانتشارها لا تتوافق مع أدلة متوفرة تشير إلى عكس ذلك. وهذا ما أكدت عليه خدمة المعلومات الاقتصادية الجديدة (N EIS) في تقريرها الذي نشرته صحيفة شيكاغو تريبيون، حين أشارت إلى أن البلدان الديمقراطية في وضع تخسر فيه شركاتها السباق مع شركات التصدير الأمريكية واستثماراتها الأجنبية.

خاتمة

إن فحصاً نقدياً للدعاوى المركزية الخمس لإيديولوجية العولمة يشير إلى أن لغة الليبراليين الجدد هي لغة أيديولوجية، بمعنى أنها ذات دوافع سياسية وتسهم باتجاه بناء مضامين خاصة للعولمة تصون وترسّخ علاقات القوة غير المتناظرة والسائدة حالياً. لكن الهدف الأيديولوجي يسير فيما وراء مهمة تزويد العامة بتفسير ضيق لمدلولات العولمة فقط. فأيديولوجيا العولمة تتألف من روايات قوية تسوّق وجهة نظر عالمية شاملة عن الليبرالية الجديدة، وتخلق فيما يتعلق بذلك معاني جماعية وتشكّل هويات الناس.

المراجع

١ـ د.جهاد ملحم، تاريخ العولمة، مجلة المعرفة، العدد (٥٩٧)، دمشق، (٢٠١٣م).

٢ - د.جهاد ملحم، البعد السياسي للعولمة، مجلة المعرفة، العدد (٦٢١)، دمشق، (٢٠١٥م).

٣ - د. جهاد ملحم، البعد الثقافي للعولمة، مجلة المعرفة، العدد (٦٣٩)، دمشق، (٢٠١٦م).

4 - Nye, Joseph (15 April 2002), «Globalisme Versus Globalization». The Globalist, Retrieved 27 October (2014).

5 - James, Paul; Steger,Manfred B. Globalisation and Culture, Volume IV: Idiologies of Globalism. London: Sage Publications (2010).

6- Veseth, Michael, ed. (2002). The Rise of the Global Economy. The New York Times 20th Century in Review. Chicago, IL: Fitzroy Dearborn Publisher. ISBN 978 -1 -57958 -369 -9.

7- Manfred B.Steger, Globalization,Oxford University Press, (2003).

الدراسات والبحوث

عولمة الفقر والنهب

«اعطفوا على الفقراء بالقضاء عليهم»

د. ناصر محي الدين الملوحي

لقد اعتاد الغربيون أن يعلنوا الحرب على كل شيء فكما أبادوا وقتلوا السكان الأصليين في العالم الجديد ونشروا الحروب والفتن على مستوى عالمي حتى إنهم جعلوا القرن العشرين أكثر دموية في التاريخ البشري بسبب عشرات الملايين من الضحايا نتيجة الحرب الغربية (العالمية) الأولى والثانية، وبسبب استخدام - لأول مرة في التاريخ- السلاح النووي ضد البشر بالإضافة إلى أسلحة الدمار الشامل بمختلف أنواعها البيولوجية والكيميائية والصناعية... نظراً لكون العقل الأوروبي- الأمريكي مفلساً وحضارته متهافتة بالرغم من تقدمه التقني- العسكري، لأنه يعتمد شريعة الذئاب والأنياب في علاقاته الدولية على المستوى الإنساني، فنموذج الحضارة الغربية- وبتحليل المؤلفين الأوروبيين أنفسهم- لم يعد صالحاً لبناء المستقبل، والدعاية الأوروبية والأمريكية المفرطة لهذا النموذج كانت جزءاً من الحرب الباردة بين الأمم؛ ولهذا يجب وضع هذا النموذج -حسب مارتين وشومان في كتابهما فخ العولمة- في متحف الأسلحة القديمة لأنه يعود إلى عصور منقرضة وأدى إلى التدهور الاقتصادي والتدمير البيئي والانحطاط الثقافي على المستوى العالمي[1].

وبناءً على هذا التحليل العلمي للحضارة الغربية يمكن بحث موضوع إنفلونزا الطيور ضمن خطة إستراتيجية إعلامية غربية تهدف إلى زعزعة الاستقرار الغذائي في البلدان النامية بحيث تزيد من مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية الأمر الذي يؤدي إلى

حدوث اضطرابات اجتماعية نتيجة تدمير البنية الاقتصادية السكانية المعتمدة على تربية وبيع الطيور بمختلف أنواعها وبالتالي يؤكد صحة استنتاجنا:

– بأن إنفلونزا الطيور هو مرض عادي كان يصيب الطيور سابقاً ولكن آلية التضخيم الإعلامي الغربي المتصهين التي تجعل من الحمار حصاناً، هي التي ضخمت المرض عالمياً وإعلامياً.

– احتمال كبير لكون هذا المرض وغيره من الأمراض مثل الإيدز والسارس... يدخل ضمن أسلحة الدمار الشامل البيولوجية المصنعة اعتماداً على هندسة المورثات والتلاعب بالصبغيات للكائنات الحية المجهرية (الميكروبات) دون رادع أخلاقي أو وازع من ضمير نظراً لكون هذا الرادع أو الضمير غير موجود بالأصل عند أصحاب القرار في الحضارة الغربية المريضة.

ويمكن تأكيد هذين الاستنتاجين **بالمنطق الرياضي** الآتي:

الفرض:

أمراض الفيروسات شديدة الفَوعَة والسمية (أنفلونزا الطيور، الإيدز..) هي أمراض مهندسة وراثياً ضمن خطة إستراتيجية غربية ومستخدمة ضمن أسلحة الدمار الشامل البيولوجية ضد البلدان النامية والمتقدمة صناعياً والمنافسة للدول الأوروبية الأمريكية في قارة آسيا وإفريقيا...

الطلب:

الفيروسات الجديدة الممرضة... صناعة غربية هندسية وراثية.

البرهان:

وهنا سوف نقوم بسلسلة من الممارسات الرياضية المنطقية المباشرة وغير المباشرة لتأكيد تلك الفرضية.

– أدلة غير مباشرة (المناخ الغربي العام):

١– الأمن القومي الأمريكي يستوجب حذف الفقراء في القرن العشرين:

إن الحضارة الغربية الحديثة هي حضارة علمانية إلحادية وثنية تدور في إطار الحواس الخمس والمنفعة واللذة ولا يوجد مقدس عندها وابتعدت عن المنظومة الأخلاقية المسيحية

وفي جوهرها تقترب من العقلية الصهيونية التلمودية المتطرفة **فالحضارة الغربية الحديثة هي حضارة إباديّة منذ البداية**، فعصر النهضة الأوروبية بدأ بإبادة الهنود الحمر بالإضافة إلى عمليات الإبادة التي رافقت الاستخراب الإرهابي الأوروبي للبلدان خارج أوروبا.

وقد عادت إلى الظهور جميع أشكال **المالتوسية الجديدة والدارونية الاجتماعية القائمين على الحرب، وبقاء الأقوى، فالفقراء فضلة زائدة** عن اللزوم ولا سيما في البلدان النامية **والحل الغربي الأبسط هو حذفهم من الوجود** وقد وصل إفلاس العقل الغربي وتهافته في وصف الشعوب النامية بأنهم محمية شهيرة، مثل حديقة الحيوان في إفريقيا حيث يقول الأمريكي درابر وهو أحد مديري شركة روديلون الأمريكية:

(أصبحت الفيلة فيها كثيرة العدد، تدمر الأشجار وتحرم بقية الحيوانات قوتها فقرر حراسها أن ينقصوا بعض الأنواع للمحافظة على توازن البيئة).

ولكن من الذي سيكون حارس الحديقة بالنسبة للنوع الإنساني؟

إنها أمريكا، فالوثيقة NSSM 200 الأمريكية التي قدمها اليهودي كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى رئيسه بتاريخ (٢٦) تشرين الثاني (١٩٧٥م) بهدف الحد من نمو السكان ونمو الإنتاج في العالم توضح اتخاذ تدابير قوية لإجبار سكان البلدان النامية على قبول الحد من المواليد وعدم تزايدهم من أجل الأمن القومي للولايات المتحدة وذلك بحرمانهم من الغذاء وعن طريق الحروب والمجازر الوحشية..

وتقول الوثيقة بأن الإشراف على المواليد أحد المعايير للحصول على معونتنا؟ وتشير إلى التجارب الناجحة في تعقيم الهنود بعد منحهم ميزات مالية ومكافآت مادية... وهذا **القتل الوقائي للشعب** (العبارة من عند اليونيسيف) قد نُفِّذت بصورة كبيرة في العالم الثالث، إن (٤٤٪) من النساء في البرازيل تُحقن وهنَّ في سن الخصب بشكل رسمي، وإن تعقيم النساء شائع في أمريكا اللاتينية وآسيا، (٣٩٪) في جمهورية الدومينكان، (٣٧٪) في كوريا الجنوبية .. **ولكن هذا الكذب الغربي على فقراء الجنوب يظهر بالقول: أنتم فقراء لأن لديكم كثرة مفرطة من الأطفال.. بدلاً من أن يقال لهم: أنتم فقراء لأن الاستعمار الغربي نهب خيراتكم ودمر اقتصادكم..** ثم جاء صندوق النقد الدولي والبنك الدولي واتفاقية التجارة الدولية لكي يستمروا في النهب الاستعماري وفرض نماذج للتطور الاستهلاكي وسياسة تكون تابعة ذليلة لمصالح الدول الغربية[٢].

وأخيراً تتصف القدرة العلمية الأمريكية بأن العلم يوجه لتحقيق **التوسع الاستعماري الأمريكي** عبر زيادة تقنية القوة العسكرية والسيطرة على العقول لتكوين الشخصية المستسلمة[٣]، فالأبحاث العلمية كونت وسهلت الطرق لتنفيذ المخطط الغربي الأمريكي طويل المدى لديمومة قرصنة خيرات الشعوب في العالم.

٢- وظيفة العلم في الإستراتيجية الغربية:

إن المقولات الغربية التي تصدر إلينا تحت شعار **العلم للعالم والعلم للإنسان**، لامعنى لها، وليست سوى **غطاء كاذب** يخفي تحته العديد من الأهداف السياسية والاقتصادية، حيث بدأت **الإستراتيجية الغربية الأوروبية والأمريكية** على وجه الخصوص بخطط لعملية تحكم **واسعة النطاق في العقل السياسي والثقافي للشعوب الضعيفة** في البلدان النامية مستخدمة خبرتها الطويلة التبشيرية والاستشراقية والاستعمارية بالإضافة إلى أحدث وسائل السيطرة التقنية والإعلامية والدعائية... **فالعلم** داخل الدول الغربية وخارجها أداة للاستثمار والسيطرة والاستعمار تماماً كالسلعة، فقد وجد العلم هناك أساساً لخدمة الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الصناعية المتقدمة، فهو يمثل **عائداً نفعياً وأداة للسيطرة الاستعمارية الغربية**، وتتضح هذه الحقيقة أكثر إذا ما علمنا أن جملة ما أنفقته مثلاً وزارة الدفاع الأمريكية على البحوث العلمية المختلفة في عام واحد وهو (١٩٨١م) قد بلغ (١٧) بليون دولار أي حوالي (١٠٪) من ميزانية الدفاع الكلية في ذلك العام التي بلغت (١٦٠) بليون دولار، بل إن مخصصات البحث العلمي للبنتاجون ارتفعت بمقدار (٢٠٪) خلال عام واحد هو عام (١٩٨٠- ١٩٨١م)، وأنها في عام (١٩٨٧م) وصلت إلى حوالي (٣٠٪) وهي متصاعدة باستمرار خاصة بعد أحداث (١١) أيلول، وقد كانت وكالة المخابرات الأمريكية خلف إنشاء العديد من الجامعات في دول العالم الثالث واستمرارها حتى الآن مثل كلية مكومبي الدولية في زامبيا، وبعض جامعات إكوادور، وأرجواي والمكسيك، والجامعة الأمريكية بأنقرة وبيروت والقاهرة فالهدف من احتلال والسيطرة على العقول تتداخل وتنسجم مع الأهداف التوسعية والاستعمارية القديمة التي تمثلها الجيوش، والحديثة التي تمثلها الشركات متعددة الجنسيات، ويصبح البحث العلمي والعلم والمشتغلون به، مجرد أدوات طبيعية للسيطرة داخل تلك الأوقات وخارجها.

وتذكر بعض الدراسات أن وكالة المخابرات الأمريكية مثلاً يعمل فيها (١٦٥٠٠) موظف وأن حجم ميزانيتها (٧٥٠) مليون دولار في بعض السنوات السابقة بالإضافة للمعونات المنتظمة للشركات الاستعمارية الاحتكارية مثل فورد وموتورز روكفلر.. وأن جزءاً من هذا الهيكل الوظيفي والمالي يخصص للبحوث السيكولوجية والسيكوبيولوجية والاجتماعية في أنحاء العالم، وعلى الأخص الوطن العربي والعالم الثالث، وذلك يتم من خلال تمويل منظمات وجمعيات علمية عالمية مثل الجمعية النفسية الأمريكية وجمعية علوم بيئة الإنسان، ولشخصيات علمية بارزة، ويذكر أحد العلماء البارزين الذين دعمت المخابرات الأمريكية أبحاثهم وهو **سيكو**، أنه قد تم تمويل كتابه (الحرية والشرف) بخمسة ملايين دولار، ويذكر هذا العالم أن تمويل المخابرات الأمريكية للدراسات والبحوث العلمية أساساً لتطوير تكنيكاتها المختلفة التي تمكنها من الاضطلاع بدورها كأداة لتحقيق التوسع الأمريكي[٤].

٣- الميكروبات ليست حقودة:

وكل ما في الأمر أنها تستخدم المصادر المتاحة لها لتتمكن من البقاء، مستغلة إيانا بالطريقة نفسها التي نستغل بها الأرض عن طريق التعدين المنظم غير أننا لسنا معتمدين بصورة مباشرة على المحافظة على منطقة معينة من أجل بقائنا، ولكن العقل البشري عندما يكون مفلساً يكون حاقداً ومدمراً، فالحضارة الغربية مريضة حاقدة ومدمرة للبيئة.

فالميكروبات التي تعيش داخل كل إنسان تزيد على عدد سكان الأرض، والميكروبات التي تعيش في أجسامنا وعلى جلودنا تفوق عدد خلايا أجسامنا بنسبة (٩ إلى ١).

الميكروبات تنساب في عروقنا وتتواجد في عيوننا، وتعيش في جهازنا التنفسي والهضمي، ومن ضمن فوائد أخرى، فهي تساعد في عملية الهضم، وتمكن من إنتاج فيتامين k وعناصر مهمة أخرى، وتعمل على تحفيز التطور في منظومة المناعة- وكل ذلك يتم دون دراية منا بأن هناك مخلوقات حية تعمل على الدوام بداخلنا، ويعتقد بعض علماء الأعصاب أن وجود البكتيريا قد يكون ضرورياً للنمو الطبيعي لدماغ الإنسان.

تحتاج عملية ترويض الميكروبات إلى طرائق جديدة في التفكير، تركز في الأساس على الوصول إلى علاقة متوازنة معها، ويتعارض ذلك مع أغلب الأبحاث الطبية الإحيائية ومع المفاهيم العامة، حيث إنَّ كلاً منهما مستثمر بكثافة في عملية إنتاج رصاصات سحرية أفضل، والحديث عن التوازن قد يكون قديماً وحتى (قبل مرحلة نشوء العلوم الحديثة).

لماذا يسعى الغربيون دائماً وبقوة لقتل الميكروبات؟ تساءَل أحد ممارسي الطب الهندي المعروف باسم آيوروفيدك Ayurvedic الذي تعود منظومته المعرفية في هذا المجال إلى فجر التاريخ المدون، ثم يضيف: (يجب العيش معها بسلام).

إن تطور فيروس نقص المناعة قد تحدى مجهودات أفضل ما لدينا من عقول وما ننفقه من أموال طائلة، وإن فيروسات الإنفلونزا تتطور متقدمة على التطعيمات التي نعيد تصميمها في كل سنة(٥).

٤- أمثلة تاريخية على قيام الحضارة الغربية المريضة باستخدام الأمراض الوبائية والمعدية كسلاح دمار شامل ضد البشر والبيئة والحضارة:

إن الأوروبيين أنفسهم وخاصة معظم الأكاديميين المرضى يؤمنون **بخرافة النقاء** the pristine myth كنوع من **الحروب الثقافية**، فمثلاً يعتقدون كذباً وبهتاناً بأن أمريكا في عام (١٤٩١م) كانت أرضاً لم يعبث بها أحد، أو حتى جنة (**لم يمسسها بشر**)، كما ورد في قانون حماية الطبيعة عام (١٩٦٤م) (Wilderness Act of 1964).

وحمل **الأوروبيون معهم أمراضاً معدية لقذارتهم**، وقد استغرق وباء **التهاب الكبد الفيروسي** حسب دراسة لـ آرثر إي سبيس Arthur E. Spiess وهو **عالم آثار في لجنة ولاية مين للمحافظة على التاريخ** وبروس د سبيس Bruce D. Spiess وهو مدير الأبحاث السريرية في كلية الطب في جامعة فيرجينيا عدة سنوات قبل أن تنتهي فاعليته حيث أودى بحياة (٩٠٪) من السكان الأصليين من الهنود الحمر في سواحل نيو إنجلاند، كان لهذا الأمر أثر كبير على التاريخ الأمريكي، وكما قال **برادفورد** متأملاً: (إن يد الله المحسنة رجَّحت كفة بدايتنا باكتساح أعداد عظيمة من السكان الأصليين... ليتمكن من إيجاد متسع لنا)، حيث كان الأوروبيون مداومين على زيارة نيو إنجلاند منذ أكثر من مئة عام، سافر **بحارة إنجليز وفرنسيون وإيطاليون وإسبانيون وبرتغاليون بانتظام على طول الشريط الساحلي وكانوا يتاجرون بما استطاعوا ويختطفون السكان الأصليين أحياناً ليجعلوهم عبيداً.**

لقد رأى الأوروبيون أن نيو إنجلاند كانت كثيفة السكان ومحمية بشكل جيد. بين عامي (١٦٠٥- ١٦٠٦م)، زار صاموئيل دي تشامبلين (Samuel de Champlian) منطقة كيب كود، آملاً في إنشاء قاعدة فرنسية، ولكنه سرعان ما تخلى عن الفكرة فقد كان أناس كثيرون جداً يعيشون هناك بالفعل.

استنتج الباحثون أن **الهنود في البيرو واجهوا الأوبئة** من اليوم الأول الذي ظهر فيه الفاتحون، وقبل ذلك في الواقع فقد وصل **الجدري** حوالي عام (١٥٢٥م)، أي قبل سبع سنوات من وصول **الإسبان،** لقد جاء المرض إلى **المكسيك** بوساطة مريض واحد من البحارة الإسبان، ثم انتقل جنوباً حاصداً أرواح **أكثر من نصف سكان إمبراطورية الإنكا،** قضى **الجدري** على الدكتاتور الإنكي هيونيا كاباك (Huayna Capac) وكثير من أفراد عائلته، مما أشعل **حرباً مأساوية** على خلافته، كانت الفوضى عارمة لدرجة سمحت لفرانشيسكو بيزارو (Francisco Pizarro) أن يستولي على إمبراطورية بحجم إسبانيا وإيطاليا مجتمعين بقوة لا يزيد تعدادها على (١٦٧) رجلاً.

كان **الجدري** الوباء الأول فقط، ثم جاء **التيفوئيد** (ربما) في (١٥٤٦م)، والإنفلونزا والجدري معاً في (١٥٨٩م)، و**الدفتريا** في (١٦٢٤م)، و**الحصبة** في (١٦١٨م)- كل هذه الأوبئة شاركت في **تدمير بقايا ثقافة الإنكا**- كان دوبنز أول عالم اجتماعي تمكن من تجميع أجزاء هذه الصورة البشعة، وقد أسرع في طبع تحقيقاته، ولم يعر أي شخص انتباهاً تقريباً، ولكن دوبنز كان قد بدأ بالعمل على سؤال ثان متعلق بالأمر نفسه:

إذا كان كل هؤلاء الناس قد توفوا فكم كان عددهم قبل ذلك أصلاً؟

وتوصل دوبنز إلى أن (٩٠ إلى ١٠٠) مليون شخص قد عاشوا في نصف الكرة الغربي قبل مجيء **اللص كولومبوس**، وبكلمات أخرى كان **تعداد السكان في الأمريكيتين يفوق التعداد السكاني في أوروبا عام (١٤٩١م).**

والأوبئة العديدة التي أصابت الأمريكيتين جعلت المعلومات التي استخدمت من الأوروبيين المتخصصين لا تمثل إلا تعدادات حضيضية للسكان.

قَدَّرَ بعض الباحثين الحالات المعدودة التي توفرت فيها مجاميع مؤكدة نسبياً لتعداد السكان قبل وبعد الإصابة بالعدوى أن **حوالي (٩٥٪) من السكان في الأمريكيتين قد توفوا خلال الـ(١٣٠) سنة الأولى من الاتصال؛ مما شكل أسوأ كارثة ديموغرافية في التاريخ المدون.**

فقد قام أحد القراصنة اللصوص والذي يدعى **سوتر** بإقناع التاج الإسباني بأن يطلق يده في شمال أمريكا، **لقد أنفق سوتر ثروة ليصنع ثروة أخرى**، وقدم إلى فلوريدا بـ(٢٠٠) حصان، و(٦٠٠) جندي، و(٣٠٠) خنزير.

يصعب من منظور اليوم، أن نتخيل **المنظومة الأخلاقية** التي قد تبرر أفعال **سوتو**، فقد تجول جيشه، الباحث عن الذهب لمدة أربع سنوات خلال ما يعرف الآن بفلوريدا وجورجيا وكارولاينا الشمالية والجنوبية، وتينيسي، وآلاباما، والمسيسيبي، وأركنسا، وتكساس مدمراً كل شيء لمسه تقريباً. قاوم السكان بشراسة في معظم الأحيان، ولكنهم لم يسبق لهم أن واجهوا جيشاً يملك خيولاً وأسلحة نارية. مات سوتو بالحمى عندما كانت حملته تتهاوى.

خلال تلك الحملة قام رجاله باغتصاب وتعذيب واستعباد وقتل أعداد لا تحصى من الهنود، ولكن أسوأ ما قام به البحارة الإسبان - حسب زعم بعض الباحثين وكان غير مقصود تماماً- كان إحضار الخنازير، ثم إن هذا السؤال أكثر تعقيداً مما قد يبدو، إن كارثة بهذا الحجم تقترح انتشار مرض وبائي، حسب رؤية رامينوفسكي وباتريشيا جالواوي Patricia Galloway وهي عالمة أجناس في جامعة تكساس، لم يكن جيش سوتو هو مصدر العدوى، بل كان المصدر على الأغلب هو الثلاثمئة خنزير(٦).

٥- **فكرة الحضارة الغربية القائمة على الإبادة والتوحش والعنصرية حتى على مستوى علمائها**، حيث يقول الدكتور محمد عبد السلام، العالم الباكستاني والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء النووية عام (١٩٧٩م) ما يأتي: ما زالت ترن في أذني كلمات عالم فيزيائي أوربي من الحائزين على جائزة نوبل قالها لي منذ أعوام: (**هل تعتقد حقاً يا محمد عبد السلام أنه يجب علينا أن ننجد ونعين وأن نبقي على قيد الحياة تلك الأمم التي لم تضف حرفاً واحداً إلى مخزن المعرفة البشرية؟**).

ويقصد بذلك حتماً الدول النامية، وإنه لأمر يدعو للضحك حتى البكاء أن نرى وزير خارجية بريطانيا، في ذلك الوقت، يتهم العراق بتجهيز فيروس أنتراكس، ويتغاضى عما تنتجه إسرائيل وأمريكا من أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية، تستطيع تدمير العالم كله بدقائق معدودات(٧)، وبآليات الدفاع النفسية يمكن تفسير هذا الاتهام الكاذب للآخرين، بأنَّ الغرب نفسه يقوم بتجهيز وصناعة الفيروسات الممرضة كأبشع.. وأوحش سلاح من أسلحة الدمار الشامل الأوروبية- الأمريكية.

- أدلة مباشرة:

١- يعتقد بعض العلماء والأطباء بأن **فيروس نقص المناعة المكتسب** (HIV) المسبب لمرض متلازمة عوز المناعة المكتسب (**الإيدز** AIDS) هو فيروس معدل وراثياً أُنتج في

أحــد المخابر البيولوجية الوراثية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يبلغ عدد الجامعات والمعاهــد التــي تقــوم ببحوث هندســة الوراثة فيها وحدهــا فقط أكثر مــن (٨٦) جامعة ومعهداً[٨].

بالإضــافة إلى وجود حوالي (١٣٠٠) شــركة متخصصــة في بحوث التقانة الحيوية وتم تجريب هذا الفيروس المعدل وراثياً على الشاذين جنسياً والمدمنين على المخدرات[٩].

مما أدى بعد فترة حضــانة اســتمرت بضع سنوات إلى إصابتهم بمرض الإيدز ولم يتمكن العلماء من الســيطرة على انتشــار وعدوى هذا الفيروس وما زال مرض الإيدز في تصــاعد وانتشار عالمي **بدأ من أمريكا وانتقل إلى كل أنحاء الأرض**[١٠].

٢- السلاح الوراثي المستقبلي:

في المســتقبل القريب تســتطيع الدول المتقدمة تكنولوجياً وبكل ســهولة توجيه العلوم الوراثية والبيولوجية نحو الشــر والتخريب والتدمير (الســلاح الجيني تطوره إسرائيل حالياً بمســاعدة أمريكا والدول الأوروبية) حيث توزع المورثات المريضــة والشاذة بعد وضعها في الغذاء، الفواكه الدواء، الماء.. أو قد تأتي على شكل مساعدات غذائية توزع على شعوب العالم الثالث وهي محتوية على صبغيات شاذة تستطيع أن تندمج بالجهاز الوراثي للسكان في الدول المتخلفة تكنولوجياً أو قد تُعطى المورثات المريضــة والشاذة للحوامل بدعوى أنها لقاحات تحافظ على النســاء والجنين من الأمراض المعدية... وبالتالي يتم إنتاج جيل متخلف عقلياً أو مصابٍ بأمراض نفسية وعصبية أو بعاهات جسدية أو مصابٍ بنقص الخصوبة وبالعقم... أو حتــى إنتــاج جيل من البشــر يمتلك كل فرد فيه ذيلاً؛ أي إنتاج جيل وشــعب مهمش يعمل كخادم مطيع وذليل وليس ذلك بالأمر المستبعد لأن القرن العشرين كان أكثر القرون في تاريخ البشرية كلها وحشية ودماراً ودموية، ففي الحرب العالمية الثانية كان هناك (٧٠) مليون قتيلاً ما عدا الجرحى والمشوهين والمفقودين واستعملت أمريكا السلاح النووي للتدمير والتخريب حيث أســقطت عــام (١٩٤٥م) قنبلتين نوويتين قائمتين على اليورانيــوم U٢٣٥ الأولى على هيروشــيما (٦ آب) والثانية على ناكازاكي (٩ آب) وانتشــر الاستعمار العسكري والاقتصادي وأخيراً عولمة الفقر والنهب والأزمات عبر الشركات متعددة الجنسيات.

وهذه الظواهر الســلبية كانت من إنتاج العقل الغربي الأوروبي الأمريكي الذي مضــمونه وجوهــره يقوم على المنفعة والإبادة للشــعوب الأخرى؛ حيث صــرح أحد قادته في فرنســا

(**اعطفوا على الفقراء بالقضاء عليهم**)، حيث أصبح الغرب يقوم على الحرب والنهب والمؤامرة بينما صارت المجزرة والإبادة جوهر الفكر الصهيوني[١١]. حتى وصل الأمر في نهاية القرن العشرين إلى أن أصبح نصف سكان العالم يعيش بلا طعام ولا مسكن ولا ماء صالح للشرب (٣ مليارات من أصل ٦ مليارات عدد سكان العالم عام ١٩٩٩م)[١٢].

وبالتالي تقتضي المصلحة العالمية والكونية والإنسانية أن يتنازل العقل الغربي- الأمريكي طوعاً وكرهاً عن قيادة البشرية إلى العقل الشرقي - الآسيوي أو الصيني مثلاً... وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة للقرن العشرين فقد حدثت فيه إنجازات مهمة علمية وطبية وفضائية وتكنولوجية كانت بفضل العقل الجمعي التراكمي العالمي لمختلف الحضارات على الأرض[١٣].

- **الاستنتاج:**

اعتماداً على الأدلة المباشرة وغير المباشرة نستطيع أن نستنتج بكل سهولة شدة الخلل البنيوي في العقل الأوروبي- الأمريكي وعمق تهافت حضارته إلى درجة الغباء والتوحش:

- فعندما انتشر مرض جنون البقر في بريطانيا انبرى أحد الباحثين البريطانيين موضحاً السبب، ويدل تحليله على مدى غبائه حيث يقول: (بأن العامل الممرض المسبب لجنون البقر قد نزل من الفضاء بواسطة نيزك واستقر في حشائش ومزروعات بريطانيا).

ولشدة هذا الغباء في التحليل رد عليه باحثٌ بريطاني آخر بقوله: (إن جنون البقر قد انتشر في الأبقار التي تأكل من الحظائر ولا تقتات من الحشائش).

ويدل هذا التحليل على الهروب المقصود من السبب العلمي المؤدي إلى جنون البقر وهو صنع غذاء البقر من بقايا الحيوانات والأسماك المريضة والميتة والملوثة في البيئة الغربية.

- من **السلوك المَرَضي للحضارة الغربية الذي يُظهر عمق التناقض والإفلاس**، ففي الوقت الذي أبادت ملايين من البشر ولوثت البيئة والطبيعة وسببت في انقراض الملايين من الكائنات الحية... وأقامت وافتعلت عشرات الحروب المحلية والدولية، وخربت مئات المدن، واستعمرت عشرات البلدان النامية... فإنها تتشدق إعلامياً مضخمةً خطورة إنفلونزا الطيور مع العلم بأنها لم تسبب إلا وفاة حوالي (٢٧١) شخصاً في العالم كله معظمهم في أندونيسيا والصين... بهدف تخريب الهيكل الاقتصادي الغذائي للشعوب الفقيرة...

وقد وصلت السخافة الإعلامية الغربية إلى درجة أن الصحف الفرنسية مثلاً تعنون مقالاتها: إنه لخوف كبير.. فرنسا في حالة استنفار.. الهلع والخوف الفرنسي.. **ولكن ما السبب؟!**

لأنهم وجدوا بطة برية ميتة فظنوا أنها مصـــابة بإنفلونزا الطيور مع أنها ربما ماتت لأن عمرها انتهى... ولكن عندما قتل الفرنســـيون أكثر من مليون ونصـــف شهيد عربي جزائري خلال فترة الاســـتخراب الفرنســـي للجزائر فإنهم لم يعتذروا حتى كلامياً بل إنهم أصـــدروا قانوناً يمجِّد هذه المجازر والإبادات بحق البشرية، مما يدل على إفلاسهم وتهافتهم.

الهوامش

١- فخ العولمة، عالم المعرفة الكويتية، (ع٢٩٥)، جمادى الآخرة (١٤٢٤هـ)، أغسطس (٢٠٠٣م)، تأليف: هانس- بيتر مارتين، هارالدشومان، ترجمة: د.عدنان عباس علي، مراجعة: أ.د.رمزي زكي، (ص١١-١٢، ٧٤-٧٦).

٢- كيف نصـــنع المستقبل، روجيه غارودي، ترجمة: صيّاح الجهيّم، دار عطية للنشر، لبنان، (ط١)، (١٩٩٨م)، (ص٤١- ٤٣).

٣- الحضـــارة الغربية (عرض ونقد وبديل)، المؤلف، بحث، هندســـة الذل وترويض الجمهور، هندسة صناعة العقول والتحكم في السلوك، إصدار ملوحي للبحوث الطبية والعلمية، (قيد الطبع).

٤- الإســـلام والغرب، كتاب العربي (٤٩)، الكويت، (١٥) يوليو (٢٠٠٢م)، احتلال العقل، د.رفعت سيد أحمد، (ص٣٩- ٤٦).

٥- مجلة الثقافة العالمية، الكويت، ع(١١٩)، الســـنة (٢٢)، يوليو- أغســـطس (٢٠٠٣م)، معايشة الميكروبات، بقلم: جويل سوردلو وآري جونسون، ترجمة: فرج الترهوني، (ص ٣٠- ٤٠- ٤١- ٣٦).

٦- الثقافة العالمية، الكويت، ع (١١٩)، الســـنة (٢٢)، يوليو - أغســـطس (٢٠٠٣م)، بقلم: تشـــارلز سي. مان، ترجمة: شادي عمران بطاح، (ص ١٥٨- ١٨٧).

٧- المرأة عبر التاريخ، د. عبد اللطيف ياسين قصاب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، (٢٠٠٢م)، (ص ١٧٩).

٨- التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، د.عبد المحسن صالح، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد (٤٨)- صفر/ ربيع الأول (١٤٠٢هـ)- كانون الأول (١٩٨١م)، صفحة (٢١٠).

٩- مجلة العلوم، ترجمة مؤســـسة الكويت للتقدم العلمي، المجلـــد (١١)- العدد (١٢)،كانون الأول (١٩٩٥م)، مقال بيولوجيا في أعلى مستوى، صفحة (٤١).

١٠- مرض الإيدز AIDS محاضرة للمؤلف في ندوة التوعية حول مرض الإيدز بمناسبة اليوم العالمي لمكافحة الإيدز برعاية اتحاد شبيبة الثورة في مدينة سلمية تاريخ (١٩٩٧/١٢/٥م).

- فيروس الإيدز هو من إنتاج المخابر الأمريكية ضمن مشروع الأسلحة البكتروبيولوجية لنشر الأمراض والأوبئة بين شعوب العالم، والعدو الصهيوني يتبع الأسلوب نفسه في إقامة مصانع ومخابر لإنتاج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية للتوسع، يراجع:

- كوكب العاصفة، دراسة في مستقبل الإنسان وسط فوضى استخدام العلم، د.طالب عمران، الطبعة الأولى (١٩٩٣م)، نشر دار معد، الفصل الخامس: شبح التلوث ينذر بالخطر في كوكب الأرض، صفحة (٧٥-٩٤).

- الهندسة الوراثية والأخلاق، عالم المعرفة الكويتية، تأليف: ناهدة البقصمي، العدد (١٧٤)، ذو الحجة (١٤١٣هـ) حزيران (١٩٩٣م)، صفحة (٩٩) (مرض الإيدز إنتاج أمريكي).

١١- للتوسع في الإستراتيجية الغربية الأوربية -الأمريكية ذات المضمون اليهودي - التوراتي، والتي تسعى إلى بناء قوتها بواسطة تدمير حضارات شعوب الأرض، يراجع كتاب: مشكلات التقدم /التخلف الاجتماعي المعاصر، المجلد الأول، العقلية الغربية التقليدية وسيكيولوجية التدمير الذاتي للحضارة الإنسانية، إسماعيل حسن سيفو الطبعة الأولى (١٩٩٩م)، الناشر دار الجندي.

١٢- مجلة العربي الكويتية، العدد (٤٩٣)، كانون الأول (١٩٩٩م)، شعبان (١٤٢٠ه)، صفحة (١٧).

١٣- من أهم إنجازات القرن العشرين اختراع واكتشاف أصغر كاميرا في العالم تعمل بأشعة الليزر السريعة صممها العالم العربي المصري د.أحمد زويل حيث استطاع تصوير ورؤية حركة الذرات داخل الجزيئات في أثناء التفاعلات الكيميائية خلال أجزاء زمنية ضئيلة جداً من الثانية تعادل مليون من البليون من الثانية، وقد أحدث هذا الاكتشاف ثورة علمية لأنها تؤدي إلى تطور هائل وغير مسبوق في مجال اكتشاف الكون، وقد نال الدكتور أحمد زويل جائزة نوبل في العلوم/ الكيمياء عام (١٩٩٩م) على هذا السبق العلمي الكبير، مجلة العربي الكويتية، العدد (٤٩٣)، شعبان (١٤٢٠هـ)-كانون الأول (١٩٩٩م)، صفحة (١٤٩).

أسئلة الفلسفة والترويض الثقافي

(السوسيولوجيا والعقل)

د. محمد ياسين صبيح

إنَّ السمو الحضاري هدف يتطلب الوصول إليه، جهداً كبيراً يحققه المجتمع ممثلاً بهيئاته المتشابكة (الرسمية والمدنية)، وأي خرق لهذا التشابك سيخلق شرخاً فكرياً قد يسبب ابتعاد طرف مجتمعي عن آخر، وقد يؤدي ذلك إلى خلق تصادمات حركية، قد تبدأ فكرياً لتنتهي عنفياً، عندما لا تجد ما تفرغه من بيئات تمتص هذه الأفكار بكل حيوية وديناميكية. فالفلسفة هي عمق الزجاجة التي يمكن أن تشكّل نبعاً معرفياً متعدد البنيات، وهكذا تكون التربية الحاضن لهذا الابداع المعرفي إن تم استخدامها دون التوجه الفكري القسري، كمصالح أيديولوجية ضيقة (دينية وسياسية)، تقوم على إلغاء دور العقل لصالح الهيمنة المعرفية الجاهزة.

فما يعطي مشروعية التفاعل والحراك المجتمعي المرتكز على أساسيات الفلسفة، هو الخطاب المعرفي (السياسي والثقافي والديني) وإنتاج هذا الخطاب الذي يترجم الصراعات وأنظمة السيطرة، وهو السلطة التي يُسيطر عليها من أجل ممارسة العنف الرمزي المجتمعي من خلالها، كما عبر عن ذلك بيير بورديو، والخطاب حسب فوكو يمارس سلطة معنوية عليا على الإنسان تهيمن على مكوناته المعرفية، وإنَّ طريقة ممارسته وفبركته، تؤدي إلى خلق صراعات مجتمعية متعددة، فوجود الثقافة الفلسفية ونهوض تياراتها المجتمعية قد تخلق خطاباً مجتمعياً فاعلاً ومفيداً، غير انغلاقي وغير إلغائي، يؤدي إلى سلسلة من التحولات السوسيولوجية والتربوية الفاعلة، فالتأثير السوسيولوجي يعدّ فاعلاً في إعادة فرض بنيات

ثقافية وفكرية على الفرد منذ الطفولة وعبر المدرسة وباقي وسائل التأثير المختلفة، **من هنا نرى بأن العلاقة بين السوسيولوجي والفلسفي والمجتمع، يخضع لاعتبارات عمقية متعددة:**

العمق الفلسفي

من المهم جداً تعميق المفاهيم الفلسفية، كحالة ثقافية منفتحة على الفكر تعمل على تحليل وتفكيك الظواهر الطبيعية والمجتمعية وإعادة تركيبها، لخلق حالة منطقية تطورية، فالفلسفة حسب التعريفات المتعارف عليها هي (حب الحكمة)، فحالة الحب هي فعل وحركة نحو إرضاء الموضوع المرغوب فيه، ولذلك نحب الحكمة لأنها تغني وجودنا من الناحية الذهنية، وهكذا يمكن التعبير عن العقل الفلسفي معرفياً بمفهومين:

- الكشف عن المضامين التي تخبئها الطبيعة.
- تنظيم المعرفة في مجال المنطق.

ثم يمكن أن نعدّ أن الفلسفة رغبة في المعرفة في إطارها الكوني من خلال:

- إرجاع المعرفة إلى ما هو كوني.
- التحقق من المعرفة عن طريق المعايير الكونية.

لذلك فالفلسفة معرفة، ومنهجها تحليل الوقائع الخاصة، ويمكننا عدّ الفلسفة الاجتماعية تطبيقاً على المجتمع من خلال فهم طبيعة وموضوع وغاية العلاقات الاجتماعية والإنسانية، من خلال كونيتها، وهنا يكون للعقل الدور الأساسي والفاعل في كل هذه التعالقات والعلاقات، إذاً الفلسفة هي فعل منطقي تحليلي وعقلي، قد يؤدي إلى نتائج تغييرية وديناميكية فاعلة، على عكس السوسيولوجيا التي تقوم على التجريب ودراسة تأثير العلاقات الإنسانية على سلوك الفرد، وتعمل على استلاب ذاتيته من خلال الهيمنة السوسيولوجية والتربوية عليه، وذلك بتوجيهه أيديولوجياً. لذلك نرى أن تنمية إدراكات الفرد المجتمعية، أساسي ومهم من خلال صقل مهارات الفرد الفكرية والثقافية بحيادية فلسفية تجعله يفكر علمياً ومنطقياً دون إملاءات فكرية قسرية أحادية الاتجاه.

فالعقلانية النقدية هي الأساس في المحاكاة العقلية، حيث يرى فوكو أن كانط وضع أساس الشروط الممكنة لإقامة معرفة حقيقية، وهي تتعلق بقدرة العقل على التفكير للوصول إلى الحقيقة، وهذا سؤال معرفي عقلي، يطرح بشكل نقدي، ويتم من خلاله نقد العقل نفسه

لمعرفة قدرته على الوصول إلى الحقيقة ونقدها. وهذا ما نحتاجه في المجتمعات العربية، من خلال التخلي عن أحادية التأثير السوسيولوجي التربوي، وإطلاق المجال للنشاط الفكري في الاشتغال على القيم النقدية وطرح أسئلة مهمة مثل: (ما هي الحالة الراهنة؟ وكيف يمكن تخطي النكسات الفكرية؟)، وذلك بكل حيادية وتجرد في أسبقيات فكرية جامدة، وهذا سيتيح للفرد وعقله التفريق بين الأوهام والاصطفاف الفكري المسبق، وبين المعرفة والحقيقة والابتكار الفكري، الذي سيؤدي بدوره إلى تطور حضاري لاحق.

فحيوية الفلسفة في النهاية هي مقدرتها على التجدد وعلى تعدد التأويلات التي تتناسب مع اللحظات الزمنية المتعاقبة، وكما وردت تاريخياً عبر تفسيرات أرسطو-أفلاطون- ماركس- نيتشه وغيرهم. وكما قال أيضاً فوكو هي: (إلمام بتفسيرات مفتوحة، تسبق النسق والسياق الواقعي وتتحاور مع التاريخ)، إذاً فإن الخروج عن النسق النمطي المركب سوسيولوجياً في ذهن الفرد المجتمعي، هي عملية إطلاق ملكاته الإبداعية وتفسيراته المتنوعة من خلال البدء بالمعالجة السوسيولوجية منذ الطفولة والخارجة عن نظام التقوقع الأيديولوجي والفكري المسبق، بل محاكاة وتعلم النقد البناء.

العمق السوسيولوجي

تبنى العديد من المفكرين نظرية السوسيولوجيا في دراسة المجتمع، كبوتقة للصراع والمنافسة والتفاعل بين أفراده، من خلال تحليل تراتبية العديد من الطبقات الاجتماعية والسياسية، وتبيان أدوارها وكيفية القيام بتنفيذ هذه الأدوار، والتي قد تقوم على السيطرة والتميز، ومدى تأثير ذلك على الحالة المجتمعية، من خلال خلق اللامساواة المجتمعية، ومن أهم من ركّز على السوسيولوجيا العلمية الانتقادية (بيير بورديو)، فحسب رأيه تعدّ المدرسة فضاء مهماً لإعادة إنتاج اللامساواة الناتجة عن وجود طبقة مسيطرة تقوم بممارسة العنف الرمزي. الذي يتجلى في فرض شروط ومفاهيم ثقافية وأيديولوجية (سياسية ودينية) معينة.

فالمجتمعات الأيديولوجية والدينية تفرض سيطرتها العقائدية كنوع من العنف الرمزي، الذي ينسحب على سلوك المدرسة والأطفال منذ المراحل الأولى لهم. ويكون الفاعلون المجتمعيون مجرد أدوات منفذة لآلية السيطرة هذه بطريقة غير واعية، تُنشئ سلسلة من إعادة إنتاج هذه المفاهيم والآليات مجتمعياً، وهذا ما يسمى بالهابيتوس، والذي يأتي من مفهوم أرسطو (الهيكيس)، فالهابيتوس هو مجموع الإستراتيجيات التي يطورها مجموعة من

الفاعلين المجتمعيين، والتي يتمثلونها عن طريق التنشئة الاجتماعية، والتي تؤثر المدرسة فيها تأثيراً مركزياً. وذلك بطريقة غير واعية، بهدف التكيف مع ضرورات العالم الخارجي، وضرورات سيادة الطبقة المسيطرة أولاً، فالهابيتوس هو تطبيع ومصالحة مع الواقع المخلّق، واكتسابه منهجية معينة من خلال تنشئة اجتماعية منظمة، ومن ثم استغلال هذه التنشئة حسب مقصد الطبقة المسيطرة، وهذا كله يمثل عنفاً رمزياً، يهدف إلى زرع مفاهيم وقيم وأفكار بشكل لا واعٍ، في ذهن الأفراد وذلك بدءاً من مراحل التعليم الأولى، لذلك فالهابيتوس هو وسيط بين الفعل المتمثل بمجموع الإستراتيجيات المفروضة على المجتمع، وبين المجتمع نفسه، ليتم تأقلمه مع هذه الإستراتيجيات، إذاً هو الأفعال غير الواعية، التي يصدرها الأفراد من خلال تأقلمهم مع ظروف المجتمع، ويتوافق مع ذلك جان بياجيه، في تبنيه للبنيوية التكوينية على المستوى السوسيولوجي، أي أنه يوفّق بين العقل والبنية (من خلال التوفيق بين العقل المجتمعي وبنية المجتمع)، وهكذا يمكننا عدّ الإنسان نتيجة بنيات وقواعد حتمية.

فإعادة إنتاج المجتمع، عبارة عن بنية سوسيولوجية تبدأ من الثقافة التي يتلقاها المتعلم في المدرسة، والتي تؤدي دوراً مهماً في بلورة انتظامه المجتمعي والثقافي، وبالتالي فإن أدلجة النظام التعليمي، يعدّ اعماءً ثقافياً اجتماعياً، وهابيتوس تصالحياً، يلغي دور العقل التفاعلي المجتهد والمبني على التفاعلات الإنتاجية الفكرية، حيث يصبح عقلاً منمّطاً تابعاً للهابيتوس التصالحي، وقد يعني أن هذا النظام التعليمي التربوي المؤدلج (سياسياً ودينياً) يكون لصالح الطبقات المسيطرة، ويؤدي إلى خلق نوع من الاستعداد لدى الأفراد، لتلقي المفاهيم الجاهزة المفروضة، عن طريق العمل التربوي والسوسيولوجي، والذي يسعى بالأساس إلى الترويض الثقافي، من أجل فرض ثقافة القوى المهيمنة، وهذا ما ندعوه العنف الرمزي المتمثل بكل الوسائل والطرق المتاحة للهيمنة الأيديولوجية من خلال استخدام الوسائل التربوية والإعلامية والإعلانية والفنية والثقافية، ولجعل الأفراد المجتمعيين متصالحين مع الشروط المفروضة تربوياً وثقافياً، كما أن الدولة يمكن أن تمارس العنف الرمزي لمصالح الطبقات المسيطرة على أجهزتها وبكل الوسائل المتاحة (إعلامياً وإعلانياً وفنياً وسياسياً وثقافياً)، ويعدّ هذا العنف أكثر خطورة من العنف الجسدي، فهو قد يولد متطرفين من جميع الأطراف (دينيين وأيديولوجيين)، لذلك لا يمكن للفلسفة في ظل وجود هيمنة أيديولوجية أن تفعل شيئاً، فالعقل المسير باللاوعي لا يستجيب للتفاعلات الفلسفية التحليلية، لأنها أيضاً ستعاني من الأدلجة المفاهيمية المسبقة، وستعمل على زيادة التصالح في اللاوعي لدى

المجتمع لصالح الطبقات المسيطرة، وهنا نجد أن العنف الرمزي يمارس بموافقة الفاعلين المجتمعيين، وذلك لكثير من الأسباب، وبالتالي يصبح اللاوعي هو المسيطر والمسير لمجموع الفاعلين، حيث يسهم هؤلاء الفاعلون في إنتاج المفعول الذي يمارس عليهم، كمفهوم هيمنة ينشأ من هذه التفاعلات والتوازنات بين المحددات الحتمية وكيفية إدراكها.

إن تحليل كيفية تقبلنا التلقائي للآراء والمعتقدات المتداولة في عالمنا الاجتماعي، هو الأساس الحقيقي الواقعي الذي يمارس كتوافق من أفعال الإقناع الصامت أو التربوي المؤدلج، فالتلاعب بعقول الأفراد يبدأ منذ الطفولة، وبالطبع المدرسة هي الأساس في ذلك. وهنا تعتمد الطبقات المسيطرة على قدرة الهابيتوس على الترويض المجتمعي، وبالتالي على تنميط البنى المعرفية والإدراكية للفاعلين المجتمعيين، وخلق استعدادات مجتمعية لديهم تقولب أنماط التفكير والإدراك والتقدير، حسب التأثير السوسيولوجي الذي اكتسبوه في التنشئة التربوية والمجتمعية، ويمكننا إسقاط هذه التأثيرات سياسياً، كما يمكننا أن نطلق على هذه الإستراتيجيات والمؤثرات والتبعات خطاباً مجتمعياً حسب فوكو.

العمق العقلي

إذا كانت من أهداف الأيديولوجيا، إعادة بناء الوعي الثقافي والنقدي والسياسي، وفق نسق عقلاني مجهز مسبقاً، يلغي أي قراءة نقدية مختلفة للسائد، لمنع إعادة تشكيل خطاب ثقافي وسياسي مغاير للنمط السائد، فالنمط السياسي المنغلق على نفسه، لا ينتج إلا نمطيات مشابهة وتابعة، وهذه النمطية التي تم إعادة تشكيلها من خلال سوسيولوجيا تربوية محددة، بدأ منذ المراحل التعليمية الأولى للأفراد، وهنا كان الهابيتوس عاملاً تطبيعياً تصالحياً.

وطالما بقي العقل متقوقعاً ضمن قراءة أيديولوجية جامدة غير تفاعلية وغير اختلافية، فهو تعطيل لقدراته الإبداعية وانحدار إلى مستويات متدنية من القيمة الإبداعية والنقدية، وهذا ما يتنافى مع جوهر الإنسان التفاعلي الاختلافي والتطوري، فالحداثات والنظريات الفكرية الفلسفية لم تأت إلا لأن العقل كان فاعلاً غير راضٍ وتفكيكياً واختلافياً، وهكذا يمكن أن نفهم أن تقاطع الأيديولوجيات الدينية والسياسية، يجهز على الحركة الإبداعية والمعرفية، ويصبح ما ينتج مجرَّد تكرار وفبركة لمفاهيم ثابتة أحادية الاتجاه، وغير خاضعة لتأويلات مختلفة. وهذا ينطبق على مفهومات التراث وطريقة تأويلاته وتفسيراته ونقده، فالخضوع للتابو الأيديولوجي يلغي أية وجهة نقدية تدفع بالحاضر إلى المستقبل.

السوسيولوجيا الفلسفية

كل هذه الانعكاسات الثقافية السوسيولوجية البنَّاءة وإعادة إنتاج الفرد المجتمعي، تجعل هذا الفرد يخضع لتأثيرات الفلسفة لاحقاً، إلا فيما يوافق الأيديولوجية التي كرسها الهابيتوس التطبيعي في اللاوعي التفكيري لدى الأفراد، فالفكر السوسيولوجي المعاصر يتميز بالبحث الفعال عن نقاط اتصال مع التصورات الفلسفية وخاصة بعد ظهور العديد من الأزمات، فالسوسيولوجيا غالباً ما تكون مرتبطة بفهم الأسباب والأسس، وتكون مسترشدة بمبادئ (الحس العام)، وهذه تعدُّ نماذج ستاتيكية ثابتة، وإنَّ محتوى العوامل الفكرية للسوسيولوجيا المعاصرة تتألف من عدة قضايا، ومنها (الإحساس المشترك) أو (الحس العام) في عمل القرارات أو التفكير العام، والتي هدفها إزالة أي اختلافات بين المشاكل، ولكن في أغلب الأحيان فإن الحس العام ينتج صورة مشوهة وبسيطة للظاهرة الاجتماعية، وهي عادة لا ترى السبب الكامن وراء السلوك، لذلك يمكن أن نجد في الفلسفة الحل المطلوب، كما أكد هيجل على أن الفكر النظري والفلسفي يصل إلى ما وراء الحس العام. وهذا إن لم نستغل هذه العوامل السوسيولوجية (الحس العام) والفلسفية لخدمة قاصرة الفهم، من الطبقات المسيطرة، بحيث تبقى كل هذه الأساليب عديمة النفع، لأنها تُغرق بالانحياز إلى أيديولوجيا واحدة، وهذه تغرق تفكير الأفراد المجتمعيين. وهذه كلها عوامل خاضعة أيديولوجياً للقوى المسيطرة مجتمعياً، وبالتالي فإن السوسيولوجيا وعلم الاجتماع، في تضاد مع الطموحات الفلسفية، لأنه مقولب في رؤية ثابتة ويرفض التنبؤات الفكرية المغايرة، نظراً لارتباطه الأيديولوجي غالباً. وبما أن (الحس العام) أو (المعرفة العامة) في مستوى الوعي الفردي اليومي، لا تساعد في حل المشكلة وهذا ليس فلسفة بل طريقة للوصول إلى الهابيتوس التصالحي.

فالتفسير السوسيولوجي للتطور يُرجِع نشأة هذه التطور إلى الدور الفاعل للمجتمعات كنظام تفاعلي اقتصادي سياسي واجتماعي، يعتمد على اقتصاد السوق في تسيير المجتمع وفق مفاهيم ليبرالية، وهذه أدت إلى تقليل التصورات التقليدية التي سادت في القرون الوسطى وما بعدها إلى تصورات ساهمت الفلسفة في رسم تصوراتها، كما ساهمت السوسيولوجيا في بناء إستراتيجيات فكرية بعيدة عن التموضع الديني والأيديولوجي، وبالتالي خلقت هابيتوس تفاعلياً لا تصالحياً، جعل المجتمع في حالة نشطة وفي حراك فكري وثقافي، والأهم حراك اقتصادي وسياسي، أسهم في خلق توازنات سياسية لفترات طويلة، لكنها لم تستطع خلق توازنات اقتصادية، وهذا أدى إلى ظهور أزمات اقتصادية شهيرة كما في العشرينيات من

القرن العشرين، وفي بداية القرن الواحد والعشرين، إذاً لم تستطع هذه المجتمعات خلق التوازنات المطلوبة بشكل متكامل، نتيجة لقصور الجانب السوسيولوجي المعتمد على التربية الفردية الواعية والداعية للنفع العام، والجنوح إلى التموضع الذاتي والفردي الأناني بصيغته الفرويدية، ولم تنجح في خلق الهابيتوس التعاوني والتشابكي بمعناه التكاملي بين الجهات المسيطِرة والجهات المسيطَر عليها، من هنا نجد أن المجتمعات العربية لم تصل إلى مثل هذه الحالات، بل هي في أسوأ حالاتها الفكرية والتطورية، نتيجة هيمنة العامل الديني والأيديولوجي، دون أن تستطيع عقلنة الأداء الفكري والثقافي، وخلق منظومة سوسيولوجية قادرة على جعل الفلسفة العقلانية تأخذ مكانها النقدي والتحليلي، ولم تستطع الاجتهادات الفلسفية العربية على قلتها التأثير فعلياً في الواقع الفكري العربي.

خاتمة:

إنَّ كل هذه الوسائل المهيمنة على الفرد المجتمعي، هدفها الترويج الثقافي المؤدلج لجعله فرداً لا واعياً لإدراكه العقلي التفاعلي والتغييري، ومنخرطاً في الهابيتوس التطبيعي كعنصر متأثر ومنتج للقيم نفسها التي هيمنت على إدراكه دون أن يستطيع التحقق من مقدرته الفلسفية التحليلية الفعلية، نتيجة تهميش هذا الدور عنده، الناتج عن الممارسات السوسيولوجية التي بدأت منذ بدء تكوين أساسيات التفكير والانحياز الثقافي والفكري عنده، وحتى ننتج فرداً فاعلاً حراً متفاعلاً، يجب أن نزيل عن كاهله الفرض السوسيولوجي الأيديولوجي، منذ بدء تعلمه في المدرسة، وهذا يتطلب انخراطاً مجتمعياً آخر في الحياة السياسية والعملية، وإلا فإن هذا العنف الرمزي الممارس على الفرد، سوف يخلق حالة تأزمية لاحقة، قد تكبر لتصبح عنفية أكثر (متطرفة دينية أو أيديولوجية)، وتخلق حالات تصادم عنيفة، من هنا وجب علينا الانتباه إلى عدم التصدي للعنف بعنفٍ آخر، بل بإعطاء العقل دوره التحليلي، بالمفهوم الديكارتي، التفكيكي والنقدي، والقادر على الهدم وإعادة البناء بطريقة نيتشوية قادرة على خلق التوازن المجتمعي المنشود.

علم الاجتماع العربي...

هل أخفق في قراءة وتحليل أمراض المجتمعات العربية؟

ديب علي حسن

بعد أن اتضحت معالم ما سُمي ربيعاً عربياً، ومنذ انطلاق شرارته، والآن على بعد سبع سنوات من الحرب المجنونة التي كانت بأدوات محلية وعربية، ومشاركة من تحالف إرهابي عالمي وتمويل ودعم غربي، ومن مشيخات النفط، لا بد ونحن على مفترق النهايات، من طرح السؤال الآتي: لماذا لم تكن القراءات الاجتماعية قادرة على رصد وتحليل ما يُعدُّ في البنية الاجتماعية والعمل على خلخلتها والدفع بها إلى التفجر والفتك بالمجتمع العربي وزيادة الصدع فيه؟ هل هي مسؤولية علماء الاجتماع العرب الذين على ما يبدو أنهم كانوا خارج المجتمع العربي؟ ولم تنفع حلقات النقاش والدراسة، ولا عشرات مراكز الدراسات المنتشرة في عواصم عربية في رصد وقراءة ما يُعَدّ ولو من خلال مؤشرات ما، مؤشرات على ما يبدو أنها كانت واضحة وجلية، والدليل على ذلك سرعة الانفجارات التي حدثت وتوالت وتأكد أنها مخططة ومُبدرَة ومشغول عليها بدقة، وبُذلت أموال طائلة من أجل الوصول إلى اللحظة هذه، وبالتأكيد مثل هذه الخطط المعدة التي تنفذ لم تلد بين ليلة وضحاها، بل ثمة من عمل على أرض الواقع لتسهيلها وتنفيذها، من خلال مسارب ومعطيات كثيرة لسنا الآن بصدد الحديث عنها.

ولكن سيل الأسئلة لا بد أن يُطرح من أجل تحديد ومعرفة وجوه التقصير، وإذا ما كنا نتحدث عن تقصير علماء الاجتماع العرب في قراءة المتغيرات التي كانت تُحضَّر، فهذا لايعني أن المسؤولية في عدم الاستشراف ورؤية خطوط القادة تقع على عاتقهم وحدهم،

فالواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي كلها عوامل مسؤولة، ولكن سؤالنا الملح: **لماذا أخفق علم الاجتماع العربي في الإشارة الى هذه المتغيرات، هل قدم دراسات حقيقية في إطار قراءة وتحليل المجتمع العربي؟**

وماذا عن دوره الآن؟ هي أسـئلة نطرحها ونضعها على طاولة التشريح، ويشط بنا السؤال إلـى ما هو أبعد من ذلك: **كيف للغرب من خـلال علماء اجتماعه أن يكون قادراً على القراءة الصحيحة لحال مجتمعنا، ويستغل ذلك للعمل على تدمير بنيته والفتك به؟**

هـل تختلـف الأدوات والمعاييـر، وهـل كانت دراسـاتنا لأحـوال المجتمع العربـي خُلَّبية وتزيينيـة جاءت إرضـاء للذات ولـم تقدم النتائج الحقيقية التي خلصت إليها بغض النظر عن قسوتها؟

ربمـا يكون ذلك، ولهـذا التزييف إن وُجد أسـباب كثيرة، منها محاولة إرضـاء الجهات السياسية وتقديم صورة عامة وردية ترضي الغرور، وتدلل على أن الأمن الاجتماعي متحقق، ولا شيء يعكر صفو الحياة، والمظاهر التي نراها ليست إلا قشوراً.

نفترضـ هذا ونبني عليه أنَّ معظم الدراسـات التي تناولت البنيـة الاجتماعية وحاولت تشخيص أمراض مجتمعنا كانت غير حقيقية وتعاطت مع عينات محددة، سنشير إليها. ذات يوم في لقاء مع الدكتور حليم بركات الروائي السـوري وعالم الاجتماع المشـهور حين سألته عن اهتمامه بكل رواية تصدر في الوطن العربي أجاب قائلاً: من خلال الرواية أرصد الكثير من الحراك الاجتماعي، وأستطيع أن أرمم الكثير من الدراسات التي أقوم بها، الروايات التي ترصد العالم السفلي للمجتمع، أو لنقل قاع المجتمع، وهنا نشير إلى أن الروائي العربي نجيب محفوظ قدَّم خلال مسيرته الإبداعية ما أثرى علم الاجتماع العربي – لو أراد علماء الاجتماع الاسـتفادة– من خلال رواياته التي سجَّلت ونقلت نبض المجتمع المصري، وحين سئل نجيب محفوظ عن الصـورة التي يقدمها للمجتمع المصـري أجاب: لم أنقل إلا القليل مما أعرفه وعشته، وكان قد عمل في عدة مواقع تسمح له بالتعامل المباشر مع شرائح المجتمع المصري كلها، ولا سيما الفقراء.

وبالعـودة إلى سـؤالنا الملح: لماذا أخفـق علماء الاجتماع العرب في قـراءة المتغيرات والإشارة إليها؟

ربمـا يكون جزء من الإجابة عن ذلك من خلال الإشـارة إلى إهمال المؤسسـات العربية للدراسـات المستقبلية، وعدم الانتباه إلى ضـرورة ولوج هذا الميدان إلا متأخرين، ومع هذا

التأخير لا نقع إلا على عدد قليل من الدراسات في هذا المجال، وإن وجدت فالهم الأساسي لها البناء المادي بعيداً عن رسم إستراتيجيات تربوية وثقافية، أغفلت البناء المعرفي وتناست الـــروح الوطنية، وحولت في لحظة ما اســـتجابة لإغواء العولمـــة؛ حولت الفرد إلى مجرد آلة تعمل وتعمل، ولا يصل إلى الحد الأدنى من تلبية احتياجاته.

فـــي البحث عن إجابة في الكتاب المهم الذي حمل عنـــوان نحو علم اجتماع عربي -علم الاجتماع والمشـــكلات العربية الراهنة- الصـــادر عن مركز دراســـات الوحدة العربية ببيروت عام (١٩٨٩م) وشـــارك فيه مجموعة كبيرة من نخبة علماء الاجتماع العرب، قدم الدكتور عبد الباســـط عبد المعطي من جامعة عين شـــمس، دراســـة مهمة بعنوان: في استشراف مستقبل علم الاجتماع في الوطن العربي: بيان في الالتزام والتمرد ومن خلال هذا البحث اســـتطاع أن يضع الأصبع على الجرح حين تناول كثيراً من أسباب إخفاق علم الاجتماع العربي في تشخيص المشـــكلات التي يواجهها المجتمع العربي ومنها العمل على قراءة عينات منتقاة لا تمثل واقع المجتمع التمثيل الصحيح وهي عينات منتقاة يراد من خلالها تقديم دراسات وردية (الجماهير التي يتعامل معها المشـــتغلون بعلـــم الاجتماع هي جمهور الطلاب والباحثون الشـــباب وعينة البحث بالنســـبة إلى طلاب مراحل الإجازة الجامعية هم المســـتهلك للمؤلفات المدرسية التي ينتجها المشـــتغلون بالعلم، وهم بالتالي مصدر دخل أساسي للقائمين بالتدريس في الجامعات العربية، ويضيف قائلاً: لقد بينت الدراسات التي اهتمت بتحليل ممارسات التدريس وتقويمها في الجامعات العربية أن من بينها زيادة الاتجاه إلى الأعمال المترجمة، التي هي في جوهرها إعادة إنتاج لأعمال آخرين، وأياً كان جهد المترجم فهو أقل عناء من التأليف).

إذن، العينات التي يدرســـها علماء الاجتماع العرب منتقاة وتدرس بطرائق ومناهج ليست معدة لمجتمعاتنا، ولم يكلف المعنيون بالأمر أنفسهم بالعمل على تطويرها وتجديدها لتكون قادرة على مواءمة المجتمع العربي، وهنا من المفيد أن نشير إلى ما استهل به الباحث بحثه هذا إذ قال: (إذا كان الاشـــتغال بعلم الاجتماع في الوطن العربي لن يثري وعي أولئك الذين يشـــتغلون به بمهام العلم لتقابل هموم هذا الوطن وتطلعاته المرحلية والمستقبلية، فلا كانوا ولا كان، فسوف ينفي ما زعموا تقديمه المكان والزمان).

ببساطة هنا تكمن المعضلة، علم اجتماع عربي يغرد خارج الواقع الاجتماعي إلا ما ندر، ومن قرأ المجتمع العربي قراءة واعية حقيقية وقدمها بلا تجميل وجد من يحاربه، وهنا نشير

إلى حليم بركات عالم الاجتماع السـوري الذي خلص في كتابه: النظام السياسـي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة إلى أن المجتمع العربي يقوم على القيم الآتية:

١- القيم القَدَرية لا قيم الخلق والسيطرة على المحيط ورأى أنَّ النظام السياسي كغيره من النظم والأفراد والجماعات بشكل عام يأخذ - كما يقول - السيد يسين - موقفاً تجاه محيط يرتكز على القبول والتقليد والاستسلام والقناعة، لا المجابهة والخلق والتحدي والطموح.

٢- القيم التي يقوم عليها نظامنا السياسـي - العربي - بل حياتنا بشـكل عام هي قيم سلفية مغلقة لا مستقبلية منفتحة وهنا المقصود: أن التخطيط غير موجود - نستمد عزاءنا من الماضي؛ نقيم الأشياء نرفضها أو نقبلها وفقاً للعادات والتقاليد.

٣- قيمنا فورية لا منهجية، نتحمس لبعض القضايا لمدة ثم ننصرف عنها.

٤- تفضيل المكاسب الآنية على المكاسب بعيدة المدى.

٥- قيمنا مطلقة أكثر منها نسبية.

٦- قيمنا عائلية، لا وطنية ولا قومية.

٧- قيمنا ذاتية خاصة لا عامة موضوعية.

٨- قيمنا عمودية لا أفقية (العلاقات السائدة هي علاقات سيِّد بمَسُود لا علاقات زمالة ورفقة أنداد).

٩- قيمنا تعطي الخبرة والسن الأفضلية على الشباب والعلم.

١٠- قيمنا تشجع على استيراد المقتبسات المعلَّبة لا المقتبسات الفكرية خلال احتكاكنا بالحضارة الحديثة.

هذا التشـخيص لكثيرٍ من مشـاكلنا الاجتماعية يراه السيد يسـين في كتابه الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، يراه غير صحيح مع الإشارة إلى أن كتاب السيد يسين صـدر عام (١٩٨١م)، والسـؤال هنا: أليس ما شخصـه بركات حقيقي ولا يمكن أن نتجاوزه، وكثيرٌ مما رأيناه على أرض الواقع يدلل على صحة التشخيص، مع الإشارة إلى أن كل بند من البنود السابقة يحتاج إلى قراءة مستقلة لتحليل القيم التي يشير إليها.

لماذا نجح برنارد لويس في تشخيص أمراض مجتمعاتنا، وأخفق علماؤنا؟

هل علينا أن نبحث عن أسباب أخرى؟ ربما يكون ذلك أيضاً من خلال القبول في الجامعات العربية التي تُعنى بكل شيء إلا العلوم الإنسانية، نتيجة لتسليع كل شيء، وعدم الاهتمام بعلوم المستقبل.

(كل ما كُتب عن الماضي وكل ما يعرفه العلم عن تاريخ العالم، إنما هو في خدمة المستقبل، فهل تقدم معرفة الماضي لنا فكرة موضوعية موثقة عن اتجاه وسرعة تقدم الإنسان في التاريخ؟).

مقولة مستلّة من كتاب علم النفس الاجتماعي لمؤلفه: ب.بورشيف، ترجمة عبد الكريم ناصيف وهشام دجاني، في الفصل الخامس من الكتاب المعنون بـ: تاريخ العالم وعلم النفس الاجتماعي.

هذه المقولة، تفتح الجرح حول علم الاجتماع المهمَل بكل ما للكلمة من معنى، المهمل كما علومنا النظرية والبحثية كلها، ولا أدل على ذلك مما يجري في القبول الجامعي لهذه العلوم الأصعب، العلوم الإنسانية، ما أزال أذكر أنني عندما نجحنا في الشهادة الثانوية، سألت زميلاً لي، ماذا سوف تسجل في الجامعة؟

بالكاد نال مجموع النجاح، أجاب مع أني لا أطيق شيئاً اسمه فلسفة، سوف أسجل هذا الفرع، ومنه أتحول إلى علم الاجتماع، ببساطة لأن مجموعه أتاح له دخول هذا الفرع حسب أدنى الدرجات، وفي كثير من الأحيان كانت إعلانات التسجيل ترفق عند بعض الفروع النظرية بجملة مازالت أيضاً ترن في الذاكرة: (يُقبل جميع المتقدمين...).

(يُقبل جميع المتقدمين)، نعم في مجال العلوم النظرية التي تدرس شيئاً من ظاهرة الإنسان وإذا ما أردنا أن نعمم تدريس الحياة الاجتماعية، التي تدرس المجتمع كلاً متكاملاً، في صعوده، وهبوطه، في انحلاله وازدهاره، تدرس العلاقات المعقدة، تدرُس الإنسان بجانبه الاجتماعي، وهنا الأكثر أهمية، الإنسان اللغز الذي صدق فيه قول الشاعر: وفيك انطوى العالم...

نعم بأدنى الدرجات دخل من يفترض أنه سوف يدرس مجتمعاتنا، دخل الجامعة وتخرج، ونال شهادة جامعية، وبعضهم نال أعلى الدرجات ولكن ما الذي قدموه في قراءات المجتمعات العربية، أين هم علماء الاجتماع العرب؟

ماذا تفعل مئات رسائل البحث العلمي، ماجستير ودكتوراه، ألقاب وأستذة وتنظيرات، وهراء النتيجة النهائية، وربما السؤال أيضاً: هل كانوا مخاتلين، كاذبين في دراساتهم يقدمون ما يُرضي الأنظمة؟ وهل وهل؟ أسئلة كثيرة من حقنا أن نطرحها أولاً على الأكاديميين المتخصصين بهذا الحقل الاجتماعي، نريد إجابات محددة: لماذا أخفقتم؟ لماذا كنتم

نائمين؟ قبل أن تدَّعوا أنكم تعملون الآن على دراسة المجتمع وقيمه (وهذا كذب) عليكم أن تجيبوا: لماذا ينجح علماء اجتماع الغرب في دراساتهم الاجتماعية حتى لمجتمعاتنا، ويستشرفون وبعضهم قد يضع خطوطاً عريضة للقادم، هل أذكركم بما قاله برنارد لويس في كتابه أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط.

يقول برنارد لويس في كتابه أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط: بالنسبة إلى مراقب غربي درس نظرية وممارسة الحرية الغربية فالأمر يكمن بالضبط في نقص الحرية تحرير العقل من الإكراه والتلقين ليسأل ويبحث ويتحدث وتحرير الاقتصاد من سوء الإدارة الفاشل والفاسدة، وتحرير المرأة من الاضطهاد الذكوري، وتحرير المواطنين من الاستبداد، هذا يكمن خلف كثيرٍ من مشكلات العالم الإسلامي، لكن الدرب على الديمقراطية، مثلما تبرهن عليها التجربة الغربية على نحو واسع، طويل وشاق مليء بالمآزق والعقبات.

إذا واصلت شعوب الشرق الأوسط دربها الحالي فيمكن أن يصبح الانتحاريون رمزاً في المنطقة بأكملها، ولن يكون هنالك مفر من دوامة الكراهية والضغائن، الحقد، ورثاء الذات. الفقر والقمع يصلان ذروتهما عاجلاً أم آجلاً، حتى من هيمنة أجنبية لاحقاً، ربما من أوروبا جديدة ترتد إلى طريقها وربما ... وإذا استطاعت هذه الشعوب التخلي عن التشكي وعقدة الضحية وتسوية خلافاتها ودمج طاقاتها ومواردها في مسعى خلاق فسوف تتمكن من جعل الشرق الأوسط في العصور الحديثة كما في العصور القديمة والوسطى، مركزاً أساسياً للحضارة وفي الوقت الراهن، فالخيار خيارها.

هذه رؤية برنارد لويس في كتابه المترجم إلى العربية عام (٢٠٠٦م) الصادر عن دار الرأي في دمشق.. والسؤال الآن: لماذا ينجح برنارد لويس ويخفق علماء الاجتماع العرب؟ بل لماذا أخفق علم الاجتماع العربي، هل من جواب؟

في الختام؛ لا بد من التفاتة حقيقية إلى العلوم الإنسانية في الجامعات العربية، ولا سيما علم الاجتماع، والعمل على تحقيق شعار ربط الجامعات بالمجتمع، ليس في إطار العلوم التطبيقية وحدها، بل العلوم النظرية، وعلى مراكز الدراسات العربية أن تكون قادرة على إنجاز بحوث ودراسات من نبض المجتمع العربي، لا تجامل فيها، ولا تعتمد على عينات منتقاة تفضي إلى نتائج محددة سلفاً تلبِّي رغبات من كلف بالدراسة ومن يهمه نتائجها.

والواقـع الحالـي في المجتمع العربي يقتضـي الانتباه إلى أن ثمة مشـكلات اجتماعية كثيرة تبلورت وترسخت مثل ما أحدثه عالم الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وغير ذلك كثير، ومن الأهمية بمكان أن يؤخذ بالدراسات الحقيقية التي يقدمها الباحثون الاجتماعيون والعمل على إعادة الألق للعلوم النظرية في جامعتنا. وهذا لا يأتي بين ليلة وضحاها بل يحتاج إلى رسم إستراتجيات للتربية والثقافة، والعمل على التنمية البشرية التي هي الأساس في كل بناء مهما كان، وهنا نشـير بعجالة إلى دراسة ميدانية مهمة نشرتها الهيئة العامة للكتاب في سـورية جاءت تحت عنوان: الأمن الاجتماعي (دراسة حالة جامعة دمشق) قام بها علي أسعد بركات، وصدرت عام (٢٠١١م)، وهي تمثل خطوة جريئة ومهمة علينا تفعيلها لا سيما في هذه المرحلة المهمة من تاريخنا.

إحالات

١- نحو علم اجتماع عربي، علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة (ندوة)، مجموعة باحثين مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت عام (١٩٨٩م).

٢- الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، السيد يسين، دار التنوير، بيروت، (١٩٨١م).

٣- أين يكمن الخطأ؟ صـدام الإسـلام والحداثة في الشرق الأوسـط، برنارد لويس، ترجمة عماد شيحة، دار الرأي، (٢٠٠٦م).

٤- الأمن الاجتماعي دراسـة حالة جامعة دمشـق، علي أسـعد بركات، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، (٢٠١١م).

٥- المجتمع العربي المعاصر، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (١٩٨٤م).

٦- الهوية، أزمة الحداثة والوعي التقليدي، حليم بركات، منشورات رياض الريس، (٢٠٠٤م).

الخَلْق والخلود
في أساطير مصر القديمة

عيد الدرويش

خُلق الإنسان جائعاً للمعرفة، كما خُلق جائعاً للطعام، وتتباين المستويات بينهما، ونحن هنا سندخل في جانب المعرفة، والبحث فيها بصور متعددة ومتباينة، وقد تبدو سهلة المنال في وقتنا الحاضر، ولكنها متشابكة إلى حد التعقيد من خلال صعوبة تدوينها لما كان يفكر به الإنسان في بدايات وجوده على الأرض، ولصعوبة وصولها إلينا، إذْ درسته الأيام وطحنته العصور، ولكن ما يبعث على الاطمئنان، أنها دُوّنت في أكثر من موضع، وتشابهت تلك القصص، وما نقص منها قد استكملت معرفتها بتقاطعاتها، والمحاكمة العقلية.

إن البحث في قصة الخلق والخلود، بحث في عجائبية حياة الإنسان القديم، وتفكيره وتصوراته في مستويات متعددة، فهي الأساس في تكوين شكل حياة الإنسان، وما بناه من قيم ومعتقدات، كانت السمة الرئيسة في تكوين الأديان والمذاهب، بل هو الجزء الكبير في مكوناته، الذي أخذ يتجذر في نفوس الناس عبر التاريخ.

شكّلت الأسطورة حيزاً كبيراً في حياة الإنسان، سواء في بواكير إنتاجها وتكوينها أم في استلهام مضامينها، وتناولها في البحث والاستقصاء والتحليل، وليس للأسطورة وطن ولا تاريخ ميلاد، والإنسان يدرك أنه أنتجها من خلال معايشته ومعاناته ونظرته للحياة، في زَمَنٍ كان عقله شحيح المعرفة، ليضفي عليها بما شاء من مخيلته، كما كان فقيراً في مفردات وأنماط وعناصر الحياة، وطبيعة هذه الكائنات المحيطة به، وما وقعت عينه عليها

واستأنسها، أو سمع أصواتها، بما في ذلك أصوات الريح والرعد وغيرها، فالأسطورة نتاج إنساني بامتياز.

إن الأسطورة في كليتها فلسفة خاصة كانت نتيجة تفكير جمعي في مجتمع أو شعب، ترتبط بكل مفردات الحياة، وشكّلت قضية الخلق والخالق محورها وغايتها، وتعبر عن حالة التفكير التي دفعت الإنسان بعمق هواجسه لمعرفة صيرورة هذا العالم ومن هو خالقه ويسبغ عليها القوة حيناً، والعظة والسر الدفين حيناً آخر، ولكن لازمها كثيرٌ من الغموض والرهبة والخوف من المجهول، ولم يستطع تقدير القوة الحقيقية للأشياء وكنهها، وما كانت إلا من تصورات العقل دون سابق معرفة لها، وكلما خطا خطوة في المعرفة، حطم بعض أسوار الأسطورة، مستمداً من واقعه وخيالاته وتصوراته، أشياء مكتظة بالعنف والشكوك، ومن قسوة الطبيعة، ووحشة الكائنات التي كانت تحيط به، ويجهلها ويجهل كيفية التعامل معها، وما هي حقيقتها مروراً بمراحل تطوره، حتى حطّت به الرحال ليستأنس بعضاً منها، ويزيح عن ذاكرته ذلك الوهم، ويبعد الشبح الذي كان يخيم عليه.

ربما كانت حالة التوجس محفوفة بالخوف والحذر هي التي دفعت الإنسان بعقله إلى استنباط وسائل التكيّف مع الواقع، كي يجتاح مساحة ذلك الخوف، ويشخّص الظواهر بمراحل المعرفة الأولى لها، وبعضٌ منها يستقر في ذاكرته إلى درجة اليقين به، ليكتشف ما هو أبعد من ذلك، ويخترق المجهول الذي كان يتصوره، ليصبح معرفة، ويكتشف مجهولاً آخر، ويستحث الخطا من أجل اجتيازه مرة أخرى، وهلم جرّا، وفي كل اكتشاف له يأنس ما كان قد استوحشه فيما سبق، ويتبدد الخوف منه، كل ذلك من مفردات الأسطورة التي خيّمت على ذاكرة الإنسان، وقد أضفى عليها مفردات وتصورات خارج عالمه المألوف، ولم يجد تفسيراً لبعض الظواهر، التي كانت تراوده، وإن وجد ذلك، فإنها غير مكتملة الجوانب، وغير وافية المعارف، فالأسطورة هي خيال الإنسان، ووهمٌ في الحواس، فضلاً عما يجهله الفرد، وعدم تطابق بين تلك المعايير التي يطلقها الإنسان، والواقع المعرفي لأي ظاهرة، فينشئ الإنسان حولها معايير وآراء يريد من خلالها نوعاً من التوازن النفسي الفردي، ووصولاً إلى التوازن النفسي الاجتماعي، وتحقق له نوعاً من الإشباع النفسي والمعرفي، حتى غدت في الكثير من مفاصل الحياة تلك الطقوس التي مازالت بعض مظاهرها بين ثنايا حياتنا أو عاداتنا وتراثنا دون أن ننتبه إليها، ويستمد منها خصوصيته التي صنعها بنفسه، وما أملت عليه نتاجاته العقلية، عبر تراكمات معرفية متداخلة يصعب على المرء أن يحدد ماهيتها ودلالاتها، وتاريخ ميلادها، فضلاً عن التباين الفردي

والجمعي بالنسبة للمعرفة والقدرات العقلية، ومن هذا التباين ظهر العديد من الأساطير التي تدوّن ذاكرة الإنسان، وما كان يجول في خاطره، وبصور مكثفة.

كل هذا يعطي إثراءً للأسطورة، كما هو ذاك الإثراء المعرفي وفق التباين الإنساني في التفكير والقدرات الفردية والجمعية من مجتمع لآخر، وبدأت تتوضح شيئاً فشيئاً، كلما تقدمت العصور، وإن زيادة الوعي يؤدي إلى انحسار مفاهيم الأسطورة ولا يلغي صيغتها، وتحتفظ بخصوصيتها ومكانتها لشعب من الشعوب، والتي تحدده معالم وعي وثقافة ذاك الشعب الذي أنتجها، ويبقى بحاجة إليها من أجل أن يظل في حركة دؤوبة وحيوية متجددة، وتأخذ حضوراً كبيراً في القصة والرواية والملاحم البطولية، وفي البعد المعرفي لمعاينة الأشخاص والأفعال والدوافع والميول، فضلاً عن أننا ندرك أنها أسطورة رغم ذلك التطور في جوانب الحياة المعرفية والمادية جميعها، ومع هذا التنوع والتعدد ظهرت أساطير لا تعدّ ولا تحصى، أنتجها العقل الإنساني، موسومة بطقوس القداسة والمهابة والجلال لبعضٍ من عناصرها من حيث المكان والزمان، يتمثل فيها الأشخاص والكائنات والفصول والشمس والقمر والنجوم، ولا يتوانى الإنسان أن يجسد تلك القداسة بتلك الكائنات التافهة أحياناً، أو ربما يلجأ مرة أخرى إلى التجسيم ليصنع منها الآلهة التي يتوجه إليها، في أوقات عبادته التي كانت هاجسه، أو نوعاً من التوازن النفسي لإشباع ما كان يتوق إليه، أو عجز بما لم يتمكن من الوصول إليه، ولكنها كانت بوادر في المعرفة، وسلسلة من التراكم المعرفي والعقلي، شكّل فيما بعد ذلك الخلاص من ذلك الوهم شيئاً فشيئاً، ويخرج من عنق الزجاجة، ولم يستقر له يقين، ويجد فيها حالة من حالات الاستقرار، فضلاً عن أن مفردات الأسطورة تتشابه في البحث والاستقصاء، وتتنوع من حيث الموضوعات التي تهدف إلى إرضاء حاجات الإنسان وصولاً إلى تنوع في الرؤية في الخلق والخالق، والبحث عنه في كل مكان، حتى إذا خارت قواه، فما عليه إلا أن يتخذ رمزاً أو شكلاً أو جماداً أو ظاهرة ما، وليضفي عليه مفاهيم الحياة كلها، ودخلت تفاصيلها في معابده وطقوسه وحياته وتعويذاته، وشكل البناء ونوع الحركة والأسلوب الذي يرقص في حالات الفرح، أو كما يراقصه في حالات الحزن والألم، ولم تقف عند هذا الحد، فشكّل المعابد، ومحتويات المقابر، وهي الأخرى ذات صلة بالأسطورة ومفهومها، وتتناولها مادة للفكر بالدراسة والتحقيق والتدقيق، وتبدأ بعجز في تفسيرها، وبخاصة في بواكير التفكير الإنساني الأول وما تلاه، وإسقاط وهم وخرافة عليها، وقد نجد هناك ملامسة في مفهوم الأسطورة والخرافة، لتعطي أفكاراً خلاقة، وصوراً جميلة وتراثاً غنياً، ولا بد من الميل

نحو اللغة، وما احتوته المعاجم، ونجد كلمة الأسطورة من الفعل سطر، وفي لسان العرب «يُقال: بنى سَطْراً، وغَرَس سَطْراً» والسَّطْر هو الخط والكتابة «وقالوا: هذه أساطير الأولين» أما الخرافة؛ وهي حديث مستملح من الكذب، ويقال: إن الخرافة من اسم رجل استهوته الجن، وهي أحاديث الليل وقصص خيالية.

لم تتغير أو تتبدل ماهية الأسطورة في حياة الإنسان، مادام يبحث عن حقائق خارج نطاق عقله ومعرفته، فالإنسان يمتلك العقل الذي تميّز به من بقية الكائنات الأخرى من ناحية، ومن ناحية أخرى هو ذلك العقل الذي جعله يواجه قضايا وحقائق أبعد من حدود ذاته، وخلف هذا العالم، فقد عزاها لتلك الخوارق والأساطير ليريح بها باله من عناء المعرفة، وكلما دنا منها سجل معرفة، وتدفعه الأسئلة، من أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولماذا؟ وأين؟ ومن أين؟ فأجهد عقله، واضعاً صيغاً كان يتوهمها أنها هي الحقيقة، ليجربها، ويعاينها متوجساً منها، ولم تشفِ غليله المعرفي، ليدرك يوماً بعد يوم أنه لا يلامس سوى القشور من الحقيقة، ولكنها كانت إلى حد ما زاده الذي اتكأ عليه، وكلما اكتشف معرفة غيّر نمط تفكيره، وغيرّ من شكل قناعاته وتشير ترنيمة الخلق (ومن يعلم حقيقة هذه الخليقة؟ من يستطيع أن يجهر من أين ولدت؟ ومن أين جاءت؟ إن الآلهة جاءت بعد أن أوجدت هذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود؟ هو الأصل الأول للخليقة سواء كان هو الذي أنشأها جميعها، أم لم ينشئها الذي عينه تحكم هذا العالم من علياء السماء، وهو يعلم حقيقتها، أو ربما لا يعلمها)[١].

أسطورة الخلق والخلود في مصر القديمة

نظر الإنسان القديم إلى العناصر الأساسية في هذا الوجود ومنها التراب، وكانت نظرته إليه لا تبتعد كثيراً عن أنه تشكَّل من هذه العناصر، ومن هذا التراب يستمد عناصر منشئه وحياته، وما أشار إليه جان بوتيرو (أنَّ هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل، يعدُّ صورة طبيعية جداً، في بلد يلعب فيه الفخار دوراً كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخاري على شكل إنسان، عملاً منتشراً بصورة واسعة)[٢]، أو لم تبتعد كثيراً الحضارة المصرية في العناصر المشتركة مع الحضارات الأخرى، كما لم تبتعد عن الأساطير ورؤيتها للحياة والخلود في شكل الأساطير التي كانت تجسد ذلك التفكير الذي كان سائداً في تلك الفترة، وشكَّلت غنى في أساطيرها، وفي بعض السِّيَر لتلك الأساطير أنَّ أول زوجين أوليين وُلدا من العماء، وإن الفيضان السنوي لوادي النيل، هو الذي يدعو للدهشة، وذاك يرتبط

بالنبـــات، وما ينجم مـــن حياة الناس وخيراتهم، فقـــد كان الناس ينظرون إلـــى أن الماء هو المخصب لهذه الأرض في كل عام، عندما يكون الفيضان، وينحسر الماء عنه.

كمـــا نجد انعكاس تلك الأســـاطير فـــي تفكير الفراعنة الذي خيَّم على ســـلوكهم، عندما فسَّروا الفيضان في أساطيرهم، بأنه حقيقة الدموع التي تسفحها «إيزيس»، وهي تبكي أخاها «أوزوريس» الذي قتله «ســـت»، وعندما حلّت المســـيحية في مصـــر، وأزالت عبادة «إيزيس»، استمرت أســـطورتها تعيش في معتقدات الفلاحين والبسطاء في شكل تصوّر مسيحي جديد يقول: إن الفيضان ينبع من ركوع القديس ميخائيل، وكلما حلّ ميعاد الفيضان، يدخل العرش الإلهي، يرجو الله أن يرحم عباده المصريين، فيأمر بزيادة النيل، ويظل يبكي، ويتضرع حتى يُستجاب دعاؤه، ويفيض النيل من دموعه.

وإذا كانت الآلهة الخالقة، قد أخذت هذه الأشـــكال المتعددة في الميثولوجيا المصـــرية، فقد حدث ذلك من دون شك عن طريق إدغام عبادة قديمة لأحد آلهة السماء، على أن يكون إلهاً أعلى، مع عبادة الشمس، الموغلة في القدم في مظاهرها المختلفة، وفي كل مكان، كان المصـــدر الاستعلائي، للنشـــاط العالمي الخلاّق، مركزاً في السماء نفسه، على سبيل المثال يربط الســـماء، والغيوم، والمطر، مع تجســـيداتها الرئيسة بالخالق الســـماوي، وتجلياته في الطبيعة من عاصـــفة ورعد (فالنظرة الشـــعبية لفكرة الخلق القديمة هي: إن كل شيء يفيض عن الشـــمس، والتي كانت تظهر، وهي تجتاز الســـماء، مثل صقر، في رحلتها اليومية مشرقة من الشرق، في الصباح، من مناطق تحت الأرض «دوات»، لتبدأها على شكل خوبري «الجعران المقدس»، الذي خلق نفسه، والذي يدحرج الكرة الشمسية في مسيرته، ثم ينحدر إلى الغرب مساء، تحت شكل رجل مسن هو آتوم)[٣].

في هذه المثيولوجيا، كانت الأرض محاطة بسلسلة من الجبال العالية، والتي كانت عليها ترتكز الســـماء المشخصـــة بملامح الإله «نوت»، وتحتها كانت توجد الهوة الكبرى، التي منها يولد الإله، الشـــمس كل صباح، كما لو كان الأمر، منذ أول الخلق، وفي بيت المسلة في معبد الشمس حجر مخروطي، على أكمة من الرمل، عُدَّ النشز الأولي الذي أبدى عليه «أتوم» ظهوره الأول، إذاً فهو مركز للقوى الخالقة، لذلك اتخذ القبر الملكي شكل الهرم معبداً، لكي يتمكن الفرعون المتوفى من العودة إلى الحياة، كما أشـــرقت الشـــمس من مياه نون بمساعدة القوى المانحة للحياة، والملازمة لهذا المكان المقدس.

وكانت النظرة المصرية لقصة الخلق وأساطيرها، وفق نظام الكون، كما تبنوها، فالسماء والأرض كانتا تحملهما بقرة، وآلهة الجبال، أو أعمدة منصوبة في الجهات الأربع، فالشمس هي ابن آلهة السماء، وهذا ما ينطبق على كثير من قصص الخلق(ورغم الاختلافات كلها، كما يوجد نشاط إلهي خلّاق، يتجلى بالشمس، والريح، والأرض، والسماء منتجاً، أو مشكلاً الأشياء كلها، بحسب مخطط مرسوم من قبل، سواء عن طريق الفكر، أم الكلمة المقدسة، أم عن طريق التكاثر الجنسي للخلق الأول، وتبقى الغاية والنوايا نفسها، رغم أن التمثيلات الرمزية، تتغير، وفق طريقة التقريب، أو المنهج المتبع)(٤).

أدّت الشمس في مصر دوراً واضحاً، وبارزاً في تصوّر الخلق، كما كان لها دورها في الاقتصاد، ومجالات أخرى في هذه الحياة، كما أن عناصر الكون، هي التي شكلت، في موروث الفراعنة في قصص الخلق، وأساطيرها، فالشمس هي الإله الرئيسي، وخالق العالم، ومصدر الحياة، كما أن هناك علاقة بين الشمس والأرض، وإن مقصد الموتى هي الأرض، وهي جنات الصالحين، وملكة سفلية «دوات» (أما عالم «أوزيريس» فهو في الغرب، وأما أوزيريس نفسه، فكان يتخذ صفة سماوية، بأن يصبح ذلك الذي في الأفق، من حيث يخرج «رع»، وتحت هذا الشكل، يصبح «أوريون»، والذي يشرق ويغرب كل يوم، بينما كانت إيزيس نجمة الكلب الأكبر سيريوس، والذي كان يتبعه كذلك كانوا يجمعون بين أوجه القمر وتغيراته مع تقلبات «أوزيريس الذي يموت، ويبعث، وكان القمر الآفل: يُمثّل عين حورس التي فقدها، في صراعه مع ست، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ما نسبوهُ إلى القمر: من قدرات مخصبة، فإنه؛ لم يحتل مكانة بارزة في ميثيولوجيا مصر الكونية، إلا أنه ليس من غير المحتمل، أنه كان في الأصل توءَم الشمس، والذي ربما شخّص على شكل خونسو، والذي أضحى في طيبة ابناً لآمون وموت، وتطابق مع ثوت كإله قمري في الإمبراطورية الحديثة، ومع ذلك؛ يبدو أنه كان في البدء شكلاً من أشكال حورس، وهذا ما يفسر - حتماً- صفته الملكية كأمير فتي وجميل مُمثّل مع قرص القمر، ومع هلال فوق رأسه، ولحية مشدودة، وممسك بيده سوطاً، وعكاز راع)(٥).

الأساطير المصرية القديمة لم تعالج مسألة عالم الخلود فحسب، بل ركّزت على مسألة الروح والنفس في العالم الآخر، وكانوا ينظرون إلى الموت على أنه انقطاع عن النظام الإيقاعي للحياة فقط، فالموت هو حالة عبور فقط من حياة إلى أخرى، وانصب اهتمامهم فقط على الفراعنة، دون غيرهم، ولم تتناول حياة الناس العاديين، بوصف ذلك إرادة إلهية عليا تأمن خلودهم، وتجنب انقطاعه، في هذا النظام الطبيعي وقواه، ومن هنا ظهر النشاط

العظيم لإشــادة قبر له، وتحنيطه فــي الطقوس الملائمة، ليتمكن مــن الدخول إلى ملكوت الآلهة، بوصفه إلهاً مثلهم، ويتخذ مكانه في زورق «رع»، ويجلس على عرشه، ويرافقه، عندما يجتاز المسافة بين الأفقين.

وينظــر إلى الناســ العاديين على أنهم يســتطيعون أن يكون لهم نســب إلهي، يؤمن لهم الانتقــال مــن هذه الحياة الدنيا، إلــى الحياة الآخرة، وهذا الاعتقاد كان ســائداً، من خلال القبور، والعناية بها، والاهتمام بوسائل الراحة المتوفرة للمتوفى (فمنذ زمن موغل في القدم، كانوا يعزون لكل شــخص، روحاً غيــر مرئية وخالدة، وكانت تأخذ في أغلب الأحيان شــكل طير له رأس بشــري، وتبقى بعد الموت، أو توجد لحظة التحلّل، وقد كانت في البداية صــفة مقصورة على الملوك، وتُدرك على شكل جِنّي حامٍ، أو خير، أو على شكل قرين روحاني، يقود فرعون بعد الموت، بوجه أخص)[٦].

في الحياة الآخرة تستطيع «البا»، بما أنها روح خارجية خالدة للإنسان، أن تطير، وتصيد الحيوانات، والأسماك، وتزور القبور، بينما الجسد المادي يلازم القبر، ولا تتحدث النصوص عن بعثه (ويعدُّ الغذاء ضرورياً، ولكن بشروطه السماوية، حيث المباهج السحرية كانت تتخذ لها شــكلاً، يتكيّف مــع هذا النمط من الأرواح، وتظهر متون الأهرام صــعود الملك المتوفى بوســائل متنوعة، فهو يســتقبل بكل حفاوة، ويتمتع باللذائذ والهناءة الخالدة كلها بوصفه ابناً لـ«رع»، يأكل من طعام الآلهة، ويمتص الحليب من ثدي إلهه، ويشــرب ماء الحياة، ويتغذى من شجرة الحياة، ويتمتع باللذائذ الجنسية)[٧].

وفي المقابل تتناول الأســاطير في حال عدم التزوّد بالأغذية بشــكل كافٍ لهؤلاء الملوك من الفراعنة، أنَّ ذلك سيعرضــهم، ليكونوا مجبرين على التهام غائطهم، وشــرب بولهم، ومن هنا؛ تأتي أهمية كفاية الأضاحي والقرابين وبخاصة في كتاب الموتى، الذي وضعوا نصوصه- (وســنأتي على ذكره لاحقاً)- معبِّرين فيه عن ألّا يكون ذلك امتيازاً للملوك، فباســتطاعة أي إنسان أن يغذي في نفسه الأمل، في أن يجتمع بأقاربه، وأصدقائه، في العالم الآخر، ولا تختلف أســطورة الخلق المصرية عن غيرها، من ناحية اعتمادها على مسألة الماء، وما هذا العالم: إلا بحر هائج يحتوي على القوى كلها، قوى الخير، وقوى الشــر، فقوة الشــر جسَّدتها الحية، وفجــأة يخــرج من هذا العماء من أعماق هذا البحر الإله «أتوم»، رافعاً معه هذه الأرض، كما صعدت معه الآلهة «رع» لتصبح الشمس فيما بعد، فالآلهة «رع»، مع الإله «أتوم»، أنجبا طفلين

هما: «شو» وقد أصبحت آلهة الهواء والريح، و«تيفنوت» التي أصبحت آلهة الخصب، وفجأة يختفي كلا الطفلين من هذا الوجود، فيرسل الإله «أتوم» للبحث عنهما، وعندما وجدهما بكى من الفرح الشديد، فتحولت دموعه إلى البشر الأوائل منهم الأخوة «شو، وتيفنوت»، أحبَّا بعضهما البعض وتزاوجا، ليحصلا على أبناء توائم، فتكون الأولى آلهة السماء «نوت»، والثانية آلهة الأرض «جيت»، ويظلّان بعيدين عن بعضهما بعضاً، لكي لا يرتكبا أي خطأ، مثل الخطأ الذي ارتكبه والداهما بالزواج من بعضهما، ولهذا يتزوّج الفراعنة بأخواتهم، تيمناً بالآلهة الفراعنة، فالآلهة فقط يحق لها زواج الأخوة، كما جسدت احترام آلهة الأرض لآلهة السماء، وهذا ما أدّى إلى الاعتقاد باحترام قوانين السماء، وقصة الخلق تبين أن: إله الذكر الأرض «جت»، وإله السماء الأنثى «نوت»، ملتصقان ببعضهما بعضاً، حتى جاء الإله «شو». إنّ أساطير الخلّق جميعها تتشابه فصولها في أغلب الأساطير القديمة.

الحياة الآخرة والخلود «كتاب الموتى»

جسدت الحضارة المصرية القديمة، كثيراً من الجوانب المعرفية التي تناولتها في جانب تصوراتهم لعقيدة يوم الحساب، ويوم القيامة، وعودة الروح، ويعدُّون الحياة المعيشة في الدنيا قصيرة من أجل الحساب، أو أنها عينة لتلك الحياة الثانية بعد الموت، على أن تحتوي قبور الفراعنة الحاجات كلها من المأكل، والمشرب، ليستطيع الفرعون مواصلة حياته في الآخرة (وكان باستطاعة الفرعون المتوفى «أن يأخذ من يشاء، أو يشتهي من النساء»، وحتى يُبعث الميت من جديد، يجب أن يبقى جسده سالماً من التفكُّك، والتّلف والتّشوّه، ولهذا كانوا يهتمون بتحنيط جسد الميت ودفنه في قبر يحتوي كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته الأبدية من غذاء ولباس ووسائل للصيد، أو قتال، لذلك بنوا القبور والأهرام، وشيّدوها بإحكام حفاظاً على الأجساد من التلف والبلى، ويمكن أن يودع في القبر تمثال مشابه لصاحبه إن كان جسمه غير صالح، فتستمر علاقة روحه بجسده، وإن كان مفهوم الروح مختلفاً عندهم، فهي عند «حورس» ذات ثلاث شعب: روح عليا، وروح دنيا، وروح تسكن في جسد الميت)[٨] وكان للمصريين عدة دوافع للإيمان بالحياة الآخرة، لإدراكهم بأن الحياة حلبة صراع في ثنائيات الحياة بين الخير والشر، والحق والباطل، لتكون الحياة الآخرة أكثر عدلاً عبر تلك المتناقضات.

كما يعتقد المصريون أن الحياة تعود للإنسان بعد الموت مباشرة (ثم يأتي طير يجثم فوق رأس الميت، ويمسك بمخالبه رمز الحياة، ويتولَّى نَفْثَ الحياة في خياشيم الميت، فيؤمّن له استمرار

الحياة بعد الموت بالاعتماد على السحر والقيام بعمليات سحرية لها مراسم خاصة مثل: سكب الماء السحري أو المقدس في الجسد المتصلب بسبب الوفاة، لإعادة الحيوية إليه، ويسمى السائل «سائل أوزيرس»، أو «ماء النيل»، وبوساطته تعود الحياة إلى جسم الميت، ويصبح «كائناً منتصراً» حياً باستمرار يوصف بالقدرة الإلهية، ويعدُّ هذا رفضاً لفكرة الموت الأبدي)[٩].

وللمفارقة كان اهتمام الفرعون بالقبور عظيماً، بوصفه يهيِّئ له دائماً الحياة الآتية، بينما قصورهم في الحياة الدنيا من الطين، ولذلك زالت بيوتهم وظلت قبورهم (كانوا يعتقدون أن أفراد الأسرة الملكية وحدهم هم الذين يعيشون بعد الموت، وتطورت فكرة المصريين إلى الماورائيات، عندما ادعى كهنة «آمون»، في طيبة اكتشافهم أسرار الخلود، فعرضوها بشكل نصوص تحتوي على تعاويذ وكتابات سحرية مختلفة من أوراق البردي، ثم جمعوها في كتاب سُمِّي «كتاب الموتى» لتساعد الميت على العبور إلى الأبدية بسلام، والانطلاق إلى أعماق القبور، حيث يوضع هذا الكتاب مع الميت في قبره ليستعين به على مواجهة الحساب عند مثوله أمام الإله «أوزيريس»، إله القيامة، وكان يزوّد كل ميت بسلسلة من النصوص تُكتب على تابوته، أو بعض البرديات والتمائم وتلاوة بعض الصلوات والأدعية، وإقامة بعض الشعائر على جسد الميت قبل أن يوضع في القبر ليرتاح الراحة الأبدية، ثم يوضع الجسد المادي في غرفة المومياء، وبفضل كلمات «تحوت»، وصلوات الكهنة يتحول الجسد المادي إلى جسد روحاني، غير قابل للفساد، فيخرج رأساً من القبر إلى السماء، حيث يقيم مع الآلهة هناك، وبعد عودة روحانية، وليست مادية أو جسدية فيزيائية، فإن النفس ترتفع إلى السماء، والجسد تناله الأرض)[١٠].

ويمثُل الميت أمام «أوزيريس» إله القيامة، وتوزن عليه أعماله في ميزان العدالة، حيث تتمايل كفتا الميزان، وقد وضع في إحداها قلب الميت، وفي الكفة الثانية ريشة تمثل الحق والعدل «معات»، وخوفاً من أن يكذب القلب صاحبه، أو يشهد ضده، يردد الميت هذا القول» يا قلب، لا تكن شاهداً ضدي، ولا ترجح الكفة عليّ أمام سيّد الميزان، «ويشهد هذا الحساب والمحاكمة اثنان وأربعون قاضياً، منهم يمثل إحدى مقاطعات مصر آنذاك، فإذا توازنت كفتا الميزان، فإن الميت ينعم باستمرار حياته في مملكة «أوزيريس»، في الآخرة، بموجب القانون والعدالة، فيصدر الحكم التالي بحقه «فليخرج فلان، وليذهب حيث شاء بالقرب من الأرواح والآلهة، وقد فاز بالنعيم ويقود «حورس الصقر» الروح لتمر أمام أوزيريس، ثم تدخل حقول السعادة الأبدية، أما إذا رجحت كفة السيئات على الحسنات، ابتلعه حيوان مسخ اسمه

«الملتهمة» أو يحكم عليهم بأن يولدوا من جديد خنازيراً أو حيوانات دنيئة أخرى، وذلك بأمر من «تحوت» الذي يقف خلف «أنوبيس» الذي له رأس ابن آوى، والذي يقوم بعملية الوزن بالميزان، وتحاسب كل نفس بمفردها: إما أن يسمح لها بالعبور إلى مملكة أوزيريس، ومملكة الأبرار، وتصبح في مرتبة الآلهة، أو أن تلقى الدمار على الفور فتهلك.

كان اعتقادهم أن النفس الإنسانية تنفصل عن الجسم، وأن هذه النفس ذات أربع شعب: إحداها الروح، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير، وهو مادة أدقّ منه، على هيئة الجسم تماماً، والرابعة هي الجوهر الخالد الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وعندما يموت، تظل الروح تتردد على الإنسان في قبره، حتى يجتاز الحساب، ويصل إلى مرحلة الثواب، ثم تعود إليه فيشعر بالحياة من جديد.

- وكتاب الموتى: هو كتاب يشتمل على آداب وفضائل، وعلى ما تلقته الروح من عبارات لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب، أمام «أوزيريس»، إله القيامة، ويعدُّ الكتابَ الأعلى عند قدماء المصريين يتعبدون بتلاوته وهم أحياء، ويوضع معهم في قبورهم وهم أموات، وهم يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده، وقد جاء عن منزلة الكتاب في أحد أبوابها: إن الكتاب يعلي شأن الميت في أحضان «رع»، ويحبُوه السَّبق لدى «توم»، ويجعله عظيماً لدى «أوزيريس»، ومرهوب الجانب لدى الآلهة، وكل ميت وُضع له هذا الكتاب، تخرج روحه نهاراً مع الأحياء، وتصعد إلى الآلهة، ولا يعترضها أحد، تدنيه الآلهة منها، وتلمسه لأنه شبهها، ويطلعه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء. هذا الكتاب حظي، وهو حق، لم يعلم به أحد، إنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنه لا يراه أحد سواك، ومن علمك إياه، فلا تزد عليه شيئاً من خواطرك وخيالك، بل قم بكل ما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط، إنه سر لا يصل إليه عاميٌّ، إنه غذاء الميت في عالم الدنيا، وقوت روحه في الأرض يجعله دائماً، فلا يعلو عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، وهو كتاب يشتمل على جميع الكلمات السحرية التي تُستعمل لعلاج الأمراض، ويشتمل على الصلوات والأدعية وعلى كل ما يجب للميت من تحنيط، وطقوس دينية، ويحكي ما يقوله الميت الذي أُقيمت له الطقوس الدينية، والتي يدعو إليها الكتاب، فيقول: (تحية لك يا أبي «أوزيريس»، لقد حنطت لحومي هذه ولن يتحلل جسمي، فأنا كامل غير محسوس مقتدٍ بك يا أبي «أوزيريس»، حبذا الإله في صورة رجل لا يتملك جسمه)[١١].

وفي كتاب الموتى، هناك الكثير من النصوص والتفاصيل التي يجب أن يحفظها أو يعيها الفرعـون في حياته وقبل وفاته، ويعرف خطوات المسـاءلة في الحياة الآخرة وفق ما سـاد في اعتقادهم، وهناك الكثير من المشـاهد لعملية الحسـاب، ويتلوها ما يحفظه في الدنيا وما جاء في هذا الكتاب، أمام المحكمة الإلهية، وهذا واجب عليه ليسـلك السـلوك القويم ويسـتطيع الإجابة عن الأسئلة التي سـيتعرض لها، لينجو من العقاب، وهذا مشهد الروح أمـام المحكمة الإلهية في اليوم الآخر وكلها إقرار بممارسـات الفرد بما عمله في حياته الأولـى (يا سـادة الحقيقة، إنني حامل الحقيقة، إنني لم أخنْ قـط، ولم أغدرْ بأحد، ولم أجعلْ أحداً من ذوي قرابتي في ضـنك، ولم أقمْ بدنية في موئل الحقيقة، ولم أمزج عملي بشرٍّ قط، وجافيت الضرر والأذى، ولم أعمل باعتباري رئيس أسرة، ولم أكن سبباً في خوف أحد، ولا عوز معوز، ولا ألم متألم، ولا بؤس بائس، ولم أُقدم على ما لا يليق بالآلهة، فلم أوجع أحداً، ولم أبكِ أحداً، ولم أقتل أحداً، ولم أقتل نفسـاً، وما حرّضـت أحداً على قتل أو خيانة، ولم أكذب، ولم أسـلب المعابد وذخائرها، ولا المومـيـاء طعامها، ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن في كهنوته، ولم أغل في الأسـعار، ولم أطفف في الكيل والميزان، ولم أسـرق الماشية، ولم أصـدر الآلهة، ولم أدفع الماء في عهد الفيضـانات، ولم أحوّل مجرى ترعة، ولم أخدع الآلهة في قرابينها المختارة، فأنا نقي، أنا نقي، أنا نقي)[١٢].

هذا ما يقوله الميت أمام لجنة القضـاء، وهو يحاول أن يدافع عن نفسـه، فيما يمكن أن يرتكبه في الحياة الدنيا، طمعاً في رضـا الآلهة، ونيل براءته ليعيش الحياة الآخرة مع الأبرار فـي مملكة «أوزيريس» (وعندما تزكّي المحكمة أعمال الميت تصـدر هذا القرار بحقه: «ليس فيه شـر، ولا خطيئة ولا فسـاد ولا دنس، وليس عليه اتهام ولا في أعماله ما يثير الاعتراض، فقد عاش في الحق تغذى بالحق وإنَّ أفعاله لتشـرح الصـدور، وهي مما يطلبه الرجال، ويسـر الآلهة محبة، وأعطى الخبز من كان خاوياً، والماء من كان صـادياً، واللباسـ من كان عارياً، وأعار الزورق لمن ليس عنـده)[١٣]، هذا حكم قاطع ببراءة وتنزيه الميت، يخوّله اجتياز الصـراط المستقيم إلى مملكة الأبرار، ويجنبه «الملتهمة»، الجالسة تنتظر قرار المحكمة بفارغ الصبر، لتأخذه إلى الجحيم، وتشير حكمة مشهورة في التحنيط «لنسعَ للبقاء، ولنتجنب الفناء».

ومن هنا، نشـأت صـناعة تحنيط الجسـد المتوفى، ودفنه في قبر يحتوي على كل ما يحتاج إليه، وقد برع المصـريون في التحنيط وأصبح مهنة لها أصحابها والبارعون فيها،

(وقد كانوا يلقون أجساد موتاهم في الصحراء، فتجفّ، ولا تبلى، وتبدأ عملية التحنيط بلفّ الجسم الميت بالعصائب، منذ زمن الإمبراطورية الأولى، ثم تطوّر هذا الفن في العصور التالية، وأصبح هناك أكثر من طريقة للتحنيط، تختلف من حيث الإتقان والكلفة، وقد يضطر القائمون عليها إلى إيفاد البحوث العلمية إلى بلاد بعيدة من أجل إحضار المواد اللازمة والعقاقير، كالراتنغ والبلسم، وغير ذلك من المواد الأساسية التي تدخل في عملية التحنيط التي تستمر مدة سبعين يوماً، تبدأ بانتزاع أحشاء ودماغ المتوفى وغسل داخله، وتعقيمه بمواد مختلفة كالقطران وغيره)[١٤] ثم تترك الجثة مدة سبعين يوماً في الملح، ثم تغسل من جديد، وتلف بعصائب من الكتان، وتوضع في تابوت خشبي مغلق لتبقى فيه إلى ما شاء الله، أما الفقراء فيكتفى بنقع جثث موتاهم بمحلول من الماء والملح فقط، ولذلك لا تعمر طويلاً.

وصفوة القول بأن الأسطورة ظهرت فيما بين المجتمعات التي عاشت على أطراف الأنهار، وكان لها العمق الحضاري، عندما انتقل الإنسان من الكهوف، وعاش فوق الأرض يبني بيتاً فوقها حتى إذا ما عصفت به الريح، أو جرفته الأمطار، والسيول، بنى بيتاً آخر أقوى منه، وفي مكان يدرأ فيه السيول، وقوة الريح، لتبدأ الأسطورة في الانزياح، في مواضع أخرى، وبقيت قاعدتها، وتغيرت مفرداتها، وأشخاصها، وكائناتها، لتستبدل فيها أشكالاً أخرى، فضلاً عن بقاء ما يجسد تلك الأسطورة من الأشياء، والتي يضيف عليها الإنسان نوعاً من الرهبة، والقداسة في أسلوب الترميز، والإيضاح، والإلماح، لما كان في عصور موغلة، أو ومضة يثير بها كتاباته، وأساطيره، وحكاياته، مشوّقة، ودالّة على عمق المعرفة، والتي لا تتجزأ من ماضيها، وصولاً إلى حاضرها، وأبواب المستقبل مفتوحة أمامها، وما تناولناه في هذه الدراسة محصورٌ في قصة الخلق والخلود، وتتبّعنا ما هو مثبت، ومتناسق، وابتعدنا عما كان حشواً، أو تكراراً مثبتين، وفق الوثائق، والمصادر، في دراسة أكثر توازناً، بما يخدم هذا العنوان، علني أكون قد وُفقت بها، ولا أدعي بأنها مستوفية كل الشروحات، ولكنها قد تبدو مفاتيح للمعرفة، ولا أبتغي من تقديم هذه الدراسة إلا ما ينفع الناس.

الهوامش

١- حكمة الأديان الحية، (ص١١٤).

٢- قصة الخلق، (ص٥٣).

٣- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى، (ص١٥٧).

٤- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى، (ص١٦٣).

٥- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى، (ص١٦٤).

٦- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى، (ص٢٢٠).

٧- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى، (ص٢٢٥).

٨- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٤).

٩- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٥).

١٠- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٥).

١١- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٨).

١٢- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٩).

١٣- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١٠٩).

١٤- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، (ص١١٠).

المراجع

١- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، تأليف: فوزي محمد حميد، دار حطين، دمشق، (١٩٩٣م).

٢- الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، أُ. جيمس، ترجمة: يوسف شلب الشام، دار التوحيد، حمص، (١٩٩٨م).

٣- حكمة الأديان الحية، تأليف: جوزيف كاير، ترجمة: المحامي حسين الكيلاني، مراجعة: الأستاذ محمود الملاح، دار الحياة، بيروت (١٩٦٤م).

٤- قصة الخلق، سيد القمني، المركز المصري لبحوث الحضارة، مصر، الطبعة الثانية، (١٩٩٩م).

الحوار غايته ومحدّداته

محمد خالد العمر

الحـوار لغـة: «الحَوْرُ: الرُّجُوعُ. وبَعيـدُ الحَوْر: أي عَاقِـلٌ. والحَوَرُ: أنْ يَشْـتَدَّ بياضُ العينِ، وسـوادُ سـوادها. والحَوَارِيُّ: الناصـر. وتَحـاوَرُوا: تَراجَعُوا الـكلامَ بينَهُم، والمِحْوَرُ، يُبْسَـطُ به العجيـن. وكلَّمتُـهُ فما رَجَعَ إلـيَّ حَوراً وحِواراً ومُحَـاوَرَةً... أيْ جَواباً، وأَحارَ علَيـهِ جَوابَهُ: رَدَّه. وحُرْتُ الثَّوبَ غَسَلْتُه»(١).

الحـوار اصـطلاحاً: الحوار قيمة وسـمة إنسـانية. حاور على وزن فاعـل، وهذا يعني وجود فاعلين ومادة حوارية، والحوار مفهوم فلسـفي. فالبياض والسـواد تباين في الجمال، والضد يظهـر حسـنه الضـد. والحوار بين طرفين أشـبه باليدين تنظف إحداهمـا الأخرى مما علق بهـا. لذلـك كان الحـوار لا بـد منه. ومـن مفهوم الحواري الـذي يعني الناصـر نؤكد على أن من يحاورني يأخذ بيدي ويدلني، أو يهديني إلى الفكرة الصـحيحة فنحن نجلو الصـدأ عن الأفكار، والمحاور ناصر مناصر بالفعل، والمحور من الحوار، وهو قطب تدور حوله الأفكار.

ورود المفـــردة في كتاب الله: «وردت كلمة حوار في القـــرآن الكريم ثلاث مرات- بالفعل المضارع يحاوره مرَّتين، وتحاوركما مرة»(٢).

للحـــوار مرادفات تعطي المدلول أو ما هو قريب منـــه: منها الحِجَاج، الجَدَل، الرَّدّ. وتتمّ العملية الحوارية بالمحادثة البيِّنة الواضحة المسموعة المفهومة، أو بلغة صامتة أو بلغة فنيّة. ولمـــا كانت اللغة العربية لا تتطابق فيها المرادفات؛ كان من الواجب علينا توضـــيح بســـيط للمعاني التي أوردنا لمرادفات الحوار.

الحجَاج: مفردة هي الأقرب لمفهوم الحوار. فقد وردت مع مشتقاتها في القرآن الكريم (١٣) مـرة. في غالبيتها كانت تـؤدي بالمعنى إلى حوار المدافع عن موقفه ومبدئه، ويقدم بيـن يدي حِجَاجه أفكاراً تبيّن الموقف الذي عليه المحاجج. وحاجّه قدّم حجته بين يديه. ودليلنا ما جاء في الآيات الكريمة: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (البقرة: ٢٥٨).

الجَـدَل: وردت مفردة الجَدَل ومشـتقاتها في القرآن الكريـم (٢٩) مرة. ونحن نعتقد أنّ الجدل صـفة بشـرية لم ترتق إلى مستوى الحوار الحقيقي فهي ليسـت متوافقة معه لا في الأسـلوب، ولا متطابقة معه في الغايـة. لذلك كان الجدل غير محمود فالمجادل يصـطنع الخصـام، ويقود إليه، أو يسـعى لتضييع الوقت، وعدم الوصـول إلى نتيجة. وقد وصف ربنا الإنسـان بالجدل، فقال جل جلاله: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾** (الكهف: ٥٤).

وفـي موقـع آخر آية أخرى يبين ربنا أنّ الجدل لا غاية فاضـلة تُرجى منه يقول ربنا جلّ جلاله: **﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾** (الزخرف٥٨). وفي النحل يظهر موقف الجدل الدفاعي يقول تعالى: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** (النحل: ١١١).

الرَّدُّ: مفردة الرَّدّ التي تعني الجواب وردت مرة واحدة في القرآن الكريم، ومفردة الجواب وردت (٢٠) مـرة. وقـد أوردنا هذه المفردات من باب الجواز والاطـلاع. إذ رأينا أنّ الحوار يقابله بالجواب حالات كثيرة يمكن أن تكون اسـتجابة، أو ردّاً أو صـمتاً أو إعراضاً. والأشهر الجواب الذي يقطع التحاور ففي سـورة العنكبوت يقول ربنا على لسـان قوم إبراهيم: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** (العنكبوت: ٢٤). أما في سـورة الأعراف فيقول جل جلاله: **﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** (الأعراف: ٨٢). وفي سـورة النمل يقـول ربنا جلّ جلاله: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** (النمل: ٥٦).

التفاوض: مفردة حديثة دخلت مصطلح الحوار مع السياسة والدبلوماسية، وقد طغى في كثير من الأحيان على المفردات الأخرى فصارت عملية التفاوض هي الأساس والمفردات الأخرى صفة لها.

وإذا أردنا الدخول إلى مفهوم الحوار فإنّ هذا يفرض علينا أسئلة كثيرة، يُطلب جوابها. من أهم هذه الأسئلة: ما الحوار؟ ما ميدانه؟ ما أفقه، أو المساحة المسموح بها؟ متى بدأ الحوار؟ ما نقطة البدء به؟ مع من يجب الحوار؟ ما شروطه؟ لماذا الحوار؟ من الحَكَمُ به؟ ما أنواعه؟ ما أدواته؟ ما أسلوبه؟ ما غايته؟ ماذا نريد منه؟ ما هي الآلية لتطبيق الحوار؟ ما هي مادة الحوار؟ ما صفاته؟ من هم المشمولون به؟ من الذي سيقوده أو ينظمه؟ كل هذه الأسئلة مطلوب منّا الإجابة عنها. غير أنّ الفكرة كالإنسان لها مولد فمتى وُلد الحوار؟

ولادة الحوار

تقول الثقافة الغربية: إنّ سقراط أول من أدخل الحوار إلى الحقل الفلسفي فجعل منه الممارسة الوحيدة الممكنة للفكر الفلسفي، ونظر أرسطو إلى الحوار بوصفه جزءاً من المنطق، وأطلق عليه اسم الجدل الذي أصبح منذ ذلك الحين في يد الإنسان أداة لتمييز الحق من الباطل. ونحن نقول: إن أول حالة حوارية بدأت قبل أن يخلق الله آدم. أعني تلك التي أخبرنا ربنا بها والتي قامت بين الله جل جلاله، وبين الملائكة وكانت حالة حوارية إعلامية، وهذه الواقعة تعيّن الولادة الحقيقية للحوار. يقول ربنا جل جلاله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٣٠). فالله جلّ جلاله لم يقل إني خالق في الأرض بشراً، بل قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، وعندما شكّكت الملائكة برقي هذا المخلوق إلى مرتبة الخلافة قالت: ﴿**يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾. سيفسد في الأرض ويسفك الدماء. قال ربنا: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، وبهذا يكون قدّر ربنا جل جلاله صراعاً بين الخلافة وسفك الدماء والإفساد في الأرض، ومن يفسد في الأرض ويسفك الدماء ليس بخليفة ولا يستحق هذه المرتبة.

حدود الحوار

لا حدود للحوار فالله جل جلاله حاور إبليس في أكثر من موضع، وقَبل منه اعتراضه، ثم قبل منه حجاجه عندما قال ربنا جل جلاله: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ**

مّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، ومن ثم طلب مهلة لنفســه فأمهله. هذا الحوار يدلّ على أنه لا يمكن أن يقف الحوار عند حدود معيارية للمتحاورين. إنّ المهلة التــي وافــق عليها ربنا كانت تبيّن لنــا منهجاً تعليمياً فلم يغمط إبليســ حقه في الدفاع عن موقفه، بل أعطاه ما طلب واستزاد فزاده.

الحوار بين المرجعيات

بمــا أننا قدّمنا تعريف الحــوار وولادته وحدوده في الفقرة الأولى فإننا ســنبيّن بين من يكون الحوار، ولأننا نعتقد أنّ الحوار يكون دوماً حول الأفكار وبين طرفين، ولأنه لا يهمنا في دراستنا إن كان الطرفان فردين، أو جماعتين لأنّ حقيقة الحوار تكون بين الأفكار ومن ورائها مرجعياتها فإننا سندخل فوراً إلى حوار المرجعيات.

وبما أنّ المادة اللغوية للحوار «حاور كصارع وقاتل وضارب ونازل» إلخ أي هي حالة ثنائية متقابلة لا تقوم إلا بين طرفين، ولما كنا نرفض مفهوم صــراع الحضــارات لأننا لم نر طرفين للحضــارة الإنسانية. فإننا نرفض أيضاً حوار الحضارات، كما رفضنا صراع الحضارات. فالحضارة الإنسانية حضــارة واحدة أســهم في بنائها أقوام وأجيال وكل منهم وصل إلى مرتبة في عطائه، وكل المفاهيم التــي تنطلق من وجود حضــارات متعددة علــى الكوكب هي مفاهيم خاطئة تبتغي هدم المشــاركة الإنســانية وتفتيتها وصراع الأمم مع بعضها بعضاً انطلاقاً من صراع الحضارات، وقد انساق بعض مفكّرينا وراء المفهوم ورأوا أن يقابلوه في ميدانه فقالوا: حوار الحضارات. ونحن لا نرى هذا حقاً. لذلك اخترنا عنوان الفقرة الحوار بين المرجعيات، كما اخترنا الصراع بين المرجعيات من قبل في مناقشتنا لـ«هنتغتون» ومن سار في جهته لكنّه اختار لنفسه مركبة مختلفة.

ولأننــا نعتقــد أنّ الحوار يمثــل الحالة الديمقراطية الأنضــج إذا ما توافرت الشــروط الموضــوعية للمتحاوريــن، ولأنه الحالة الوحيدة شــبه المفقودة في هذه الأيام التي تضــجّ بجعجعة الحريات وتعميم الديمقراطية يبرز للجميع أنّ الحوار هو المشــهد الأهم الذي من المفروض أن يعلن «الطباع والصــفات، والثقافة، أو نقيضــها» بيــن المتحاورين، وهو حالة العرض الاجتماعية لملكات الإنســان، كما أنّه يمكن أن يكون مقدمة الصــداقة، وبيت الحب، وهو الإعلان والإعلام، وهو وجه الأدب الناقد.

وإذا كانت الديمقراطية الحقيقية هي العطاء، وهي إتاحة الفرصة للجميع استخدام آليات ديمقراطية لتداول الســلطة بالانتخاب الحر، وبتعدّد المرشــحين، وبرفع مستوى وعي الفرد

ليعرف حقه وواجبه، واحترام رأي الأقلية، ومحاولة إيجاد صيغ دائمة تتناسب وتطور الفكر والحفاظ على حقوق الفرد. فإنّ الحوار هو روح الديمقراطية، إذ هو المظهر الديمقراطي الحقيقي لحالة التباين بين الطرفين، ففي الحوار تسطع الدعاية الانتخابية، ويستطيع من يجيد التفكير أن يصرّح ويصدع بتعبيره، ويشرح برنامجه الانتخابي فيعارضه البعض، ويوافقه آخرون ويرجّحه فصيل، ويرفضه آخر، وفي كل الأحوال يعترف بحق الآخر بالاختلاف الذي هو أفضل السبل لتجاوز الخلاف.

لقد ربط الإسلام بين الإيمان بالله، وبين حب الآخر فانتقل الخلق الديمقراطي بكل مكوّناته من الحوار إلى الحرية، بل تخطّاه إلى أبعد من ذلك. تخطّاه إلى خلق الإيثار. وهنا تكتسي الديمقراطية عباءة أخلاقية اجتماعية سياسية اقتصادية حياتية كاملة.

وإذا ما علمنا أنّ الإسلام بمعناه السلام، والإنسان توءم خُلقا معاً منذ أن خلق الله آدم وكلّفه بالتوحيد، وطلب إليه العمل بمقتضيات أوامره؛ فلا توجد لحظة تاريخية واحدة تفصل وجود الإسلام عن وجود الإنسان العاقل الفاعل المحبّ. أيقنا أنّ الإنسان الذي ارتقى في مراتب إنسانيته على مساحة الكوكب من الهند إلى أواسط القارة الإفريقية إلى الدول الاسكندنافية مروراً بآسيا الصغرى وأوروبا والعالم الجديد ينحو في فطرته منحى السمو والحرية والسلام للجميع، غير أنّ التاريخ يؤكد أنّ الإسلام لما جاء بهويته العربية فاضت أنهار الفكر العربي الإسلامي على كل الأمم التي عندما تقف مع ذاتها تدين للعرب بطريقة التفكير والريادة، وخاصة في الفكر التجريدي (الرقم، الحرف، الهندسة، الفلك الطب، والبيان)، فكيف جاءت هذه العلوم بغير الاستقرار والحرية والحوار؟! ويبيّن د. إبراهيم فاضل ذلك في مقاله إذْ يقول: «الذي يدرس فكر صارغوث الآكادي في الألف الخامسة قبل الكهرباء يعرف صدق ما نقول، والذي يدرس قوانين «حمورابي» في الألف الرابعة قبل الكهرباء، وإنسانية إخناتون الذي تجرأ على إنكار الأنا في الألف الرابعة. يعرف أن الأمة صاحبة الفضل الأول في تعميم العلم والفضيلة»[٣].

هذا الكلام يؤكد لنا أهمية الفكر العربي القديم، وإن أهمية الأسماء المذكورة تبيّن أن الفكر جاء عندنا من أعلى الهرم، وعُمّم على الأمة، وقد نجحت لأنها طبّقت قوانين حمورابي ووحدانية إخناتون بناء على ما وصل إليه أولئك الأفذاذ بأقل الخسائر عندما فسحت ميادين الحرية، وقيدت الظلم، ومنعت المتنفذين من الاستيلاء على حقوق الآخرين، فكما أنارت

الكهرباء ليل المدنية المعاصرة استطاع الفكر الإنساني إنارة العقول وتنظيم العلاقة بين الحق والواجب، وهنا نستنتج أنّ الحوار كان الأداة الأهم التي عمّمت هذه المساهمات. فما هو الحوار؟

سلوك الحوار وآدابه

من أساسيات الحوار سعة الصدر، وطيب الكلمة، ودماثة خلق التواصل: يقول ربنا جل جلاله: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥).

ويقول عليه الصلاة والسلام «وخالِقَ الناسَ بخُلُقٍ حَسَن». هذا حوار الحق وهذه الروح هي التي يجب أن يمتلكها الذي يدعو بالحق إلى سبيل الله. أمّا في الجملة الثانية، وجادلهم بالتي هي أحسن يضعها ربنا جلّ جلاله فاصلة بين الحق ونقيضه؛ لأن المجادلة تكون بين اتجاهين يسيران إلى هدفين ليسا متوافقين؛ لذلك أوردها ربنا بعد أن طالب الداعي إليه أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفي مكان آخر: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصلت: ٣٤).

وحتى ندرك الصورة تماماً نذكر كيف وجَّه اللهُ موسى إلى فرعون بطريقة حوارية بيّن له الأسلوب الذي يجب أن يتبعه في الحوار. فقال ربنا: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾(طه: ٤٤).

وقد حذّر الإسلام من طغيان الأسلوب السلس على الحق. فجاء حديث رسول الله محذراً من أن يضيع الحق في سلاسة الأسلوب. فقال صلى الله عليه وسلم ما معناه: قد يكون أحدهم ألحن بحجته فأقضي له من حق أخيه. فلا يأخذه. إذن الضابط في المعيارية الإيمانية والإخلاص أن لا يأخذه، والاعتماد على الإيمان هنا يشكّل الوازع الأهم في الحفاظ على الحقوق، وإنّ حكم له الحاكم وإنّ كان الحاكم رسول الله.

وقد لخص لنا الراغب الأصفهاني في كتاب محاضرات الأدباء المطلوب في كل الحوارات، الهدوء وعدم الفوضى. فقال جامعاً آداب المناظرة: «اجتمع متكلمان فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ قال الثاني: «على شرائط أن لا تغضب، ولا تشغب، ولا تعجب، ولا تحكم، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوّز لنفسك أن تؤوّل آية على

مذهبك إلا جوّزت لي بمثلها، وعلى أن تؤثر التصــادق وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منّا يبني مناظرته على أن الحق ضالّته والرشد غايته»(٤).

صفات الحوار

الحــوار كلمة بل هو كتاب فعلي لم نقرأه بعــد، أو بالأحرى لم تقرأه بعض العيون العربية حتى الآن. لقد عشنا طَوَال القرن العشرين، ونحن نقرأ بعين واحدة ونتكئ على عصا واحدة، ونمشي برجل واحدة، في وقت كان من المفترض أن نكون مالكين كغيرنا عيوناً ناظرة وسمعاً واعياً، كما نمتلك إرثاً فكرياً حضــارياً مهماً خاصــة أنَّ الأمة كانت تتململ لتستيقظ ناهضة تعيد كتابة مســيرتها بإرادتها إلا أننا أخفقنا في ذلك تماماً لأننا لم نُصغِ للغة العقل والحوار ولم نعتمد الديمقراطية كحالة إنســانية للتداول الإنساني للسلطة، بل لم نمارس الحوار، ولم نتعلمه في معظم حقب تاريخنا القديم والحديث. وحتى في ما سُــمي بعصر النهضة وصدور مشاريع سياسية كانت تتضمن الكثير من الآمال والرؤى النهضوية التي لم نستفد منها.

وبما أنّ الحوار مبدأ أو اســم لحالة تقوم بين فريقين يمكن أن نعطيه صــفة المتحاورين فنصــفه بحوار حضاري إذا كان طرفا الحوار حضــاريين معترفين بوجود بعضهما، وتقديم الحجّة مقابل الحجّة والبرهان بمواجهة البرهان لإثبات وجهات النظر وإظهار الخطأ، وتحديد نقطة السواء، لا أن يقدم كل منهما على الحوار وهو ينوي إلغاء الآخر أو تدميره أو إلحاقه به، كما ينبغي أن تكون غاية المحاورة الاتفاق على أي السبل الأقصر والأكثر سلامة للوصول إلى الحق، أو عدم الاختلاف وإلحاق الضرر من أحدهما بالآخر من جراء اختياره سبل الوصول، وعلى المتحاورين المحافظة على هذه الروح والسوية التي تضمن الاستمرار بالحوار لتحقيق الغاية منه، وهذا يرجعنا إلى مقام الحوار ومقاله وظروفه التي تُســمَّى الأرضية الأولى، وإلى الحالة النفسية عند المحاوِر والمحاوَر.

أنـواع الحوار

١- **الحوار الذاتي:** وهو أهم أنواع الحوار وأوله ويتجســد فيما يقوم به الإنســان مع ذاته لمعرفتها، وتعميق التفكير السليم بالتأمل والتفكير الواعي، والمصالحة معها.

٢- **الحوار البيني:** وهو ما يقوم بين المرء وأخيه. يقول إبراهيم محمود في كتابه البنيوية: «الاعتراف بالآخر يقوم على فكرة أساسية وهي: (إن الاختلاف تواصل، وإن الآخر الذي يرى

فيه النقيض ليس سوى المكمل الذي يمنح الآخر حقيقة الإنسان، وهي أن الإنسان تشابه في الاختلاف، واختلاف في تشابه الحقيقة، ولأن الحقيقة لا ينتجها رجل واحد، وإنما هي نتاج جماعي عبر اتكائها على مجموعة اختلافاتهم البنَّاءة)[٥]. ولما كانت أهم وظائف الحوار التعارف وكسر حواجز الجهل المتبادل وإضاءة الجوانب المظلمة، وتعميق عوامل المعرفة المباشرة والتفصيلية بالآخر حتى يتوفر المناخ النفسي والمعرفي والاجتماعي للعلاقة مع الأطراف الأخرى. فضلاً عن الوظيفة الأخرى والتي لا نراها تقلّ أهمية عن الأولى، وتتمثل في تحطيم هواجسنا ومخاوفنا من الآخرين، ومحاصرة سوء الفهم وسوء الظن وكل موروثات الماضي، وبذلك تتبلور الثقة المتبادلة. فالحوار البيني يمكن أن نوصِّفه بأنه بين متحاورين اتفقا على الغاية واتفقا على الطريق وعلى المركبة ولم يتفقا على قيادتها.

٣ - **حوار النظير**: وهو مأخوذ من كلام الإمام علي كرّم الله وجهه (الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)، والنظير المحاور هنا هو الذي سلك سبيل الوصول إلى الغاية الإنسانية بطريق خاصة به. غير أننا لا نعيب عليه غايته. فالحوار ينحصر في سبل الوصول إلى الغاية وأعني غاية وصول الإنسان إلى إنسانيته، وهو يبحث عن السبل الاجتهادية المؤدية إلى نقطة السواء بين الحضارات التي تتطلع إلى المثل الأعلى الحق، ونستطيع أن نصف هذا الحوار بالحوار التنافسي.

٤- **حوار النقيض**: وهو مختلف عن الحوار الحضاري، إذ النقيض نقيضان نقيض بين حق وباطل، ونقيض بين باطلين تتحكم به الأنانية والشهوة فردية كانت أو جماعية.

٥- **الحوار الإعلامي**: وهو الحوار الذي قدمناه في حديثنا عن مدلول الآية الكريمة الحواري. يقول ربنا جل جلاله: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** (البقرة:٣٠). لقد كانت غاية الحوار الذي أحدثه الله بينه وبين الملائكة غاية إعلامية. أراد ربّنا أن يعلم الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة.

٦- **الحوار الجدلي**: يقول الباحث د. عبود العسكري: «الجدل من المِجْدَل وهو القصر. ويمكن اشتقاقه من الأَجْدَل وهو الصقر. وكأن كل من المجادلين يريد أن يسطو على صاحبه»[٦]. وهذا الحوار ليس له هدف إلا قتل الزمن لعدم وجود اتفاق ووفاق إلى النهاية، وهو مقدمة سريعة للصراع. وكل مجادل، إما أن يرى الآخر على خطأ، أو أنه يجادله وهو

طامع به ويكتم الحق. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يلقَ من كفار قريش إلا الجدل طوال مُدَّة الدعوة في مكة المكرّمة فمنهم من رأى أنّ رسول الله على باطل، وجاء ليغير له دينه، ومنهم من يرى أنه جاء قاصداً الزعامة، ومنهم من أقر بما جاء به جهرة أو في سره، ولكنه لم يتّبعه تكبّراً وصلفاً وجادله، وكذلك حدث بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران الذين كانوا يعلمون الحق، وأنكروه وقامت المجادلة إلى حدّ المباهلة والملاعنة، وقد سجّل لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** (آل عمران:٦١). وقد ورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المِرَاء)[٧].

وقد جاء في تفسير (حاجّك) في هذا الموقع عند القرطبي: جادلك وخاصمك. وللتوضيح أقول: حضرت مرة محاضرة ثقافية فقال المحاضر: (لقد صدّر هيتنغتون كتاباً كاملاً بيّن فيه صراع الحضارات، وقدم الدكتور محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران للأمم المتحدة اقتراحاً باعتبار عام (٢٠٠١م) عام حوار الحضارات يحاول الردّ به على صراع الحضارات. وأُقيمت مؤتمرات فكرية كثيرة لهذا السبب، وقال المحاضر إنه حضر كثيراً منها واقترح مفهوماً بديلاً عن الصراع والحوار هو مفهوم جَدَل الحضارات).

وقد استغربت طرح المحاضر لأنني، ومن خلال المفهوم اللغوي للجَدَل فهمت أنه مقدمة للصراع؛ ففي المعجم، وفي أهم المعاني المقدمة جَادَل: عَاكَظَ وخَاصَمَ، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى في سورة النحل يقول ربنا جل وعلا: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** (النحل:١١١).

وقد جاء عند البغوي في تفسير الآية تخاصم وتحتج وتدافع عن نفسها بما أسلفت من خير وشر. وعن ابن عباس: (ما تزال الخصومةُ بين الناس يومَ القيامة حتى تُخاصِمَ الروحُ الجسد)[٨].

فالجدل إذاً مفهوم يكرس الصراع أو يؤدي إليه لكنه في مرتبة أدنى منه وهو مفهوم مدان في الخطاب القرآني فبيان ربنا جل جلاله جاء آمراً بتجنب الجدل أثناء القيام بالعبادة الحياتية قال تعالى: **﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** (البقرة:١٩٧).

وقـد فهمنا مـن الخطاب القرآني أنّ الترتيب تصاعديٌّ من الجدل إلى الفسوق، ومن ثم ستأتي مرتبة الصراع. لذلك رأينا أنّ صاحبنا المحاضر أخطأ في اجتهاده عندما جاء بمفردة الجدل بين الحضارات بديلة عن الحوار والصراع، ناهيك عن اتفاقه مع هينتنغتون على أمرين، الإقرار بوجود حضارات والإقرار بوجود حالة من الصراع، ولو أنها كامنة عند صاحبنا، ولا أدري لماذا بدأت المعركة تأخذ هذا المنحى، وكأننا في خلاف مع المفهوم، وليس مع المنهج ذاته. فقد صدرت الأفكار جميعها وبدت مسلمة بوجود حضارات، وبدأت الدراسات تنطلق نحو صياغة المفاهيم التي توضح العلاقة بين الحضارات والعمل بينها، ولعلي أقول: حتى الحوار ليس وصفاً لحالة تقوم بين الحضارات نوافق على استخدامها. لأننا رأينا أنّ الحضارة على الأرض حضارة واحدة، وهذا الرأي يعيد ترتيب المسمَّيات كلها من الحوار إلى الصراع إلى الجدل. وقد رأينا في الجدل أكثر المفاهيم إدانة لأنه ينطلق من خلاف المعلمين على حد رأيهم، أو من الخلاف النظري الذي لا يقدم أي خدمة للعلم أو للمجتمع. لأن الخدمة الحقيقية تكمن في السلوك الذي يقدمه العالم، والعلم بدون سلوك (جدل من أجل الجدل بلا نتيجة). فالفرق كبير إذاً بين الحوار والجدل.

٧- **حوار الاستكشاف**: وهو الأسلوب الذي تستخدمه دوائر المخابرات وخاصة الغربية منها عن طريق بعض علماء النفس لوضع برامج مستقبلية للمنطقة المراد السيطرة عليها بعد دراسة معمقة لطريقة التفكير الموجودة، وأفضل السبل التي توجِّهها إلى النقطة التي تريدها هذه الدوائر.

٨ – **حوار الطرشان**: في هذا الحوار لا يوجد جدلٌ، وليس هناك نية في التسلط، ولكن هناك غباء وصلف وتطرف وخير ما يمثل هذا الحوار المثل الدارج (كلٌّ يغني على ليلاه).

بقي السؤال الدائم. من أين يبدأ الحوار؟ يبدأ الحوار من لحظة الشعور بالحاجة إليه، والحوار يبدأ بالتساؤل والعرض ويتلقى الاستجابة، أو الاعتراض أو الإعراض أو الصمت أو الإقرار.

قواعد الحوار

إذا كان للحوار أشكاله التي نعرفها من مادتها كالحوار التفاوضي، أو حوار المثاقفة، أو الحوار الاقتصادي، أو حوار المباحثات السياسية الذي يعني أنّ العمل الدبلوماسي شكل من أهم أشكال الحوار. فإن للحوار قواعده أيضاً، ومن أهم قواعده وأعمّها:

- التخلّص تماماً من روح التعصّب والتقلّب والالتزام الشديد بالمبادئ والإيديولوجيات أيّ على المتفاوضين أن يكونوا عمليِّين ومرنين.

- ضـــرورة تحديد الأهداف وما يؤازرها من قوة، والأخذ في الحسبان مصالح واتجاهات الدول الأخرى إذا كانت المباحثات بين الدول، والعمل على إنجاح الحوار ولو بالوصـــول إلى حل وسط.

- توفر الرغبة الصادقة في الارتقاء والسمو وحمل المشروع الحضاري في الحوار، وذلك باعتماد أسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبتقديم الأدلة بالتي هي أحسن، والحكمة في معناها المختصـــر وضع الشيء في نصـــابه وفي وقته المناسب، والموعظة الحسنة تعني قوة الحجة الفاعلة المؤثرة.

وقد قرأت رأياً قدّمه الســـيد عليوة أبرز فيه نقاطـــاً أوجب على المفاوض أن يتحلّى بها، ولأنني رأيت أن المفاوضات الدبلوماسية صورة تامة للحوار أردت أن أوردها، وهي:

- ضرورة تنازل المفاوض عن حقوقه الثانوية.

- تلافي التورّط في مركز لا يمكن التراجع عنه.

- عدم السماح للحليف الضعيف بأن يصنع لنا قراراتنا.

- اعتبار القوات المسلحة أداة للسياسة الخارجية.

- الحكومة هي قائدة الرأي العام وليست تابعة له.

وقد ســـمّى هذه النقاط بالقواعد الذهبية للمفاوضـــات الدبلوماســـية وقال إنّ القاعدة الأساسية تتكوّن من عنصرين: المصالح المشتركة- والقضايا المتنازع عليها)[٩].

شروط الحوار

١- **النِّديّة بين طرفي الحوار:** من أهم شـــروط الحوار، والنديّة شـــعور يجب أن يتوفر في الطرفيـــن، وهي تعني عدم الانبهار وعدم الإحســـاس بالدونية، أو بالفوقية لأي من الأطراف وعـــدم التلويح بالقوة من أحدهما للآخـــر وإنّ كان يمتلكها فيجب أن تكون القوة محايدة في حالة الحوار. وعلى مسيرة التاريخ كان استخدام أحد الأطراف لعنصر القوة وممارسة فرض أفـــكاره على الآخرين خســـارة للطرف الممارس لهذه الخاصـــية وإنّ ظهـــر مؤقّتاً للعيان أنه المنتصـــر، وهذا ما حصل مع الفكر المعتزلي الذي حاول بعض الأمراء تعميمه على الرعية

فكانت النتيجة تراجع هذا الفكر على الساحة الإسلامية كاملة بعد أن خَطَا خطوات مهمة في مجال الرؤية الفكرية الواعدة، لكنه باعتماده على السلطة الزمانية لتعميم وجهة نظره باء بالفشل، وأدى ذلك به إلى التراجع والانسحاب من الساحة الحقيقية، وخسارة الأمة تجربة فكرية كانت واعدة بانطلاقتها التي عرفها التاريخ مبكراً، لكنّ الأمور انقلبت ظهراً على عقب على عكس ما أمل مناصروها، ولو أنهم استخدموا الأسلوب الحواري الحقيقي والقاعدة الحوارية الحقيقية التي تضمن انتصار الفكر الأكثر انفتاحاً وفهماً لأنتجوا فكراً اجتهادياً خلّاقاً يتناسب وتطور الحياة.

٢- **ترسيخ القناعة لدى كل فريق محاور أنّ الآخر يكمله، وليس عدواً له:** يقول ربنا جل جلاله: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (سبأ:٢٤).

يقول غارودي: (لقد حدث في التاريخ أن حوار الحضارات ليس بجائز إلا إذا اعتبرتُ الإنسانَ الآخر والثقافة الأخرى جزءاً من ذاتي، ويعمر كياني، ويكشف لي عما يعوزني)[١٠] وإذا كان لنا تعليق على ما جاء عند غارودي نقول: إننا نوافق غارودي فيما ذهب إليه بعد استبدال تركيب حوار الحضارات بالحوار الحضاري.

عيوب الحوار

من أهم عيوب الحوار:

١- رد الفعل السريع الذي يأتي من الغضب.

٢- ردّ الفعل المتأخر.

٣- القفز إلى النتائج مباشرة.

٤- عدم التقيد بمنهجية واضحة.

ونختتم بأن الحوار الإنساني لا يمكن أن يتحول إلى مقاتلة، والاختلاف في الرأي دليل صحة وحيوية، والحوار الحقيقي هو الذي يخرج منه الجميع منتصرين لأنهم صاروا أكثر فهماً لذاتهم وللآخر المواجه؛ فالاختلاف الذي يبحث عن حلول، ويصقل القدرات يغني الفكر ويثريه عملاً بمقولة: (اختلاف الأئمة رحمة).

غاية الحوار

ما قدّمناه عن الحوار حتى الآن يدخل في تعريفه ووصفه وشروطه وعيوبه وآليات فعله، غير أننا إذا أردنا أن نحدّد الغاية من الحوار فإننا يمكن أن نلخص ذلك بكلمتين: الغاية من الحوار أن نشعر بإنسانيتنا، ونحافظ عليها فإذا كان الحوار محاولة لكشف الغطاء عن المشتركات بين طرفين، فإن القاعدة المشتركة التي يجب أن يقف عليها الطرفان هي قبول أحدهما بوجود الآخر، والاعتراف له بحقه في رأي مغاير. كما أنّ من حق كل منهما محاولة كسب موقف محاوره إلى جانبه في موقفه من مادة الحوار وتخلّيه عن فكرته ولكن ليس من حقّه أن يفرض ذلك فرضاً، ولا أن يقود الحوار إلى القطيعة مهما كانت النتائج. وإن نجاح الحوار يتناسب مع قدرة المتحاورين على فهم الغاية منه، وإنّ من يرى فشل الحوار في عدم وصوله إلى نقطة واحدة يكون ساذجاً. فالأمر ليس بهذا التصوّر (إما معي أو معك)، وإنما هناك نقاط أخرى كثيرة علينا البحث عنها والقبول بها. وأعني (نقطة سواء، أو البحث عن المشترك وفيه، أو أنّ أقصى ما يمكن أن يحدث: «لكم دينكم ولي دين». بعد أن يقدّم كل طرف حججه. وبذلك نكون قد وصلنا إلى الحالة الحضارية الأهم، والتي تتمثل في الاعتراف للآخر بحرية التفكير وحرية التعبير، وقبوله كما هو آخراً، وأنّ أفكر في رأيه بجدية انطلاقاً من إمكانية أن يكون صواباً.

الخاتمة

نقول: إذا كان الحوار سمة إنسانية وإن إنسانية الإنسان أو المجتمع الإنساني تتناسب طرداً مع اتساع مساحة الحوار بين حملة الأفكار غير المتطابقة أو المتوافقة. فمتى غاب الحوار أو غُيّب كان الأمر يستدعي النظر في إنسانية المجتمع الذي غاب عنده الحوار، وإذا كان الحوار روح الديمقراطية فعلينا أن نحافظ عليها حيّة بالحوار، وأن ننطلق من أهم مقولتين خلدتا في هذا المجال، قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: (قولي صحيح يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصحة). وقول غاندي الذي يُرجعه بعضهم لفولتير، وهذا ليس مهماً لكنّ المهم استخلاص العبرة من المعنى. تقول الفكرة: أقول رأيي وأدافع عنه بكل ما أوتيت، ولكني أقدّم حياتي ثمناً لأن تبقى حيّاً وتقول ما تريد.

المراجع

- لسان العرب: ابن منظور، مادة حور، طباعة دار صادر، بيروت، (د. ت).
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: فيوجل، ترجمة: فؤاد عبد الباقي، طباعة دار الحديث، القاهرة.
- الدكتور إبراهيم فاضل: مقال في جريدة تشرين السورية بعنوان مدينة أوزيس، الأحد (١٠/ ٩/ ٢٠٠٠م).
- الراغب الأصفهاني محاضرات الأدباء، الجزء الثاني.
- إبراهيم محمود: البنيوية و تجلياتها في الفكر العربي المعاصر، دار الينابيع، ط١، ١٩٩٤م.
- نهج البلاغة المنسوب للإمام علي كرم الله وجهه، تحقيق: محمد عبده، رسالة لمالك الأشتر.
- الدكتور عبود العسكري: محاضرة في مركز ثقافي إدلب بعنوان الحوار.
- البغوي: تفسير القرآن الكريم، تفسير آية يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.
- السيد عليوة: مهارات التفاوض، الأردن، عمان.

الهوامش

١- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، «مادة حور»، (د. ت).

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: فصل حور.

٣- الدكتور إبراهيم فاضل: مقال في جريدة تشرين السوريّة بعنوان مدينة أوزيس، الأحد (١٠/ ٩/ ٢٠٠٠م).

٤- الراغب الأصفهاني، في كتابه محاضرات الأدباء.

٥- إبراهيم محمود: البنيوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر، دار الينابيع، ط١، ١٩٩٤م.

٦- الدكتور عبود العسكري: محاضرة في مركز ثقافي إدلب بعنوان الحوار الموسم الثقافي، محاضرة بتاريخ (٢٠/١١/ ٢٠٠٦م).

٧- حديث شريف: سنن أبي داوود، كتاب الأدب، حسن الخلق، رقم (٤٨٠٠)، حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

٨- تفسير البغوي: تفسير الآية (١١١) من سورة النحل.

٩- مهارات التفاوض: السيد عليوة.

١٠- ندوة بعنوان كيف ندخل سنة حوار الحضارات: أقامتها المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق، في الشهر الحادي عشر لعام (٢٠٠٠م)، والمنشورة من قبل المستشارية الثقافية الإيرانية، مقالة للبروفيسور دومينيك ماليه مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق.

أثر العُقدة اليهودية على التراث المخطوط في فلسطين

«التراثُ المُحاصر والمُستولى عليه!»

د.بغداد عبد المنعم

تأثر «التراث المخطوط» في فلسطين بإشكالاتٍ عميقة قديمةٍ وجديدة بآن معاً. فثمة أمران ما زالا مستمرين وجدليين فيما بينهما فوق أرضها إلى هذا اليوم. الأمر الأول، هو الحملات الصليبية وكون القدس الهدف المرسوم والمعلن لهذه الحروب. أمَّا الأمر الثاني فيشكل نتيجة غير عادية لتلك الحروب أوقعتْ في النهاية «التراثَ المخطوط» في قبضة الكيان الصهيوني. حين تمَكَّنَ الغربُ -وهو في أوج قوته- من أنْ يُنهي نتائج الحربين العالميتين مخلِّفاً «دولة الكيان الصهيوني» على الجزء الفلسطيني من الجغرافية العربية.

وعلى الرغم من المدى الزمني الذي يفصل بين الحملة الصليبية الأولى في نهاية القرن الخامس الهجري، نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وبين قيام الدولة الصهيونية في أواسط القرن الماضي، فإنَّ الآثار التي ألمَّت بالذخيرة الفلسطينية من المخطوطات كانت بسبب هذين الحدثين ونتائجهما.

لن يكون البحثُ عن أثر الحرب على «التراث المخطوط» في فلسطين بحثاً عادياً، أو قراءةً في لحظة الحرب التي انقضَتْ، إذ إنَّ فلسطين ما زالت ومنذ ما قبل (١٩٤٨م) بسنوات طويلة في حالة حرب مباشرة وغير مباشرة، والحرب بمستوييها السابقين نالت من هذا التراث نيلاً أكيداً. فالحروب والمعارك المباشرة إبان عام (١٩٤٨م) دمَّرت وتركت خزائن المخطوطات بين أيدي الصهاينة، تعاملوا معها سرقةً ونهباً وبيعاً. في المستوى غير المباشر،

يستـــمر الصـــهاينة في محاولات البحث عما يثبت حقهم في المـــكان والزمان، يبحثون عن مخطوطات تَذْكُرُهم، تذكر ما يمكن أن يكون مدينةً لهم.. أو أرضاً! وتلك قرصنة فكرية دائبة لها أيدٍ جريئة من اللصوصيّة المباشرة. «والوقائع كثيرة في الاعتداء الإسرائيلي على التراث الثقافي العربي سواءً في تشويه هذا التراث وطمسه وانتحاله، أو في ممارسة التنقيب الأثري والبحث غير المشـــروع في المواقع الأثرية لنهبها وطمس معالمها وتشـــويه مدلولاتها، أو في الاســـتيلاء على مخطوطات ووثائق لها شـــهرة عالمية كمخطوطات البحر الميت ووثائق دير سانت كاترين، ومخطوطات المكتبات الخاصة داخل الأراضي المحتلة. والعدو يستخدم هذه الوثائق والمخطوطات بطريقة خاصة ليستفيد منها في دعم ادعاءاته»[1].

إعادة تشكيل خزائن القدس بُعيد معركة حطين

يُشـــكلُ هذا التاريخُ (٥٨٣هـ- ١١٨٧م) مبدأً زمنياً فائق الأهمية في منطقة المشـــرق العربي كلها، وفي قلبها الفلســـطيني على نحو أشـــد كثافةً. ولئن بقيت منطقة المشرق العربي وعواصم تراثها المخطوط منطقةً ســـاخنة ومضـــطربة على نحو يكاد أن يكون دائماً، فإن فلسطين كانت الأوفر حظاً بعدد الحروب والمعارك التي كانت تتناهى فوق أرضـــها احتلالاً أو انتصـــاراً. ولئن كان التاريخ المذكور أعلاه هو تاريخ انتصار وتحرير إثر معركة حطين، فإنَّ صراعاتٍ وتناقضات جديدة حُلَّتْ فوق أرضها متوَّجَةً باعتراف دولي وأممي بدولة «الكيان الصهيوني» التي سرعان ما احتلت خزائن التراث المخطوط في المدن الفلسطينية ففتحَتْها وانتهبَتْها بشراهة وشراسة. لم تبقَ المخطوطات المسروقة فوق أرض فلسطين دوماً، بل وجدتْ سبيلَهَا إلى تلك الجمعيات اليهودية المترصدة في أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا لتتلقف ما يصل إليها من هذه المخطوطات.

إنَّ الاجتياحات والحملات والحروب التاريخية «المغول والتتار والصليبيون» التي عرفتها المنطقة، كثَّفَتْ وجودَها في فلســـطين وتمَّ إنهاؤها فوق أرضها، وأُعيد بُعيد الانتصار تشكيل خزائن التراث المخطوط للحرم القدسي.

من بين المعاني غير التقليدية للحرب، أنها حركة عنيفة تُعيدُ التوازن، غالباً ما يتلوها إعادة بناء الشخصية القومية ومكونات الهوية الثقافية. حين دخل صلاح الدين مدينة القدس مُنهياً مئةَ سنة مـــن احتلالها ومن إزالة تكويناتها الثقافية العربية، فإنَّ معركتَهُ المهمة الداخلية تمثلتْ في إعادة بناء المؤسسات الثقافية وإعادة تكوين خزائن المخطوطات التابعة لمدارسها وزواياها ومساجدها بعد أن تمَّ إحراقها من الحملات الصـــليبية المتوالية. لم تقتصـــر عمليـــة إعادة تكوين المكتبات

وخزائن مخطوطاتها على مدينة القدس بل تعدَّتها إلى مدن المنطقة مثل حلب ودمشق. «استهل صلاح الدين عهده في فلسطين بعملين جليلين هما: إنشاء المدارس والعمل على تزويد المسجد الأقصى بالمخطوطات الدينية والعلمية. فقد عمد إلى تحويل الدار التي بناها فرسان المنظمة الصليبية المسماة «الإسبتارية» إلى مدرسة كبرى «هي المدرسة الصلاحية» يُدرسُ فيها الفقه الشافعي»[٢]، ويمكن أن نلاحظ أن ما أراد فعله صلاح الدين هو إعادة تعريف للأمكنة والتكوينات المقدسية، وخلق وظيفة جديدة لها بعد أن جرتْ محاولةُ تحميلها بوظائف وسمات خلعتْ قلبَها ودماغَهَا الأصليين، فحوَّل الإسبتارية إلى المدرسة الصلاحية وأوقف عليها أوقافاً منها الأسواق الثلاثة المتحاذية المعروفة اليوم بسوق العطارين واللحامين والصيَّاغ[٣]. بمتابعة هذا الأمر في المصادر التاريخية نجد العماد الأصفهاني يقول «فاوض السلطان جلساءه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للعلماء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بـ «صند حنة» عند باب الأسباط وعيّنَ دار البطرك للرباط ووقف عليهما وقوفاً»[٤] هكذا قام الأيوبيون بـ«إعادة إعمار» للمدينة المخربة و«إعادة بناء» لشخصيتها الثقافية، وبدأت عملية التزويد بالمخطوطات للمؤسسات التي بدؤوا بإنشائها. «إنَّ السلطان صلاح الدين أمر بهدم البناء الذي أقامه الصليبيون في الصخرة وأعادها كما كانت ورتب لها إماماً حسن القراءة ووقف عليها داراً وأرضاً وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات شريفة»[٥].

استمرت خزائن المخطوطات بالنمو في الفترة الأيوبية، ففي عهد الملك المعظم عيسى بن أحمد بن أيوب تم تجديد بناء المدرسة الناصرية «الغزالية»[٦] وجعلها زاويةً لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها في جملتها «إصلاح المنطق» لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت وهو بخط الإمام النحوي ابن الخشاب. على ظهر إحدى كراسات المخطوط وقف مؤرخ في «التاسع من ذي الحجة سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م»[٧].

وقد أُنشِئَ في الفترة الأيوبية والمملوكية عددٌ كبيرٌ من المدارس كان لها خزائنها من المخطوطات «المدرسة الميمونية- المدرسة الدوادارية - المدرسة السلامية- المدرسة الكريمية - المدرسة الجاولية- المدرسة التنكزية- المدرسة الأمينية- المدرسة الملكية- المدرسة الفارسية- المدرسة والتربة الأرغونية- المدرسة الطشتمرية- المدرسة المنجكية- المدرسة الطازية- المدرسة الشيخونية- دار القرآن السلامية- المدرسة الأسعردية- المدرسة اللؤلؤية - المدرسة البلدية- المدرسة الخاتونية- التربة والمدرسة الطشتمرية- المدرسة البارودية- المدرسة الجهاركسية) وكلها من الحقبة الأيوبية. ومن الحقبة المملوكية (المدرسة الصبيبية- المدرسة الكاملية- المدرسة

الباســطية- المدرسة الطولونية- المدرســة الغادرية- المدرسة الحســنية- المدرسة العثمانية- المدرسة الجوهرية- المدرسة المزهرية- المدرسة الأشرفية- دار الخطابة».

إنَّ هذا العدد الكبير من المدارس خلال القرون الســابع والثامن والتاسع للهجرة، تدل على أن القدس أضــحتْ مركزاً كبيراً للثقافة الإســلامية، واســتقطبتْ عدداً كبيراً من كبار العلماء والأعلام، وأنتجت عدداً كبيراً من المخطوطات تأليفاً ونسخاً وتجميعاً ممّا يشكل قاعدة عميقة وواسعة من الكتب والمراجع «المخطوطات» رفَدَتْ هذه الكثافةَ من المؤسسات الثقافية.

خزائن «التراث المخطوط» في فلسطين قبيل النكبة

كان في فلسطين قبيل النكبة خزائن مخطوطات عامة وخاصة كثيرة.

أشــهر الخزائن العامة خزانة المسجد الأقصى في القدس. يدلُّ فهرسها على أنها تحوي مخطوطــات دينية قُدر عددها بألف مخطوط مثل المصــاحف والرَّبْعَات نُســخَ أكثرُها في العصــرين المملوكي والعثماني. في الخزانة أيضاً مخطوطات متفرقة في الأدب والفقه على المذاهب الأربعة والتفسير والحديث. وثمة مخطوطات نادرة أشارت إليها فهارس الخزانة.

أمّا خزائن الكتب الخاصة فكثيرة يتجاوز عددها العشرين موزعة بين المدن الفلسطينية. وراء كل خزانة من هذه الخزائن تاريخٌ من الوقفيات وذخيرةٌ من نوادر المخطوطات، وحوادثُ ســجلتْ تنقلاتِها من مــكان إلى مكان داخل هذه المدينة أو تلك. لكن -لا شــكَ- ثمة تاريخٌ مشترك بين هذه الخزائن جميعها هو نهبها من الصهاينة. فخزانة آل الخليلي المقدسية كان قد وقفها الشــيخ محمــد بن محمد الخليلي مفتي الشــافعية (ت١١٤٧هـ-١٧٣٤م). يقال إن الشيخ الخليلي أول من حقق فكرة إيجاد مكتبة عامة في القدس استناداً إلى وقفية كتبه، وقد آلت مخطوطاتُ الخزانة إلى المدرسة البلدية بباب السلسلة.

كان في خزانة «عبد الله مخلص» في القدس في حي الشيخ جراح نفائس المخطوطات، ما لبثتْ أنْ نُقلت بعد حوادث عام (١٩٤٨م) إلى بعض الأديرة التي تقع قرب سور المدينة من الداخل، وقيل إن الصهيونيين نهبوها إبان معارك (١٩٤٨م).

في خزانة آل قطّينة في القدس بباب العمود مخطوطات نفيســة في الرياضيات والفلك والتنجيم، لم يبق منها اليوم شيء. وخزانة «محمود اللحام» في ضاحية سلوان (شرقي القدس) كان فيها أربعة آلاف مصــنف. وخزانة آل فخري وقفها القاضــي «فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل» ناظر الجيوش الإسلامية المتوفى سنة (٧٣٢هـ-١٣٣٢م). هذه الخزانة قسمٌ

مـن الخانقاه الفخرية المجـاورة لجامع المغاربة. يقال إنها كانت تحتوي على عشـرة آلاف مجلد اقتسمها أفراد الأسرة فتفرقت كتبها.

تتمتع فلسطين والقدس -بوصفها مركزاً تاريخياً للديانة المسيحية- بوضع ديني خاص أدى إلى نشـوء علاقة غير عادية للغرب بها، أحياناً تكون هـذه العلاقة طبيعية، وفي أحيان أخرى تكون غير ذلك. نتيجة ذلك تشـكلت في فلسـطين خزائن عديدة لمخطوطات عربية وأجنبية أكثرها تابع للطوائف الدينية والبعثات الأثرية والتبشـيرية الفرنسـية والإنكليزية والأمريكية، ومنها: «خزانة دير الكرمليين، مكتبة القبر المقدس، مكتبة دير الروم، مكتبة دير الأرمن...».

الخزانتان: الخالدية والظاهرية

تُعـد خزانـةُ المكتبة الخالدية في القدس المكتبة الوطنية الأولى في فلسـطين، فيها أهم الخزائن الخاصـة بآل الخالدي. كانت هذه المكتبة مدرسـة آلت ملكيتها إلى السـيدة خديجة الخالدي ابنة القاضي موسى أفندي الخالدي قاضي عسكر بر الأناضول فأوصتْ ولدها الحاج راغب الخالدي رئيس المحكمة الشرعية في يافا (المتوفى ١٩٥١م) أن يقفها وينقل إليها كتب الأسرة الخالدية، فنفَّذ وصيتها سنة (١٣١٨هـ-١٩٠٠م) بمشورة ومعونة الشيخ طاهر الجزائري مؤسـس المكتبة الظاهرية في دمشق والشيخ «أبي الخير محمد بن الحبال الدمشقي»؛ فوضعا فهرسـاً بأسـماء كتبها. وقد جاء في «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» وصف للظروف التي تم فيها تأسيس المكتبة وجعلها دار كتب عامة «وفق الله جناب الفاضل راغب أفندي الخالدي بمسـاعدة بعض وجهاء عائلته الكريمة وهما ياسـين أفندي الخالدي وموسـى شـفيق أفندي الخالدي إلى تشييد غرفة رحبة على جادة باب السلسلة في القدس الشريف وضعوا كمية وافرة مما وجد عندهم من بقية كتب آبائهم وأجدادهم، وأضـافوا إليها بعضـاً من الكتب الموجودة عندهـم أيضـاً، وجعلوا الغرفة المذكورة دار علوم عمومية لمـن يرغب بالمطالعة من أي فرد كان، واشترطوا ألا يخرج منها كتاب حرصاً على المنفعة العامة، وهي مفتوحة الأبواب للطلاب جميعهم كل يوم من الصباح إلى المساء، وعينوا لها محتفظاً أميناً»(٨).

تحتوي المكتبة على عشرة آلاف كتاب ثلثاها مخطوط والثلث من نوادر المطبوعات القديمة في العلوم العربية والإسـلامية. ثم ضُمَّتْ إليها خزانتا الشيخ يوسف ضيا باشا الخالدي ومحمد روحي الخالدي، وأُضيفتْ بعدئذ إليهما خزانة الشيخ أحمد بدوي الخالدي إضافة إلى ما أهدي إليها من نفائس مطبوعات المستشـرقين. تبيَّن من مطالعة فهرست المكتبة أنها تحوي كتباً في

التفسير والتجويد والقراءات والرسم والحديث والأصول والفتاوى والفقه الحنفي والفقه على المذاهب الأربعة والفرائض والتوحيد والتصوف والمواعظ والحكم، والنحو واللغة والأدب، والسياسة والقوانين والدواوين، والمدائح النبوية والسيرة النبوية والمناقب، والتراجم والفلك والطب والروحانيات، وفيها عدد كبير من المجاميع في العلوم الدينية والدنيوية.

زار المكتبة سنة (١٣٣٦هـ- ١٩١٧م) عبد الله مخلص، فوصف في مقال نشره في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق أهم مخطوطاتها النادرة التي طُبعت.

أثر العُقدة اليهودية على التراث المخطوط في فلسطين

بن هورين وابن شداد:

يقوم فرعٌ من المستشرقين المُغرضين بحملات وإغارات قديمة وجديدة استهدفَت «التراث المخطوط». فما زلنا نشهدُ تسارعاً بحثيّاً وتنقيبيّاً يفتعل البحوثَ والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها وتضخيم وافتعال «وجود يهودي» واستخراجه من تحت التراب أو من فوقه، أو من ورقة قديمة، أو من تأويل أو من تحميل، أو من تآمرٍ بحثي...

ذهب هؤلاء المستشرقون طويلاً وعريضاً، غير أنهم اهتمّوا اهتماماً أكبر بحقبة «الحملات الصليبية» وهي الفترة التي وضع فيها المؤرخُ ابنُ شداد كتابه المهم «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» وفيه تواريخ المدن الشامية ومنها الفلسطينية من النواحي الطبيعية والمعمارية والديموغرافية.

حاول هؤلاء المستشرقون أن يجدوا دوراً لليهود في مقاومة الصليبيين بوصف أنَّ القدس مدينتهم وفق وجهة نظرهم! ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا في تجريح وتسطيح الوجود العربي الإسلامي، فذكر أحدهم «يمانويل سيفان» بأنَّ المسلمين لم يأبهوا للاحتلال الصليبي للقدس، وإذ قالوا ذلك! فإنهم شرعوا في البحث والتنقيب كي يجدوا شيئاً يساعدهم على التلفيق الأولي لحضور تاريخي لليهود في القدس، ليس ذلك فحسب، بل تلفيق وإظهار مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين، تُداني أو تشابه تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العرب المسلمون. لكنَّ اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الحقبة، بل لم يكن هناك مثل هذه المسألة الغريبة!

ركَّزَ هؤلاء المستشرقون على الناحية الديموغرافية للقدس وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينةً مُهملة بلا هوية عربية إسلامية!

من بين المخطوطات التي لفتت انتباه المستشرقين عموماً والمستشرقين اليهود خصوصاً كونهم حملة أهداف خاصة، كانت مخطوطة «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لابن شداد عز الدين المتوفى سنة (٦٨٤هـ)،(٩) خصوصاً الجزء الثاني من الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين.

الدكتور سامي الدهان - محقق الكتاب - يقول في مقدمة التحقيق للقسم الثاني من هذا الجزء: «ولكنَّ أجزاءه - أي أجزاء كتاب الأعلاق - تفرقتْ نسخُهَا في أطراف المعمورة، فاستلبتْ كلُّ خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءاً من كتابه الكبير وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة.. وظلوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عاماً في المجلات والمؤتمرات..»(١٠)

ونظراً لتأكيد المستشرقين على أهمية هذا الجزء من «الأعلاق»، فقد حاولَتْ الطلائعُ الأولى من المستشرقين الذين وصلوا إلى فلسطين الحصول على نسخة منه بغية نشره. حدث ذلك بشأن هذه المخطوطة بالذات منذ سنة (١٩٤٧م) «قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب» بدأ ذلك في جامعة القدس المحتلة المستشرق «بن هورين» الذي أرسلَ طلباً إلى مكتبة ليدن يطلب فيه تصوير هذا الجزء من الكتاب عن النسخة المخطوطة لديها منه، وكان هذا الطلب من فلسطين بتاريخ (١٩٤٧/٣/١٣م) وأجابت بالموافقة. هذا الاهتمام المبكر بالكتاب كان لغاية نشره وترجمته، لكن المستشرق اليهودي بن هورين مات قبل أن يحقق أي شيء من ذلك. نضمُّ اعتقادنا إلى ما ذهب إليه سامي الدهان في مقدمة التحقيق من أن «بن هورين» كان يبحث عن مرجع يشير إلى وجود يهودي في هذه المناطق، فكأنه ظنَّ أن يرى عند ابن شداد إحصاءً بعدد اليهود في كل مدينة، غير أنَّ ابن شداد لم يذكر في تاريخه أي شيء من مثل هذه الإحصاءات، إذ إنَّ منهجه التاريخي كان بعيداً كل البعد عن أن يهتم بمثل هذا الأمر. والأغلب أنَّ الذي حَفَّزَ المستشرقَ بن هورين للاهتمام بمخطوطة الأعلاق أن بعض الرَّحالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات، ولعله توسَّم أن يجدها عند مؤرخ مسلم مرموق مثل ابن شداد لكنَّه لم يجدها!

لا شكَ أنَّ مدينة القدس غَدَتْ هدفاً أوروبياً مباشراً منذ سنة (٤٩٠هـ-١٠٩٦م)(١١) استند بعنف إلى الأيديولوجيا الدينية، وعلى امتداد هذه الفترة نشطَ الرحالة والمستكشفون الأوروبيون الذين شكَّلوا - في بعض الأحيان - فرعاً استشراقياً رفدَ الخطة الأوروبية العامة في تحميل الشرق على مشروعات وأهدافٍ غربية!

ثمـة جيوبٌ وروافد أخرى رفَـدَتْ داخل البنية الأوروبية الاستشـراقية في حروبها على الشرق الإسلامي، كان ثمة جيوب يهودية ما فتئتْ تُظهِرُ هويتها بعزلتها الشديدة وتُظهِرُ رغبةً استشـراقية خاصة؛ داخل الرغبة الأوروبية العريضة والفصيحة تحدوها بعنفٍ أدلجةٌ دينية؛ تتجه إلى بيت المقدس، وهي في هذا الجانب كانت تتطابق مع الهدف الأوروبي.

مما يجدر ذكره أن الوجود اليهودي التاريخي داخل المجتمعات الإسـلامية لم يكن يتّسمُ بالعزلـة، حتى إنّ الوجود الأندلسـي اليهودي بقي مندمجاً إلى حدٍّ حضـاري وإنسـاني في المجتمع الأندلسـي المسـلم. وبعد سقوط غرناطة سـنة (٨٩٨هـ - ١٤٩٢م) لم يجد هؤلاء اليهود مكاناً يهاجرون إليه هرباً من محاكم التفتيش غير البلاد العربية والإسلامية.

قبل ذلك بمئة عام قام الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي(١) برحلة من طليطلة في الأندلس إلى المشـرق ابتدأها سـنة (٥٦١ هـ-١١٦٥م) زار خلالها فلسطين، وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها - فهو يذكر أن عدد اليهود في عكا كان (٢٠٠) يهودي، وفـي اللّـد يهودي واحد؛ وفي نابلس لا يوجد يهود أبداً، وفي الرملة (٣٠٠) يهودي. ويبدو أنّ هـذه الرحلة وإحصـاءها لليهود هي التي حَفَّزَتْ «بن هوريـن» للاهتمام بمخطوطات أخرى لعلها تكون قد اقتربت من اليهود ووجودهم في المدن العربية.

تجاوزتْ محنةُ «المخطوطات» في فلسطين مسألةَ أن تكون مجموعةً من الأحداث والآثار السـلبية المباشرة للحرب، فهذا التراث المُحاصر والمُستولى عليه دخل في الأشد والأدهى، بعد أن أمسى داخل أسلاك وجدران الاحتلال تماماً، مما وضعه أمام احتمالات الفقدان كلها، مثل ترحيل المخطوطات إلى الخزائن الأوروبية التقليدية، أو حبسـها وتجميدها وعزلها عن محيطها الفلسطيني والعربي، أو فقدانها خلال المواجهات الساخنة حرقاً أو تدميراً.

سـتبقى «إسرائيل» كياناً شـديدَ الخوف من كل ما يحيط به، فكيف إن كان أحد مخاوفها هو «التراث المخطوط» مصـدر هويةٍ وتاريخٍ وشخصيةِ أصـحابِ المكان بدائرتيه الصغيرة الفلسطينية والكبيرة العربية والإسلامية؟!

المصادر والمراجع

١- المخطوطات العربية في فلسطين، الدكتورة خيرية قاسمية، مجلة المورد العراقية، مج٥، العدد(١).
٢- الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، (١٩٨٤م).
٣- الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، القاهرة، (١٩٦٥م).

٤- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد عز الدين، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق د سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، (١٣٨٢هـ-١٩٦٢م).
٥- رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلى العربية عزرا حداد، بغداد، (١٩٤٥م).
٦- برنامج المكتبة الخالدية (١٩٠٠م).
٧- عبد الله مخلص، نفائس المكتبة الخالدية في القدس الشريف، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، مج٤، (١٩٢٤م).
٨- صلاح الدين المنجد، المخطوطات العربية في فلسطين، بيروت، (١٩٨٢م).
٩- أسعد طلس، دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، م٢٠، (١٩٤٥م)، م٢١، (١٩٤٦م).
١٠- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، (١٩٧٣م).
١١- أبو شامة، أزهار الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، (١٩٥٦م).
١٢- عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، دمشق، (١٩٤٨م).
١٣- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة، (١٩٦٥م).

الهوامش

١- المخطوطات العربية في فلسطين، الدكتورة خيرية قاسمية، مجلة المورد، (مج٥)، العدد (١)، (ص٦٩).

٢- الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية - دمشق - مج٤، ص٢٨٦ ط١، (١٩٨٤م).

٣- المصدر السابق، مج٣، (ص٥٣٨).

٤- الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، القاهرة، (١٩٦٥م).

٥- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، (١٩٧٣م).

٦- كانت على برج من باب الرحمة الملاصق له باب التوبة، وكلاهما واقعان في منتصف سور الحرم الشرقي، عُرفتْ بالناصرية نسبةً إلى الشيخ نصر المقدسي، ثم اشتهرت بالغزالية نسبةً إلى أبي حامد الغزالي الذي اعتكف بها مدةً.

٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، مرجع سابق والموسوعة الفلسطينية، مج٤، (ص٢٨٧).

٨- برنامج المكتبة الخالدية، (١٩٠٠م).

٩- حُققتْ مخطوطة هذا الكتاب وطُبع بكامل أقسامه، ولكنَّ ذلك لم يتم دفعة واحدة، ولا بعملية تحقيق واحدة ومحقق واحد، فالدكتور سامي الدهان قام بتحقيق الجزء الثاني من الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين.

١٠- من مقدمة الدكتور سامي الدهان لتحقيقه لكتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد عز الدين، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)م (١٥).

١١- رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلى العربية عزرا حداد، بغداد، (١٩٤٥م).

الشعر...

قصائد حب

إبراهيم عباس ياسين

«الحب يصبح أجمل وأنبل في المحن»
ماركيز



اَلحمدُ لوجهك يا سيدتي
ولعينيكِ جزيلُ الشّكرْ
للقمر العالقِ في الأهدابِ..
وللجوريّ الضاحكِ فوق الثغرْ
سأقولُ بأنك أنت الحبُّ..
يهبّ رخيّاً كالأنسام..
ويعبرَ أيامي كالطيفْ
يطعمُ أشواقي من جوع..
ويطمئن روحي من خوفْ
يا امرأةً أنزفها شعراً
وتّتوّج أشعاري بالنزفْ

كم يحفلُ قلبي بالأعيادِ..
وكم يتراءى الكونُ جميلاً
حين تمرّ يداكِ على صحراء القلبِ..
كنسمةِ صيفٍ!

يقين

والتينِ والزيتونِ..
والقمر المؤبّدِ بالحنينِ..
وكل آيات الهوى
ماضلّ قلبي
يوم ألقى قلبهُ
في راحتيكِ وما غوى.

امرأة

هي امرأةٌ من جموح البحارِ..
ومن فضة الشمس تجلو مرايا النهارِ..
لها خاتم السرّ.. أيقونة السحرِ..
فاكهةُ الفجر لما بأغصانه مسّها
ولها أنها استوطنت نجمةً..
أشعلت في قميص المدى قلبها
وليست بآلهةٍ كي تحفّ الملائكُ هودجها
أو تسبّح عند الضحى باسمها البابليّ..
ولكنها امرأةٌ من سطوع الندى
وابتهال الغمامْ

هي الآن تذهب في ليلها الليلكيّ..
وتتركني حارساً للكلام
سلامٌ لها.. وعليها السلامْ

نشيد السندباد

قمرٌ يولدُ من عينيكِ..
فجرٌ واثقُ الخطوةِ ينهلّ..
سماويّ الضياءْ
تتراءى للمحبّينَ البشاراتُ..
وينشق الفضاءْ
أوّل الأشياء عيناكِ..
هما الشعرُ.. هما النثرُ..
هما الظلماءُ والفجرُ..
هما فاكهةُ الصيفِ..
وأشجانُ الشتاءْ
وأنا الذاهبُ في خلجان عينيكِ..
أنا الضائع ما بين سماءٍ وسماءْ
رحلتي طالتْ..
وما من نجمةٍ لاحت وراء الأفقِ..
ما من كوكبٍ يأوي إليه السندبادْ
فاطلعي كالوردة البيضاءِ
-رغم الظمأ الناريّ-
من كهف الرمادْ
ربما تصبح عيناك بلاداً للبلادْ

ولقد يبزغ نجمُ فوق هذا الليل..

تعلو شمسنا أعلى.. فأعلى

أنت يا سيدتي من يمنح الوقت معانيهِ..

ومن يعطيه شكلا

فإذا ما أشرقت عيناكِ تخضر الأناشيدُ..

المواعيدُ. الرؤى. الأيامُ والأحلامُ..

تكسو عريها الصحراءُ..

أنهاراً وأشجاراً وظلّا

يرتدي الكون أغانيهِ..

كأن الله في عينيكِ أشعاراً تجلّى.

❁ ❁ ❁

في عيون العابرين

علي جمعة الكعود

دوماً أراكِ
تغادرينَ حكايتيْ
وأراك
دوماً في عيونِ العابرينَ
فضاءَ روحيْ
ترتمينَ كبيدقٍ
في رقعةِ الحزنِ المؤجَّجِ
عندما
تتهجَّمُ الذكرى على
حُرّاسِ آلاميْ
وتوقظُ
فيَّ أسرابَ الحمامِ المستحمِّ
ببركة اللّقيا
وتشعلُ ذكرياتيْ
دوماً أراكِ
تغربلينَ عواطفيْ..
تستخلصينَ توهُّجيْ
وتعمّدينيْ مثلَ طفلٍ في الكنيسةِ
تغسلينَ ذنوبَ هجْرِكِ فيَّ
ثمَّ تغادرينَ حكايتي

لها

لـهـا
في دمي
ما يؤرِّخُ للّحظةِ المشتهاةِ
من الحلْم
في مفرداتِ الغيابْ
لها
أمنياتُ البنفسج
حينَ يداهمُ بوَّابَةَ الروحِ
متَّشحاً بعبيرٍ

تضوَّعَ ذاتَ
حسابْ
وفي حضْرةِ الحبِّ
راحَ يُدارُ نبيذُ كلامٍ
تعتَّقَ
في غفْلةٍ
من دنانِ الشرابْ
لها الحبُّ والخمرُ
متْعةُ ما يتدفَّقُ
من غزَلِ الشعرِ
وهْوَ يدغْدغُها بانْسيابْ



حالماً بالنقـاء

(١)

منذُ
أنْ ركلَ الرحْمُ
خاصرتيْ
باتّجاه الفناءْ
وأنا
حَذرٌ من سمومٍ
ستأتيْ
لتنْصبَ أشراكها
في الخفاءْ

(٢)

ثارَ وجهي
على لونهِ
حينَ غربلَ حنْطتهُ
حالماً بالنقـاءْ

(٣)

شهرزادُ عذابي
تؤجِّلُ
غفْوتها كلّ ليلٍ
وصارتْ
جراحي
حديثَ النساءْ

❁ ❁ ❁

الشعر...

الحبُّ والإيقاع

علا ص.ن حسامو

الحبُّ والإيقاعُ
إيقاعُ المسافاتِ الطّويلةِ بين آهكَ والسّكونْ
بينَ احتضارِ الوردةِ الحمراءِ في حضنِ الكتاب..
وبينَ رقّةِ عينكَ الصّفراءِ من سطرِ الدّخانِ المُقْتَبَسْ.
بين الشّهيقِ وزفرةٍ أُخرى ستختُمُ بينَ جنبَيها النّفَسْ..
بينَ اختصارِ أنينكَ الأزليِّ في إغماضةٍ قد تنتهي أو لا..
وبينَ شروعكَ العفويِّ بالرّقصِ الهزيلِ على ابتسامتكَ الوثيرة..
بينَ الرّصاصةِ واحتمالِ آخرِ للعَيشِ في ثُقبٍ ينزُّ حلاوةً وملوحةً
كالبحرِ في عينٍ ضريرة
إيقاعُ شهوتكَ الّتي بلّتّها بلعابِ حُلمٍ فائتٍ..
بعصيرِ فكرتكَ المُثيرة
إيقاعُ وحيٍ ربّما يأتي لتحبَلَ بالموسيقا والجنونْ
إيقاعُ أنْ كُنْ..
لنْ تكونْ
الحبُّ والإيقاعُ مفردةٌ

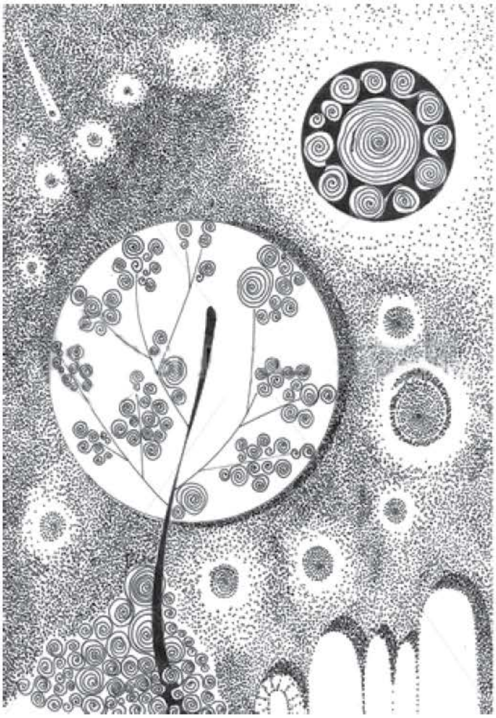


وأنتَ فَرادةٌ أُخرى
وأنتَ فراشةٌ أُخرى ستأكلكَ المسافةُ بينَ دو.. ري..
بينَ ما سيشفُّ جِسمكَ عنهُ في وقتِ التّجلّي
حينَ لا فرقٌ كبيرٌ بينَ شرنقةٍ وأُغنيةٍ ومذبحةٍ..
وقُبلة
أو حين أنتَ فرادةٌ أخرى
ومئذنةٌ أخيرة.

❁ ❁ ❁

منفى

سناء هلال



تغزوني أسراب اليمام
وتخاصرني ألسنة الأسئلة...
عيناي غابتا كستناءٍ
على الحدِّ الفاصل بين صحوي ومطرك
واحتدام الأمس
على استواء اللّحظات
واختلاج الحرف في وجع القصيدة
....
أبحث في عينيك عن طفلٍ ضلَّ الطريق
تاه في لُجّة الحرب والذنوب
عن جنين الحزن حين قُطِع حبله السّري
وضاع في زحام المدينة
لفظت طفولته على أرصفة الجوع
هناك...
ظل يستجدي الحياة
أغدقت عليه أناشيد البلاد

ربتت على كتفه البض يدٌ جانية

....

أفتّش عن أناي

عن صخبي العالق في فكرةٍ

كلحنٍ لم يكتشف

كقصيدةٍ خانها الإلهام

عن عبق مقيم في براري الزعتر والعناب

كشجرة معمرة ظللتها مواكب الصّبا أغدو

كمركبٍ غرق قبيل الرحيل

مسّته لعنة الشواطئ

وتقاذفته أملاح المصير

أرسو على جزر الخواء

رجعُ صوت البحّارة يعودني

وشمسٌ حارقةٌ تفرِد سطوتها

فيفلِت مني ظلّي

يعدو ليسبقني

أرشُّ على سحنته حفنة ترابٍ

أبذرها بوصايا الأمّهات

بصوت أبي الذي لن يعود

بأصوات العنادل

....

على أصابعي أعدّدُ وجوه الغياب

وأكتب رسائلي للريح

أسطّر نوبات الحنين عى اصفرار الورق

أنضّد الحزن على مرأى وريدي

وأجفّف ماء الخيبة عن وجنة الحروف

❁ ❁ ❁

السـرد...

ولادات مشوهة

حسن إبراهيم الناصر

أنا هكذا منذ الجبلة الأولى وإلى ما شاء الله، يورق روحي الحب ويسكنني الوطن. وذاكرة محشوة بالأحلام. قالت وقلت واستبد بنا الحديث حتى مطلع الفجر، كانت تنظر عبر الشرفة إلى قمة جبل الزيتون، الذي يشرف من جهة الشرق على سهل يمتد حتى ضفاف نهر العاصي، ومن جهة الغرب يمد كلتا يديه وقدميه في لجة البحر المتوسط. وأنا كنت قد هَيَّأتُ زادي، من الكتب والصحف والورق والحبر والأقلام.. حتى لا أشعر بالغربة في عزلتي التي اخترتها بعيداً عن صخب العالم وضجيج الخراب؟! همست بدلال... كلانا يحرقنا شوق، وكيف لا أذكر وأنا أعيش في الذاكرة، مسكون بالحكايات، سألته: أليس لهذا الليل نهاية، العتمة تجثم على صدري كصخرة؟ حتى مطر تشرين موجوع! همست: علمني... كيف تجعل من الحبر والورق أحلاماً.. وتزرع حدائق في كل هذا اليباس؟ حَـريٌّ بك أن تقيم طقوس الحزن، اقرأ عن «الأوابد» التي تركها الأولون هي مرآة الأرض، فتحت النافذة المطلة على شجرة البرتقال، أتدري، الأمكنة ضاقت على روحي، انظر للأفق، في هذا الليل النجوم تتدلى كقناديل باهتة، حتى الزيتون اخضراره محزون، من غيرك يرمم حزني، الله سبحانه وتعالى لا يمنح لأي كائن الحياة الأبدية؟ يبدو أن عاصفة العجاج هذه مقدمة لطوفان نوح، لم أجد في أي كتاب من كتب الفلسفة ولا في التاريخ ولا في «قصص الخيال العلمي» التي كنت أقرؤها للروائي السوري: طالب عمران. ولا في القصص القصيرة، ولا في روايات جورجي زيدان، عن وجود نبات أو شجر أو بشر - يتوحشون- بعد الولادة، فيولدون محقونين بالكراهية؟ حين يؤول اليباس تتصحر الأدمغة وتصبح العيون من زجاج، كثيرون ممن عرفناهم في مسار حياتنا اكتشفنا

أن عيونهم من زجاج؟! يرتدون وجوهاً خلف وجوه «أقنعة»، معك حق، أغلب الذين عرفتهم تحولوا كما تتحول الحرباء! ما يجري بعض جنون الريح، الرمل والصحارى والوديان والمنعطفات والأقبية والكهوف والمنحدرات والوديان والنجوع والجحور، تكشف عريها وهي تخرج عن حدود الطبيعة والأشياء، وقد خرج من شقوقها جموع «ذئاب وضباع متوحشة»!

يحكى... أن كثيراً من النساء في ليل مدلهم «حملن سفاحاً».

وقد استجلبوا لهن من الغرب، أطباء اختصاصيين بالولادات المشوهة، وأقاموا في تلك «المخيمات» المبنية على أطراف الحدود.. سوقاً لبيع الأعضاء البشرية وتجارة الرق الأبيض؟! في ليل مظلم، جميع النسوة اللواتي منحن أجسادهن «لمفتيّ جهاد النكاح» ولدن ذكوراً.. «برأس ذئب»؟ فتوى غريبة عن عاداتنا وتقاليدنا وقوانين الأديان السماوية والمجتمعات الإنسانية كلها؟.. قيل إنهن أغلقن ألف جدار على عقولهن وتبرجن تبرج الجاهلية! يبدو أن المتغيرات حققت غايتها لتصبح منابر بعض «المساجد والزوايا والتكايا»، مباحة لفتاوى الفتنة التي هدمت... «بيع وصوامع ومقامات ومساجد وبيوت كان يُذكر فيها اسم الرحمن والرحمة والمحبة والتآخي والوطن»! وبقرت بطون واستبيحت نساء صغيرات، بفتاوى تسمح لهؤلاء الذكور المشوهين، بممارسة الدعارة بشكل علني. وأباحت اغتصاب الأطفال وبيعهم عراة حفاة، في أسواق إسطنبول وباريس وتل أبيب ولندن وبيروت وواشنطن؟! أتوا من بلاد قزم الفكر وثووا في أقبية «الجهل الوهابي» بلاد بلا حضارة، «يريدون أن يراودوا بلادنا عن تاريخها العريق بالمدنية والإنسانية؟! قالت: انتبه لنفسك يا رجل هذا كلام خطير، خبئ جنونك وحنينك وقراءاتك.. لا تحدث بها أحداً، «إذا سمعوا بما تفكر سيصلبونك»!!! أنت تجتاز الأسلاك الشائكة وتقطع الخطوط الحمر؟ تدخل بحبرك إلى «منطقة ملغومة» بالسياسة! تمس المحظورات والممنوعات والمحرمات، قد تعرض نفسك للقتل، والذبح، أنت مُعرض لأن تُؤكل نيئاً أو مشوياً.. نسيت أن كل شيء من حولنا يتوحش، ربما يقطعون جسدك وأنت تتنفس الموت ولا تجده! يأكلون كبدك أو قلبك على شاشات الفضائيات الناطقة « بالعبري»؟ ألم تقرأ عن مذابح الحجاج؟؟؟.. صار كل شيء عادياً، لا يحرك وجدان أي عربي ولا إنساني ولا هيئة أمم؟! يا إلهي: بأي حقل من الألغام سمحت لنفسك أن تكتب؟ ليكن سأكتب عن الواقع. وأي واقع! قاطعتني مستغربة: ومهما كان الثمن؟! نظرت إلى وجهها المسكون بحمرة الخجل والحزن والخوف والقلق، قلت... نعم مهما كان الثمن. كتب: رمح الغدر لم يزل في ظهر «كليب».. ولا يزال ضباع الجاهلية ينهشون «كبد حمزة»؟؟؟ قالت: قلبي ينزف أسى، قلتِ لكِ، الخطورة تكمن في«مَن دس السم في العسل»؟ بعض

هـؤلاء يدعون بأن من أسـباب الخراب اهتمام «المؤسسـات» ببناء الحجر، وبـكل هذا العمران الإسـمنتي أكثـر مـن الاهتمام ببنـاء الإنسـان حتى «توحش بعضـهم متنكرين لـكل قيم ومبادئ الحياة» مع أن المؤسسـات عملت ولم تزل تعمل لأجل بناء الإنسـان، ولكن هؤلاء «صـم بكم».. لا يفقهون؟! منزلقون في أقبية موبوءة بخزائن من الكتب الصفراء، التي تقطع كل الحدود من دون جوازات سفر.. ويتلقفها المهووسون بالفتنة والحقد والجهل؟!

قالت... لا تخرج عن النص. لا تسمح للحزن أن يستجر عصبيتك، ما عرفتك نزقاً. «من أين جئتِ بكلمـة نـزق»؟ نحن في متاهات هي كذلك كما قلـتِ متاهات، اندفعنا إليها وكلّ منا يتحمل مسؤولية سـلوكه بحسـب عملـه. اتركيني أكتب عن الأحـلام الكبيرة التي ترفض أن تتكسـر وتتمـزق، بعد كلّ كبـوة تنهض كالفينيـق، الألم عميق والفاجعة أكبر ممـا توقع أي قارئ للتاريـخ، بدلت فنجان القهوة الفارغ بفنجان ساخن، هذه قناعات، لا ليست قناعات. بل قولي كان هناك كثير ممن يرتدون الأقنعة وتكشـفت لنا وجوههم السـوداء. لا أومك. هناك من يُسـيطر على أدمغة كثيرين، لم يعد مشـكلة أن تنهار الأخلاق والقيم، في مواجهة إغراء الجنس والمال وفتاوى تاريخية مرتهنة لوظيفة سياسية، وإنْ كانت تنتمي للجاهلية! مع كل شمس أكتشف بأنه دائماً هناك ما لا يقال. ابتسمت، طيب اكتب قصتك لتكن «ولادات مشوهة في زمن لغة العشق». هززت برأسي يميناً وشمالاً، هامساً: وأي عشق؟

تركتْ فنجان القهوة على الطاولة، ومضـت من دون أن تقول أي كلمة، أمسـكتها من يدها، سـأترك الباب مفتوحاً، كل فترة أطلي حتى إذا ما أخذني النوم.. عطرك ينعشني ويمنحني نشاطاً غير عادي.

قالت... لم أكن أريد التعليق، لكن يبدو أن تأثير الحدث يدفعني للحكي، اسـمع: الحياة تشبه «المسـرحية»، في ليل موحش، يجيء أحد ما يُجبرك على حضـورها من دون مقدمات. مع هذا الضيق، لدي إيمان راسخ بأن الحياة أيضاً لا تخلو من نوافذ الضوء.

أسرعت للقلم أسجل ملاحظاتها، بين قوسين أعجبتني فكرتها، بأن الحياة لا تخلو من نوافذ للضـوء. ينتابني شـعور بالغربة في عالم ينقلب، هي وحدها تعرف كيف تفتح في جدار الصمت كوة «للحكي»؟ امرأة ندية، بهية، تشـع ابتسـامتها كوردة جورية مغسولة بالمطر، رائحتها تنعش الروح. تطوف من حولي مترنمة بأغاني فيروز كهديل طائر حمام وهي فرحة بأغانيها الحالمة. «يا رايحين مشرق..مشـرق.. ما بو ربيعي». تنهد بحسـرة.. الذي جاء خريف مسـموم؟ خريف عاصـف وريح هوجاء ملعونة؟ خربت كل شيء، شوهت وجه الحياة، تركتنا غارقين في بحر من الحزن، أنت كل شيء تُدخله بالسياسة.. أي سياسة! هكذا هو الحدث.

كأنها كانت تريد احتوائي في عينيها قالت: اشرب قهوتك ماذا تنتظر.

تجاهلت كلامها، بصراحة أربكتني، أنا المسكون بالصقيع لا نفع لي، في ليل عاصف بمطر غزير ورعد وبرق، موج البحر يندفع هائجاً كأنه يريد تحطيم صخور الشاطئ، لينفلت إلى اليابسة، فيزلزل الأرض وتشتعل الحرائق، كل شيء ينبئ بالحريق. فتحت النافذة المطلة على البحر، على الرغم من هذه العاصفة المجنونة، في كفي أوراق قديمة اصفرت من كثرة توالي السنون عليها. يا إلهي بللها المطر المتسلل من النافذة. قالت: هذه رسائل «حب» قديمة!

رسائل حب! يبدو لي لا أمكنة تتسع للحب، في زمن العواصف، تابعت: بالعكس قرأت في روايات «نجيب محفوظ» عن جنون الحب تحت المطر، وليالي سي السيد الحمراء مع استمرار العواصف التي ضربت القاهرة مراراً. فرق كبير بين الحديث عن قاع المدن الغارقة بالفقر، وعن مدن وقرى غارقة في جنون الحرب تهدف «لقتل الثقافة وذبح الإنسانية»؟! تمايلت بخصرها وفستانها الخمري الشفاف لنترك الماضي لأهله، «لنفسك عليك حق». هات يدك إليك كأس نبيذ في ليل بارد يمنحك بعداً آخر للكتابة. وقفت خلف النافذة أسأل عن البعد الآخر في لغة النبيذ والمرأة والبحر. أيها البحر.. دلني على البعد الآخر في لغة العشق. في زمن الولادات المشوهة. دفعت الأوراق والكتب جانباً. معك حق لقد أوجعتني الكتب القديمة... شربت آخر رشفة في كأس النبيذ. حينئذ كانت ترسم لوحة تمثل امرأة « ...نصف عارية» تقف على الرمل بلباس البحر. تتراقص فوق جسدها حبات الماء المالح.. وهي خارجة من ملح موجتين تتمسكان بجسدها البرونزي، كم تشبهين «شهناز، صديقتي الشامية»، التي علمتني كيف تكون الأنثى مشتهاة في كلّ زمن وأي مكان، اخرج من خيالاتك، أنا لا أعرف السباحة، أتأمل البحر وأرقب الموج والزائرين من بعيد، لا تنزعجي، العرافة قرأت في فنجاني المقلوب، وحيداً تلاحقني الأسئلة، هل تخرجنا البادية من رحمها عراة، وهي ترسل هداياها «من التمور والسيوف المرصعة بالذهب» إلى جهات الدنيا الأربع «هؤلاء يرقصون على موتنا»؟! المرأة في الصورة «تغيرت ملامحها وقد أدهشتها حيرتي بين فلسفتين للحياة..» كرجل يحلم بامرأة من ورق، ويكتب عن الأحلام والذاكرة. يمضي ليله يقصُّ عليها حكايا قديمة.. عن حدائق بابل المعلقة، وسيف بن ذي يزن، وعن تغريبة بني هلال ويقرأ في قصائد أبي فراس الحمداني «يوم كان في سجن الروم». توقف عن الكلام، أشعل سيجارة وكتب... ما بين فرات القمح.. ودجلة، النخيل وارف بحكايا لا تنتهي.. سوالف تعشق الأرض والحياة. نظر في وجهها وقال: تأكدي أن كل شيء هنا يرفض الولادات المشوهة. النهار آت.. والحياة متجددة كالشمس، وأنا مجروح بالصمت والأنين. ضحكت، اشرب قهوتك بردت.. وتابعت... روح نام طلع الضو؟!

❁ ❁ ❁

الوحوش

محمد أبو حمود

قبالة نافذة تلامس أفنان شجرة لوز مزهرة، جلس يحاور نفسه دون ضوضاء، بعد أن سرق زهر اللوز كل انتباهه. (كم هو جميل هذا الزهر!). بدا كأنما كانت أول مرة ينعم النظر بزهر اللوز.

يعرف أن ثمة ما يشبه الزمهرير غير المعهود في مثل هذا الشهر يستوطن الخارج.

(كيف يتدفأ زهر اللوز؟).

(لماذا لا تكون أثيرة قلبي حبلى بالبياض وتحدي الزمهرير مثل زهر اللوز؟).

استدرك بهدوء (ربما هي كذلك). ثم صعّد – (لا مناص من أنها كذلك!).

حطّت ذبابة مضطربة هاربة من القرّ على واحدة من الزهرات البيضاء. هنيهات، وتركتها بالاضطراب عينه. تعجب عندما سقطت الزهرة. خطر بباله أنها انتحرت – (ألا ينتحر زهر اللوز..؟).

استولى على الوقت بعضٌ من ليل. كمد بياض الزهر خارج النافذة، ومضى في طريق الغياب الليلي.

(لماذا لا يرتدي الليل البياض؟) رد على السؤال (وماذا ستترك لزهر اللوز؟).

مدّ يده ليلمس زهرة ساعدها ضوء الغرفة على تفادي الغياب. صدّ زجاجُ النافذة يدَه – بدا كأنما باغته.



حـرّك درفـة النـافـذة ليفتحهـا قليـلاً. عاندتـه لحظـات. أعلنت له أنهـا لم تفتح من زمـن. (كيف لنافـذة أن تبقـى مغلقة لزمـن؟). عندما دانت، بعـد لأي، فرّ نفر من عصـافير كانت ملتجئة قرب النافذة. أحس بندم طارئ. اسـتبد به سؤال - كيف له أن يدعوها لتؤوب لملجئها وتحتمي من البرد.

ضج برأسه سؤال- (كيف تتدفأ العصافير؟).

وسط معمعان تساؤلاته، أخذه ضوء توهّج في نافذة في الجانب المقابل.

أشرق كل ما فيه.

هـا هـو ذا وجهها الأليـف وقد لاح له (أو تخيّله) رائقاً... مبتسـماً. ها هـي ذي تقترب على عربتها المدولبة من النافذة.

توقفـت كل الأسـئلة بعـد أن أشـعلت بهجتـه (بهيـة) تلـك النافـذة بذَهَـبِ شـعرها وثراء ابتسامتها.

لوّح يده بحياء مزمن. بادلته.

ضاعت المسافة بين النافذتين. لم يغلق الكوّة الصغيرة التي أحدثها في النافذة. راق له أن يشارك زهر اللوز والعصافير مهرجان البرد المبكّر في لحظات من أدفأ لحظات عمره.

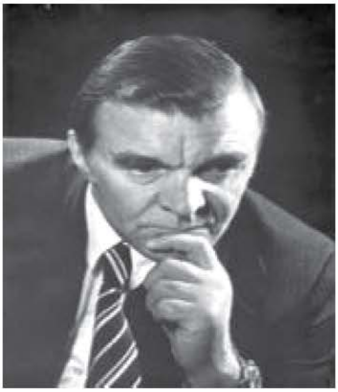
حرّك (عربته المدولبة) يروم أن يطير بها إلى الضفة المقابلة.

بغتة.... بغتة فقط، وخلال لحظة من خارج الزمن البشـري، سـقطت قذيفة بين النافذتين وهيمن على المشهد ألوان قاتمة... وأشلاء لبشر وعصافير وزهر لوز وعربات مدولبة.

❁ ❁ ❁

سامحينا!

تأليف: يوري بونداريف[1]
ترجمة: د.ممدوح أبو الوي


يوري بونداريف

عمل بافل غيورغيفتش سافونف مهندساً مصمماً في مصنع كبير، وكان مشهوراً واعتاد هذه الشهرة، وبدا وكأنَّه تعب قليلاً منها.

استراح في هذا العام سافونف في مصحةٍ في القرم، وعندما رجع بافل غيورغيفتش من المصحة إلى بيته في موسكو، سافر بالقطار إلى أماكن يعرفها، كانت هذه الأماكن حيث وُلد وترعرع، ولم يكن هناك خلال سنوات عديدة. تذكر سنوات طفولته وشبابه، وأراد أنْ يتوقف في مدينته: أنْ يتمشى ويرى الشوارع القديمة، ويعرف ما الذي تغير في المدينة، ويلتقي أصدقاءه ورفاقه أيام المدرسة.

أخذ بافل غيورغيفتش أغراضه، وخرج إلى محطة القطارات.

أمضى يوماً كاملاً وهو يتمشى في المدينة، فلم يتعرف على المدينة. ولم تتعرف المدينة على سافونف. أصبح الشارع الضيق الذي كان بيته الصغير إلى جانبه، حيث ولد، شارعاً عريضاً ذا اتجاهين. لم يبق أي شيء من طفولته،لم يبق أي شيء.

أين الآن صديقه في أيام المدرسة فيكتور سسنيغيريوف، وأين فيرا؟

فيكتور – الصداقة الطفلية الأولى. فيرا -كما يقولون- الحبُّ الأول.

أراد أنْ يعرف: «ماذا حدث معهما؟ كيف هما؟».

في البيت الذي عاش فيه سابقاً سسنيغيريوف، التقته امرأة لا يعرفها «لا، أسرة سسنيغيريوف بعد الحرب لم تعد تعيش هنا، رحل الجميع. أصبح ابنهم مديراً لمصنع. وجاء إلى هنا منذ سنتين».

يذكر بافل غيورغيفتش جيداً البيت الذي عاشت فيه فيرا. فتحت الباب والدة فيرا. عرفها مباشرةً، ولكن هي لم تعرفه مباشرةً: «يا إلهي، باشا، هذا أنت؟ جئت؟» وأخذت تطرح عليه مجموعة أسئلة، وبعد ذلك قالت له: إنّها تعرف أنّه أصبح مهندساً مصمماً مشهوراً. وانتظر إلى أنْ انتهت من طرح أسئلتها، وفي النهاية سأل:

- وأين فيرا؟... أين هي؟

- في- را؟نظرت إليه باستغراب.

- أين هي؟- كرر سؤاله بقلقٍ.

- ألا تعلم، يا باشا؟ فيرا لم تعد موجودةً... إنّها كانت في أثناء الحرب ممرضةً...

- غير معقول،- بارتباك قال سافونف.

ودعته بعد ذلك أم فيرا، نظرت إليه مطولاً، وكررت بحزنٍ:

- يا للأسف، يا للأسف! أنتما ترعرعتما معاً...

هو لا يعرف الآن إلى أين سيذهب، عمن سيبحث. رأى فجأةً من خلال موقف الحافلة الكهربائية مدرسته. لم تتغير. بقيت كالسابق، كما كانت في طفولته. كما كانت منذ سنواتٍ عديدةٍ مضت.

نظر بقلقٍ إلى البناء الغامق للمدرسة. ورأى فجأةً على اليمين ضوءاً أحمر. أيُعقل أنْ تكون ماريا بتروفنا؟... هنا عاشت ماريا بتروفنا، معلّمته الرياضيات، كيف لم يفكر بها مباشرة،لم يتذكرها! فهو كان طالبها المحبوب.

ذهب سافونف إلى بيت ماريا بتروفنا.كم عدد السنوات التي مضت ولم يرَ أحدهما الآخر! كيف أحوالها؟

فتح بافل غيورغيفتش الباب ودخل إلى البيت.

- مَن هناك؟

- سمع صوتاً معروفاً. وقفت عند الباب امرأة معتدلة القامة.

- ماريا بتروفنا. بهدوء قال بافل غيورغيفتش.
- ألا تعرفينني؟ هذا أنا...
بقيت تنظر إليه عدة ثوانٍ من الأسفل إلى الأعلى.
- باشا سافونف... باشا؟
- نطقت هي.
- اجلس، من فضلك... اجلس، هنا... أنت وصلت؟ أنت في مهمة؟
- لا، أنا اليوم سأسافر،
- أجاب.
- أنا الآن معك سأشرب الشاي. انتظر.
- خرجتْ.

جال بنظره بافل غيورغيفتش على الأشياء الموجودة. ما زالت ماريا بتروفنا تعيش وحيدةً، كما كانت تعيش قبل الحرب في هذه الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة المطلة على الحديقة. كلُّ شيء كسابق عهده به: طاولة، وخزانة كتب، على الطاولة دفاتر، إلى جانب الدفاتر قلم رصاص أحمر.

دخلت ماريا بتروفنا، وقالت بمرح:
-هيا، يا باشا، حدثنا عن نفسك، أتزوجت؟
- نعم، ماريا بتروفنا،- أجاب سافونف.- عندي ابن.
- جيد! وكيف العمل؟
- أتعرفين، يا ماريا بتروفنا، تعالي نتحدّث عن الماضي، عن المدرسة...
- إنّني أذكر بشكل جيدٍ صفكم. الصف قبل الحرب. وأذكر بشكل جيدٍ صداقتك مع فيتيا سنيغريوف.
- قالوا لي إنَّه مدير مصنع. هل جاء عندكم؟
- لا.
- يا ماريا بتروفنا أتذكرين غريشا ساموبلوف؟ هو فنان. إنَّك أنت قلت له، بأنَّ لديه موهبةً. هل جاء عندكم؟
- لا، لم يأتِ. رأيته فقط في السينما.
- يا ماريا بتروفنا، ألا يكتب لك أحد؟
- لا، يا باشا.

رأى سافونف أنَّ ماريا بتروفنا تنظر إلى خزانة الكتب. ونظر هو أيضاً ولاحظ كتابه.

- عندك، يا ماريا بتروفنا، كتابي؟ - سأل بافل غيورغيفتش.

- نعم، قرأته. ليس كتاباً سيئاً. وهذه صورتك من الجريدة. عندما رأيتها، أرسلت لك برقيةً. تذكرَ وشعرَ بالعار، لأنَّه فعلاً استلم برقيةً منذ عامين، ولم يجبْ عليها.

قالت ماريا بتروفنا في أثناء الوداع:

- أتظن، أنَّني غيرُ مسرورة؟ يا له من ضيفٍ كان عندي! أتظن، أنَّني لن أخبر طلابي غداً عن هذا؟... اذهب، يا باشا، أتمنى لك النجاح الكبير. ولتكن سعيداً...

لم يتمكن سافونف من الهدوء خلال الطريق كلِّه وهو في القطار. شعرَ بالعار. فكر بسنيغريوف وساموليوف. أراد أنْ يكتب لهما رسائل غاضبةً. ولكنه لا يعرف عنوانيهما. أراد بعد ذلك الكتابة لماريا بتروفنا، ولكنه فكر مرتعباً أنَّه لا يعرف رقم بيتها.

خرج سافونف من المقطورة إلى المحطة الكبيرة. ذهب إلى مكتب البريد، وأرسل برقية إلى عنوان المدرسة، باسم ماريا بتروفنا.

كانت في البرقية كلمتان: «سامحينا!»

❀ ❀ ❀

١- يوري بونداريف: روائي روسي (مواليد ١٩٢٤م)، عمل أمين سر اتحاد الكتاب السوفييت، وحصل على جائزة الدولة التقديرية، وعلى جائزة لينين.

من رواياته: «الكتائب تطلب النار» (١٩٥٧م)، «الطلقات الأخيرة» (١٩٥٩م) ترجمها غائب طعمة فرمان، «الثلج الحار» (١٩٦٩م) ترجمها غائب طعمة فرمان، «الشاطىء» (١٩٧٥م)، «الاختيار» (١٩٨٠م)، «اللعبة» (١٩٨٥م).

تُرجمت بعض رواياته إلى اللغة العربية من اللغة الروسية مباشرةً، بعضها في موسكو وبعضها في دمشق.

ملاحظة:

باشا: اسم تصغير لاسم بافل. واسم فيتيا: اسم تصغير لاسم فيكتور. غريشا: تصغير لاسم غريغوري.

❀ ❀ ❀

المرأة وحقوق الإنسان

د. ملكة أبيض

لعلّ أولى القضايا الجديرة بالاهتمام حالياً، لا في البلدان النامية فحسب، بل على مستوى العالم كله، هي قضية المرأة؛ بمعنى إنقاذ النساء مما يتعرضن له من تجاوزات واعتداءات، وإعطائهن حقوقاً مساوية لحقوق الرجل، في إطار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

شهدت العقود الأخيرة نشاطاً واسعاً في سبيل زيادة الوعي بمشكلات المرأة، ومحاولة مواجهتها على الأصعدة المحلية، والإقليمية، والدولية.

ومن المعالم البارزة لهذا النشاط، ظهور حركات نصرة المرأة (Feminism) في المجتمعات الغربية عموماً، والجمعيات النسائية في بلدان المشرق، وقيام «الندوة العالمية الرابعة حول المرأة» في بكين، في التسعينيات من القرن الماضي... تلك الندوة التي أكدت الفقرة (١) من ميثاق الأمم المتحدة المطالِبة «بتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً»، والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة، أو الدين، ولا تفريق بين الرجال والنساء.

وفي الجامعات وخارجها، قامت أشكال متعددة من الجدل، وكُتبت مؤلّفات تعالج المشكلة، نشير إلى كتابين منها، هما:

- Kristof، Nicholas D. and Wundunn Sheryl، Half the sky (نصف السماء)، How to change the world; London، Virago، 2010.

- Appiah، Anthony، the Honor code (قوانيــن الشــرف)، How moral Revolutions Happen; New York; w.w. Norton، 2010.

أمَّا كتاب «**نصف السماء**»، فيقدمه الزوجان الصحفيان على أنه نداء لحمل السلاح ضد أكثر انتهاكات حقوق الإنسان انتشاراً وصدماً في زماننا، وهو عدم المساواة بين الجنسين.

والقصص الحيّة التي يرويانها في الكتاب تدور حول عذابات النساء في أجزاء مختلفة من العالم: بنغلاديش، وكامبوديا، وجنوب إفريقيا، والهند، والكاميرون، والكونغو، وسيريلانكا... وفيها أشكال من الجرائم والتعديات على حقوق المرأة، كالاتجار بالنسوة، والاغتصاب، والعدوان العائلي.. وهي تشير إلى أن علينا الاعتراف بالأشكال العديدة من التهديد التي تعاني منها المرأة، بدءاً من عدم الأمان، إلى المجاعة، إلى المرض.. وأنها ليست خاصة بثقافات معينة، أو جماعات دينية محددة.

وميزة الكتاب أنه يتحدث عن أشخاص وحالات وليس عن إحصاءات. وهو مملوء بنساءٍ تمكّن من التغلب على عقبات تفوق الخيال والبقاء في مواجهة ظروف غرائبية، وهذا ما يجعلهن جديرات بالإعجاب.

وأمَّا كتاب «**قوانين الشرف**» فهو أكثر أكاديمية، ولكنه شديد الأثر، يركّز على المحور الأخلاقي ويحرِّك إمكاناتنا الإنسانية للقيام بالعمل الصحيح إزاء هذه القضية الإنسانية الكبيرة. كتبه «أنتوني أبييا» وهو فيلسوف وناقد ثقافي، وُلد في غانا، وتلقى علومه في كامبريدج، ويدرِّس حالياً في برنستون.

وهو يبيّن أن حِسّ الشرف قاد الأفراد والجماعات، في بعض الأزمنة التاريخية إلى ممارسات لا إنسانية، مسيئة للشرف، بينما بدت في الماضي طبيعية، بل نبيلة أيضاً. والأمثلة التي يوردها تتعلق بالأذى ضد المرأة، كالمبارزة في أوروبا، وربط الأقدام في الصين، وتجارة العبيد في بريطانيا؛ ويؤكد أن تلك الممارسات توقفت حين بدأ الناس يشعرون بأنها مخجلة، بل ومعيبة أيضاً. ولماذا لا نضيف إليها «جريمة الشرف» التي تُمارس على المرأة في بعض الجماعات الشرقية، فهي ما تزال تحصد حياة عشرات من الشابات كل عام؟

هناك حالياً على كل حال كورس يشتمل على مئات الجمعيات والمنظّمات والنشطاء (رجالاً ونساءً) يكّرسون جهودهم للتنديد بالعنف ضد النساء، والمطالبة بإعطائهن حقوقهن قولاً وعملاً.


كاترين ماك كينون

ولإعطاء فكرة عن هذه الجهود، سنلقي نظرة على بعض الحجج التي أطلقتها مناضلات نصيرات لحقوق المرأة، مثل الحقوقية الشهيرة «كاترين ماك كينون» Catherine McKinnon، التي انتقدت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ووصفته، هو والمؤسسات التي تدعمه على الصعيدين الوطني والعالمي، بأنه أَبَويّ تطغى عليه الروح الذكورية؛ كما عدَّدت كل المساوئ التي تحيق بالنساء بالرغم من وجوده، ورأت في حرمان النساء من بعض الحقوق حرماناً لهن من البشرية، لأن هذه الحقوق يجب أن تكون عالمية. من هنا فإن المعايير التي يضعها الإعلان يجب أن تتغير.


شارلوت بونش

ونجد عند «شارلوت بونش Charlotte Bunch» تعبيراً أوضح عن الصلة بين حقوق المرأة وحقوق الإنسان. فقد ألّحت، خلال حديثها عن حملة التسعينيات لنصرة المرأة، على أن مسائل المرأة يجب ألا تعالج بصورة مستقلة. فهذه المسائل تفهم على نحو أفضل بصفتها جوانب مهملة من البرامج العالمية لحقوق الإنسان. وعلى الحكومات أن تلتزم بمساواة النساء مع الجنس الآخر لأن هذه المساواة حق إنساني أساسي.

وأضافت أن التمييز بين الجنسين والعنف ضد النساء لم يكونا مدرجين في برامج حقوق الإنسان حتى التسعينيات من القرن الماضي، لأن الكثيرين أخفقوا في رؤية اضطهاد النساء بصفته أمراً سياسياً يجب النضال في سبيل إيقافه، وإنما رأوا فيه أمراً طبيعياً.

وهكذا نرى أن كلتا المدافعتين عن حقوق المرأة طالبتا بتطبيق معيار واحد هو المساواة ين الجنسين، وكلتاهما استندتا في ذلك إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، على الرغم من انتقادهما له.

وحين نأتي إلى المنطقة العربية نرى أن قضية المرأة طُرحت فيها منذ نهاية القرن التاسع عشر في مصر وسورية ولبنان، كما قامت فيها حركات إصلاح وتغيير شارك فيها رجال ونساء معروفون..

ولكــن هــذه الحركات تتطلــب معالجة مســتقلة، وقد حظيــت بالعديد من الدراســات المستفيضة، على كل حال.

-٢-

هذه الأصــوات ذات الدلالة تبين أن هناك قفزة إلى الأمام في اعتراف الجمهور بمشكلة التمييز بين الجنسين، وبآلام النساء.

إنَّ منظورها يشــير إلى بروز حسّ عام جديد بأن المساواة تمثل اهتماماً مشروعاً وليست قضــية ثانوية. فهؤلاء المناضــلون اســتندوا إلى عمل المؤرخيــن، والباحثين الاجتماعيين، والمنظّرين السياسيين، والفلاسفة، ودعموا طريقة جديدة في التفكير: مقاربة جديدة تعترف بقضــايا المرأة بصفتها مشــكلات اجتماعية وأخلاقية كبرى، وليســت اهتمامات مجموعة صغيرة تسمّي نفسها، أو يطلق عليها اسم «أنصار المرأة Feminists».

ولكن كيف استطاع هؤلاء جعل قضيتهم تأخذ هذا البعد العالمي؟

إنَّ إحدى طرائقهم، وأهمها، كان التذكير بشــبح «عبيد المحيط الأطلسي»؛ لأن ما علّمنا إياه الباحثون الاجتماعيون والمؤرخون حول تجارة العبيد عبر الأطلسي، يقود إلى إثارة بعض الأسئلة حول الإجماع الجديد حول حقوق المرأة.

ومؤلفا كتاب «نصــف الســماء» يؤكدان بأنه كما كان التحدي الأخلاقي الأكبر في القرن التاســع عشر يتمثل في إيقاف العبودية وتجارة الرقيق، فإن التحدي الأكبر في القرن الواحد والعشــرين ســيكون النضال في سبيل المساواة بين الجنســين على صعيد العالم. وفي كتاب «قوانين الشــرف» تمثّل إزالة الفروق بين الجنســين، وما ينتج عنها من إنقاذ للنساء، القضية الرئيسة للثورات الأخلاقية عند أبييا.

-٣-

من السياسات المطروحة لتحقيق هذا الهدف تعليم النساء وزيادة الوعي لديهن لتقويتهن وتمكينهن من المطالبة بحقوقهن، والوقوف في وجه التجاوزات إزاءهن.

ولتقوية المرأة أكثر من جانب:

١- جانب تربوي يوقظها، ويزيد وعيها بمشكلتها، وبالإستراتيجية أو الإستراتيجيات التي يمكن اتباعها لمواجهتها والتخلص منها.

٢- وجانب اقتصـــادي، يتمثل في تأهيلها لممارسة أعمال تعتمد عليها لتحقيق استقلالها المادي، ودعم قضيتها...

٣- وجانب اجتماعي يتمثل في انخراط أكثر من فئة اجتماعية بدعم القضـــية، وتضافر المساعي، حسب موقع كل فئة في النسيج الاجتماعي...

٤- وهنـــاك جانب دولي عالمي يتمثل في مســـاعدة النســـاء - والرجـــال إن أمكن - في البلـــدان المتقدمـــة مثيلاتهن في البلدان النامية، عن طريق الاشـــتراك فـــي بناء المدارس، وإقامة المستشفيات، والتدريب.

وتجـــدر الإشـــارة هنا إلى أن العمـــل الطوعي في البلدان النامية، الـــذي تلتحق به بعض الشابات الأوروبيات أو الأمريكيات حالياً يعود بفوائد جمة عليهن أيضاً، فهو يساعدهن على زيادة خبراتهن، ونموّهن، وتفتيح شخصياتهن.. وفي ذلك تقوية للمرأة بصورة عامة.

إلى جانب تعليم النساء، يجب تعليم الرجال أيضاً، وزيادة وعيهم لمساعدتهم على نقد ما يسود مجتمعهم من تقاليد وأعراف وعلاقات، بحيث يتمكنون من توجيه سلوكهم وفق مبدأ المساواة بين الجنسين.

يبقى أن نقول أخيراً، إن الدعوة للمساواة بين الجنسين قد يكون لها هدف أبعد..

إنه، إنقاذ العالم مما يتعرض له من مخاطر، وإحلال الســـلام والرخاء، محل الاســـتغلال والعدوان؛ لما عرف عن النســـاء من مشاعر إنســـانية، وحبّ للمشاركة والعطاء. فالقضية لا تعني إحلال النســـاء مكان الرجال في مواقع صنع القرار فحسب، بل تغيير القيم والمثل التي ســـادت العالم حتى الآن، والتي لا تختلف كثيراً عن قوانين الغاب.. تلك، التي تجعل الضعفاء تحت رحمة الأقوياء، وتنكر عليهم أي شكل من أشكال المساواة.

من جانب آخر، لابد لنا نحن الســـوريين، من التســـاؤل في غمـــرة تفكيرنا حول ما يجب التركيز عليه في بناء مجتمعنا بعد سنوات من الحرب والدمار والتشظّي..

قد يتبـــادر إلى الذهن أولاً الموضـــوع المادي، من بناء للبيوت والشـــوارع والمؤسســـات والمصـــانع وترميم للآثار... إلخ. كل هذا صـــحيح.. ولكن الأهم من ذلك بناء الإنسان الذي استُخدم أداة للتدمير فكان ضحيته.

لقد عانى الإنسان في سورية بجميع فئاته: كباراً وصغاراً... رجالاً ونساءً.. فقُتل من قُتِل.. وشرِّد من شرِّد.. وتضرر من تضرّر بخلل أو نقص من نوع ما...

من هنا، تأتي أولوية قضـــية المرأة، فهي زورق النجاة، وشـــطّ الأمان؛ ولذلك يجب العمل على استقصـــاء مشكلاتها، وإحاطتها بجميع أشكال الرعاية التي تحتاج إليها، في أقرب وقت ممكن..

المراجع

_ Abu – Lu Ghod, Lila, Do Muslim Women 2015. Need saving? Harvard University Press, Cambridge, Massachuselts & London, England.

_ Grispin, Jessa, Why, I Am Not a Feminist, A Feminist Manifesto, Melville House, Brooklin, London, 2017.

من فضاء النقد الأدبي

د. عادل الفريجات

تأثير النقد

أذكر جيداً أنني طالعت فيما مضى ملاحظات سلبية على نتاج أدبي إبداعي للكاتب المرحوم (ممدوح عدوان) في مطلع حياته الأدبية نشرها الكاتب الراحل (عادل أبو شنب) في أحد منابر النشر السورية. ولكني أذكر أيضاً أنني بعد سنوات من ملاحظات (أبو شنب) سمعت حكماً نقدياً إيجابياً على طريقة (عدوان) في الكتابة الفنية أطلقته المخرجة السينمائية (واحة الراهب) مفاده: أنك لا تستطيع أن تستغني عن كلمة واحدة أو عبارة من عبارات (عدوان) حين يكتب حواراً في عمل يقدم للشاشة، دون أن تتأثر بنية العمل بأسرها، حتى إذا غامرت في ذلك، بداية، ستجد نفسك مضطراً للتراجع نهاية، مما يشير إلى أننا أمام بناء فني محكم متماسك، لا مجانية ولا عبث في عباراته. وهذا لعمري حكم رائع من مخرجة سينمائية لأعمال (سيناريست) وروائي وناقد ومترجم، أفاد من نقدات سلبية في بعض ما قدمه في شبابه.

أثر الفراشة، محاولة ربط

أتساءل بعد قراءتي لقول جبران خليل جبران الآتي: «ستبقى الفراشة متنقلة بين الحقول، وقطرات الندى لامعة بين الأعشاب، بعد أن تمحى أهرامات مصر، ولا يبقى أثر لأبراج نيويورك». أتساءل: ألا يمكن احتساب هذه العبارات جذراً لقصيدة محمود درويش «أثر الفراشة» (٢٠٠٨م) التي يقول فيها:


جبران خليل جبران

أثر الفراشة لا يرى / أثر الفراشة لا يزول / هو جاذبية غامض يستدرج المعنى ويرحل حين لا يتضح السبيل / هو خفة الأبدي في اليوم / أشواق إلى الأعلى، وإشراق جميل.

وملائم التنبيه إلى أن خلود أثر الفراشة محمول على التكاثر والاستنبات ودوام الحياة، رغم دقة وجوده وذوبانه في الخفاء، حيث تحتدم تفاعلات الولادة والتكون.

وربما يتساءل غيري عن علاقة هذا الشعر بالفيزياء من حيث رفة جناح الفراشة، وأثره المدمر في الكون رغم خفته واختفائه عن أعين الرائين.. ويشار هنا إلى أن فلماً سينمائياً لمخرج أمريكي عنوانه «تأثير الفراشة» بدأ بالقول: «إن شيئاً بسيطاً كرفرفة جناح فراشة يمكن أن يسبب دماراً في أنحاء العالم» الشأن الذي يذكِّر بالقشة التي قصمت ظهر البعير.

وتمتد سلسلة الربط ومفهوم النص المرفل إلى تذكر أن المطربة الفلسطينية (ريم البنا) قد غنت قصيدة درويش ذاتها «أثر الفراشة».كما غنت قصائد أخرى. وقد أحرزت (البنا) لقب شخصية العام (٢٠١٦م) الثقافية في فلسطين.

الرسالة والرواية

كما للغزل أدبه، وللحرب أدبها، وللرحلة أدبها، وللتعليق الرياضي أدبه، كذلك للرسالة أدبها. وهو أدب له أبعاد وآفاق متعددة، وله أجناس مختلفة في تراثنا. وقد وقف عنده باحثون عدة أمثال صالح بن رمضان، وجابر قميحة، ومحمود المقداد. وكان لكل منهم زاوية للنظر وخطة للبحث.


ألكسندر دوماس

واستثمر كتاب مبدعون فن الرسالة في رواياتهم. ومن هؤلاء، على سبيل المثال لا الحصر، الكاتب الفرنسي (ألكسندر دوماس) في روايته «غادة الكاميليا» وتوفيق الحكيم في «زهرة العمر» وحسن حميد في روايته «مدينة الله» والروائي السوداني أمير تاج السر في روايته «٣٦٦» ونادر السباعي في إحدى رواياته، الأمر الذي يجعل من هذه الظاهرة موضوعاً جديراً بالتتبع والدراسة المعمقة. وقد بذلت جهداً متواضعاً في هذا الباب في دراسة لي لرواية حميد «مدينة الله» قبل سنوات، وألقيت ملخصاً لدراستي

في جلســة نقدية بمكتبة الأسد، بمناسبة احتفال دمشق في العام (٢٠٠٩م) بالقدس عاصمة للثقافة العربية.

بعض القراءات إبداع

لا جدال في أن لقراءة أي نص أدبي أو ديني أو تاريخي قديم وغير أصــيل، أي ليس هو بالنســخة الأم، مســتويات متفاوتة. ومن أبرز تلك المســتويات تلك التي يقرأ أصحابها تلك النصوص أو بعضاً منها في إطار سياقي أو ثقافي. معين، فيرون أن هناك عبارات أو سطوراً قد سقطت منه، وبالعكس ربما تكون قد أضيفت إليه.

تلك العبارات أو الســطور ربما أضيفت بحسن نوايا النساخ، وربما بسوء نواياهم. والأمثلة علــى ذلك متعددة وخاصــة في بعض النصــوص الدينية. وبالطبع ليس لناقد حصــيف أن يخبط خبط عشواء حين يصدع بذلك، فإضافة إلى قدرته على التحليل والاستبطان وثقافته الموسوعية، لا مناص له من أدلة داخلية وأدلة خارجية تؤيد ما ذهب إليه في حالتي النقص أو الزيادة. ونحن بوصفنا قراء لنا الحق في أن نزكي قراءته واجتهاداته، أو نستنكرها. وحين نجــد جدة في الاجتهاد، وقوة في الإقناع لذلك القارئ المبتكر ينبغي أن نرفع له القبعة، لأن في بعض القراءات إبداعاً حقيقياً.

والحــق أنني عاينت عدداً من نماذج تلك القراءات، ودهشــت مــن عمق القراءة، وأكبرت القارئ الذكي الذي أسفرت حججه عن قدر كبير من قوة الإقناع وعمق الثقافة

عبد الناصر وديغول والآثار الفنية


نجيب محفوظ

يروى أن الرئيس الراحل (جمال عبد الناصــر) منع المشــير (عبد الحكيــم عامر) من اعتقال نجيب محفوظ بســبب روايته «ثرثرة فوق النيل» لما حوته من نقد للنظام السياســي على نحو رمزي... وحين تحولت رواية ثروت أباظة «شيء من الخوف» إلى فلم سينمائي حاول بعض المسؤولين آنئذ منع عرض الفلم، بحجة أن (عتريس) بطل الفلم يرمز لعبد الناصــر على نحو سلبي جداً. حضــر (عبد الناصر) الفلم أولاً، وسمح بعرضه قائلاً: «ينبغي أن يتاح للكتّاب والفنانين حرية الكشــف عن السلبيات والإشارة إلى

العيوب والثغرات، أكثر من التقارير الرسمية، ولو أن الشعب رأى أن (عتريس) الذي كان يحب (فؤادة) في الفلم المذكور يرمز لي، لما كنت أستحق أن أكون رئيساً لمصر».

أما (شارل ديغول) فيؤثر عنه ما يلي: في ثورة العام (١٩٦٨م) الشبابية شارك (جان بول سارتر) في المظاهرات، وفي توزيع المنشورات المناهضة للسلطة، فاعتقله رجال الأمن مع آخرين. فبلغ الأمر الرئيس الفرنسي (ديغول) فقال: «من يستطيع أن يعتقل فولتير؟ اتركوه حراً». ويروى أنه قال: «كيف لي أن أعتقل ضمير فرنسا؟». والمعروف أن (سارتر) كان مناصراً للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي. ومن أقواله المأثورة: «السلام هو الحرية».

من محن الفكر النقدي



يوسف اليوسف

عندما أتأمل في قاعدة من قواعد النقد الأدبي تقول لي: «عليك أن تقارب أي نص أدبي (أو غير أدبي) وأنت مجرد من الهوى، والفكرة المسبقة، وبعبارة أخرى: عليك أن تكون نظير طائر الفينيق الذي ينبعث من رماده حيّاً بعد احتراقه، كما تقول الأسطورة... عند ذلك أشعر بعظم المسؤولية، وبأني أمام فكرة غاية في الخطورة، وخاصة إن بدا لي أن أحكم على النص المدروس حكماً يخالف ما ساد واستتب في الأوساط والنفوس، وذلك لما قد يثيره هذا الحكم من عواصف ومواقف.

وقد شهد الحراك النقدي في زماننا ما يندرج في نطاق الفكرة السابقة، فقد أدلى الناقد يوسف اليوسف بتصريح يقول: «إن محمود درويش ليس بشاعر عظيم». وقال ناقد آخر «إن زكريا تامر ليس بقاص كبير» وكتبت مرة في بحث لي عن نزار قباني أقول ما خلاصته: أن نزاراً قد تراجع إبداعه الشعري كثيراً جداً في أخريات أيامه، ولم يأت البتة بما يعجب أو يبهر.

وفي كل ما تقدم أحكام جديرة بالمتابعة، بروح موضوعية، وبتحليل يستند إلى النصوص ومشفوع بالحجة والبرهان. مع الإشارة إلى أن الذوق الفردي لا يمكن أن يتخفى في أي حكم نقدي. ولكن شتان بين ذوق خبير وذوق فطير.

الأدب والتنبؤ

لا ريب في أن رؤية الأديب غالباً تختلف عن رؤية غيره من الناس العاديين، فهي عند بعض الأدباء أشد نفاذاً وربما يقدر بعضهم على النفاذ إلى المستقبل من خلال خلل الحاضر وإرهاصات يراها هو ولا يراها غيره. وتأكيداً لذلك رأى بعض النقاد في رواية نجيب محفوظ «ميرامار» نبوءة بهزيمة مصر في العام (١٩٦٧م). ورأى آخرون في بعض روايات محمد ديب (الحريق مثلاً) إرهاصاً بثورة الجزائر ضد المحتل الفرنسي في العام (١٩٥٤م). وقرأت في دراسة لي لرواية عبد الكريم ناصيف «يوميات سميراميس» (دمشق ٢٠٠٧م) أن تحذيراً أدبياً واضحاً من أحداث عاصفة قد تمر بها سورية. وكذلك أشار الدكتور (عادل الأسطة) إلى نبوءة أدبية للكاتب أكرم هنية ساقها في قصته «بعد الحصار» المدرجة في مجموعته «السفينة الأخيرة... الميناء الأخير» ففيها يقول هنية: «يصحو أهل القدس ويذهبون إلى أعمالهم ويمارسون طقوسهم وشعائرهم، ويلاحظون أن مسجد الصخرة قد اختفى من مكانه».



نزار قباني

وعلى صعيد الشعر ألقى (نزار قباني) في مهرجان المربد في العام (١٩٨٥م) قصيدة له عنوانها «مسافرون» نقاطف منها:

مسافرون نحن في سفينة الأحزان / مواطنون دون وطن / مطاردون كالعصافير على خرائط الزمن /مسافرون دون أوراق وموتى دون كفن / كل حاكم يبيعنا، ويقبض الثمن /نركض كالكلاب كل ليلة من عدن لطنجة ومن طنجة إلى عدن / نبحث عن قبيلة تقبلنا، وعن ستارة تسترنا، وعن سكن /

معتقلون داخل الحزن / معتقلون داخل الدين كما فسره إمامنا/معتقلون داخل النص الذي يكتبه حكامنا /لا سادة الحجاز يقبلوننا، ولا رعاع البادية/ ونحن نسل الجارية.

التلفزيون والكتابة الدرامية

عماد نداف

ظهور التلفزيون في سورية

ظهـر التلفزيـون، وتطور أداؤه في العالم، في العقد الرابع من القرن العشـرين، وكان هذا الظهور ثورة مهمة على صعيد إيصال الصورة إلى الناس سيجري العمل على تطويرها يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ففي عام (١٩٣٦م) كان باستطاعة أجهزة الاستقبال التلفزيونية في مدينة نيويورك «التقاط الإشارات عن بعد ميل واحد، وفي عام (١٩٣٧م) بدأ استعمال الهوائي المثبت على مبنى الأمبايرستيت من الجمهور، وقامت شركة (آر سي إي، وإن بي سي) بإيصال التلفزيون إلى عامة الشعب. وأصبح بإمكان عابر الشارع الوقوف ومشاهدة عمل الاختراع الجديد وذلك بترتيب خاص في بعض الشوارع»[1].

وفي السـابع من تموز عام (١٩٣٨م) بُثت مسـرحية (سوزان والله) من (برود واي) عبر اسـتوديوهات (إن بي سـي) وفي العام نفسه أعلن دافيد سارنوف رئيس مجلس إدارة شركة (آر سي إي) أمام مؤتمر لجمعية مصنعي أجهزة الراديو طرح أجهزة التلفزيون للبيع للجمهور عند افتتاح المعرض الدولي عام (١٩٣٩م).

وخلال ذلك العام أمكن بث الإشـارات التلفزيونية مسافة (١٦٠) ميلاً من مدينة نيويورك وحتى مدينة سينيسـكتادي بولاية نيويورك، وفي السـنة اللاحقة وبتاريـخ الأول من فبراير (شباط) (١٩٤٠م) تمت أمام أعين أعضاء من مؤسسة الاتصالات الفيدرالية عملية بث صور

تلفزيونية من مدينة نيويورك إلى مدينة سينيسكتادي، ثم جرت إعادةُ بثّها إلى نقاط أخرى في أعالي ولاية نيويورك، ورغم أن هذه العملية تمت على مستوى تجريبي صغير إلا أنها شكَّلت ميلاد أول شبكة تلفزيونية في العالم..[٢].

إن الغاية من المقاطع السابقة حول ظهور التلفزيون في أميركا هي التمهيد لمسار شبيه يمكن الرجوع إليه عن ظهور التلفزيون في سورية بعد نحو ربع قرن، وقد مهدت الصحافة في سورية لذلك بمقال، من أجمل المقالات التي لها علاقة بالموضوع وأطرفها، فقبل شهرين من بدء البث التلفزيوني، وتحديداً في (١حزيران/١٩٦٠م) نشرت مجلة فنية سورية مقالاً بعنوان: «ما يجب أن تعرفه عن جهاز التلفزيون قبل انتشاره»، وينصح المقال المواطنين بشراء جهاز كبير لأنه الأنسب «ولكن بشرط أن تتوفر لديك المسافة اللازمة لرؤيته بشكل جيد. إن الحجم الكبير يجب أن يكون بعيداً عن عينيك مسافة تتراوح بين (٣,٥ - ٤) أمتار..

ويجب أن يعمل جهازك على توتر (١١٠) فولط أما إذا كان توتره (٢٢٠) فيجب الاستعانة بمحول (ترانس)..»[٣]. وحذر المقال من مخاطر هذا الجهاز، فمنع منعاً باتاً قاطعاً «أن تمد يدك إلى الجهاز والتيار متصل به لأي سبب كان لأن التيار يتراوح بين (٩ و١٨) ألف فولط وهذا التيار يستطيع أن يصرع فيلاً في ثانية واحدة أو أقل.. ممنوع منعاً باتاً قاطعاً أن تنقر على شاشة الجهاز حتى ولو استبد بك الطرب. لأن الشاشة سريعة العطب وإذا تعرضت لنقر من هذا النوع فإنها تنفجر..!!»[٤].

وبعد شهرين من هذا التحذير الصحفي، الذي يذكرنا بتصورات الخيال العلمي، بدأ «التلفزيون العربي السوري» إرساله فعلاً مساء يوم (السبت ٢٣ تموز عام ١٩٦٠م) من قمة جبل قاسيون في دمشق، وفي كلمة بُثَّت على الهواء قال مديره الأول الدكتور صباح قباني مخاطباً المشاهدين: «إن التلفزيون هذا الصديق الجديد الذي تحتفون به اليوم إنما له ما لأصدقائكم من ميزات كثيرة وهنات صغيرة، فاغفروا هذه الهنات فنحن في أول الطريق. وسنبذل خير ما عندنا لنصل إلى خير ما ترضون وإلى خير ما يدعم وحدتنا الكبرى»[٥]، ولأن تلفزيون دمشق كما يسميه الدكتور قباني كان توءم التلفزيون المصري، فإن مجلة الإذاعة والتلفزيون القاهرية «خصصت حيزاً كبيراً في أحد أعدادها (عدد١٣) (آب/ أغسطس/ ١٩٦٠م) للتحدث عن برامج هذا التلفزيون وجعلت غلاف هذا العدد يحمل بكامله صورة مبنى تلفزيون دمشق على قمة الجبل واختارت لها عنواناً هو كلمة (المعجزة)..»[٦].



أقيمت أول محطة إرسال بقوة (١٠) كيلو واط، واستمر الإرسال لمدة ساعة ونصف فقط في اليوم الأول من داخل استديو متواضع شُيِّدَ بجانب محطة الإرسال تلك..

كانت المواد التلفزيونية تبث في دمشق في اليوم الأول ثم تبث محافظات حمص وحلب الأشرطة المسجلة في اليوم التالي، وبعد سبعة أعوام أي «في عام (١٩٦٧م) تم لأول مرة ربط محطات دمشق وحمص وحلب وصلنفة بشبكة وصل ميكروية بحيث أصبح التلفزيون يبث برامجه في آنٍ واحد من استوديوهاته في دمشق إلى جميع المناطق»[٧]. كانت الخطوة في سورية رائدة فعلاً، وقد أوكلت مهمة تأسيس التلفزيون العربي السوري للدكتور صباح قباني، «وفوق قمة قاسيون جبل دمشق الخالد، وعلى ارتفاع ألف ومئتي متر عن سطح البحر أقيمت محطة الإرسال التي كان عليها أن تغطي في المرحلة الأولى مدينة دمشق، ومن غرفة لا يتجاوز طول جدارها الأكبر عشرة أمتار قدمت البرامج ونشرات الأخبار والتمثيليات والفقرات التلفزيونية المنوعة على الهواء مباشرة»[٨]، وفي هذا المكان المتواضع لصناعة التلفزيون وقف الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل يراقب الأداء الفني لواحد من طواقم العمل في التلفزيون الوليد، ويقول صباح قباني: «وأذكر أن أحد زوارنا من الصحفيين المرموقين، وهو الصديق محمد حسنين هيكل تجشم عناء الصعود إلى الاستوديو في الطريق الوعر، ذات ليلة شتائية قارسة البرودة في شهر آذار/ مارس (١٩٦٠م) ليشهد معي في غرفة المراقبة إخراج برنامج فني ثقافي أثارت جاذبيته في نفسه الدهشة والإعجاب»[٩]. وفي معطى آخر يتعلق بإطلاق البث التلفزيوني السوري، انتقل التلفزيون إلى مبناه الجديد في ساحة الأمويين بعد أقل من سنة على انطلاقة

التلفزيون «واستلم اســتوديوهاته الجديدة. وهذه الاستوديوهات تختلف اختلافاً يسر القلب عن ذلك الاستديو القائم في قمة جبل قاسيون والذي عمل فيه التلفزيون أكثر من سنة.

إن أحداً من المتفرجين لم يشعر بأن التلفزيون كان في حالة نقلة منذ شهر، ولكن العاملين فيه شعروا بذلك وكانوا يكيفون عملهم بحسب الأجهزة التي كانت تنتقل بالتدريج»[١٠].

وثمــة ملاحظــة على غاية الأهمية تتعلــق بالطرف الآخر من البث، أي المشــاهد، فإذا كان البث قد بدأ فعلاً، فهل كان لدى المشــاهدين أجهزة لمتابعته؟ والجواب أنه لم تكن تلك الأجهزة متوفرة «سوى تلك التي وزعتها الدولة في بعض الساحات العامة بدمشق وكان هناك أجهزة أخرى امتلكها بعض أصــحاب المحلات التجارية الكهربائية وعدد يســير جداً امتلكه بعض المواطنين في دمشق»[١١].

عملياً كان التلفزيون يحتاج إلى مادة يعرضها للجمهور الذي هو الطرف الآخر في معادلة الاتصـــال، ومنذ اللحظة الأولى، كان من الضــروري الالتفات إلى الصورة التلفزيونية، لأنها الجديد في ظهور التلفزيون كوســيلة اتصال جماهيري تميزه عن الراديو والإذاعة، فالراديو كان موجوداً وكان يمتلك شعبية عارمة في العالم، وكان من الصعب التوقع بأن ثمة شيئاً آخر قادر على منافســته، ففي الوقت الذي كانت تجري فيه ولادة التلفزيون التدريجية ومحاولات حل مشكلة اتســاع رقعة البث، كان يجري الحديث عن الراديو كأفضل وسيلة ذات مصداقية بيــن الجمهور لأنه «يخترق.. جميع ســكان العالم تقريباً، بوجــود أكثر من (١٠٠٠٠) محطة عاملة في الولايات المتحدة وحدها»[١٢].

فــي ذلك الوقت لم يكن عصــر الســينما بعيداً عــن تلك القفزات المتتابعة في وســائل الاتصـــال، فمنذ عام (١٨٩٥م) عندمـــا أنتج الأخوان لوميير أول فيلــم لهما بعنوان «مغادرة مصـــنع لوميير»، وصولاً إلى عصر الســينما الناطقة، ومروراً بالسينما الصامتة، كان واضحاً أن حضوراً آسراً للسينما سيشهده العالم، وساعد عليه ظهور روائع الأفلام السينمائية كذهب مــع الريح، والمواطن كين، وانتهاء الحرب العالمية الثانية، واتجاه العالم إلى تناســي الموت والدمار بحضور الأفلام السينمائية الآسرة..

ولأن الصــورة هي ميزة وسيلة الاتصال الجديدة، التي سميت بالتلفزيون، فإن السينما ستطل برأســها ســريعاً، وتحاول إيجاد مقعد لها عبر الشاشــة الصــغيرة، التي بدت وكأنها ابنتها، فهل ستشــهد السينما عصر أفولها الذي هو عصر الانتقال للتلفزيون، أم ستكون الأقوى في المنافسة

إلى النهاية؟ وهناك سؤال ذو معنى: «ماذا تعمل صناعة الأفلام لمواجهة شاشة صغرت إلى (٢١) إنشاً ووضعت في غرفة المعيشة؟ كيف تستطيع السينما منافسة مسلسل: أنا أحب لوسي، وتكساسو مسرح النجوم، الذي يلعب دور البطولة فيه إدسو ليفان وملتون بيرل؟..»[١٣].

شق التلفزيون طريقه، وسريعاً كان اقتناؤه يزداد إلى أن صار يرتبط بتأثيث البيت أو المنزل أو حتى المكتب، وبيعت ملايين الأجهزة في العالم، وتنافست الشركات على تطويرها، ثم دخلت الوكالات الإخبارية على الخط وصار التلفزيون مصدر الخبر الأول والمباشر!

وفيما كان التلفزيون يغزو العالم، كانت وجهات النظر المناوئة له لا تزال تراوح في مكانها مخدوعة بمجد السينما والمسرح، «إلا أن هناك حقيقة لا شك فيها، وهي أن هذه الوسيلة الإعلامية أصبحت إحدى أقوى وسائل الاتصال في تاريخ الحضارة الإنسانية»[١٤].

أمام هذه الحقيقة، ظهر التلفزيون، وفي سورية وصفته الصحافة العربية بالمعجزة، كما ورد قبل قليل، وبهمة لافتة رسم العاملون خطة عملهم، ولم يترددوا في إعداد البرامج وتصويرها، وعلى الرغم من كل المصاعب التي اعترضتهم «شقت الدراما التلفزيونية السورية طريقها وتضافرت الجهود فأخرج خلدون المالح الإجازة السعيدة، وأخرج نزار شرابي رابعة العدوية..»[١٥] ورابعة العدوية هي مسرحية كان أعدها نزار شرابي للإذاعة!

الهوامش

١- مقدمة في الاتصال الجماهيري، جون آربايتر، مركز الكتب الأردني، (ص١٧٦).

٢- مقدمة في الاتصال الجماهيري، جون آربايتر، مركز الكتب الأردني، (ص١٧٩).

٣- مجلة هنا دمشق، ما يجب أن تعرفه عن جهاز التلفزيون قبل انتشاره، (العدد٦٨) تاريخ (١حزيران/ يونيو ١٩٦٠م).

٤- مجلة هنا دمشق، المصدر السابق.

٥- د. صباح قباني، كلام عبر الأيام (كتابات في الفن والتراث والسياسة)، دار طلاس دمشق، (ط١)، (٢٠١٠م)، (ص٢٩).

٦- صباح قباني، من أوراق العمر، (ص١٦٧).

٧- راجع موقع الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون: SRTV@rtv.gov.sy

٨- المهندس معن حيدر المدير العام للإذاعة والتلفزيون، ٥٠ ونستمر، كتاب وثائقي مصور صدر بمناسبة العيد الذهبي للتلفزيون العربي السوري، إعداد سعد القاسم.

٩- صباح قباني، من أوراق العمر (مسيرة حياة في الإعلام والفن والدبلوماسية)، دار الفكر، (ط١)، (٢٠٠٧م)، (ص١٦٧).

١٠- مجلة هنا دمشق (العدد١٩٧) تاريخ (١٦/ آب/ ١٩٦١م).

١١- رياض ديار بكرلي، الأبيض والأسود في عمر التلفزيون العربي السوري، هنا دمشق /مجلة الإذاعة والتلفزيون، (١٥ تشرين الثاني ١٩٧٧م).

١٢- جون بايتنر، مقدمة في الاتصال الجماهيري، (ص١٧٤).

١٣- جون بايتنر، مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيري، (ص٢٧٨).

١٤- مقدمة في الاتصال الجماهيري، جون آربايتنر، مركز الكتب الأردني، (ص١٧٦).

١٥- عماد نداف، محمد نداف، الدراما التلفزيونية، التجربة السورية نموذجاً، دار الطليعة الجديدة، (ص٢٢).

شبلي الملّاط شاعر الأرز

١٨٧٥- ١٩٦١

عيسى فتوح


شبلي الملّاط

«شبلي الملّاط» شاعر لبناني مجيد. عُرِف باسم «شاعر الأرز»، وكان يعد في الطليعة بين الشعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين. أمثال شوقي وحافظ ومطران وبدوي الجبل والزهاوي والرصافي والجواهري وبولس سلامة...

وُلِد الشاعر شبلي يواكيم الملّاط عام (١٨٧٥م) في بعبدا التي كانت يومذاك عاصمة لبنان، ومقراً للحكومة المركزية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨م)، وتوفي والده حين كان في الخامسة من عمره، فاهتم به أخوه الأكبر الشاعر تامر (١٨٥٦- ١٩١٤م) الذي كان يكبره بتسعة عشر عاماً، ووالدته عطر أبي ياغي الحلو التي تحملت أعباء الأسرة رغم ضيق ذات يدها.

تلقى دراسته في مدرسة «مار عبدا هرهريا»، ثم في مدرسة «الحكمة» المارونية التي أسسها المطران يوسف الدبس (١٨٣٣- ١٩٠٧م) مدة أربع سنوات فقط على العلّامة عبد الله البستاني (١٨٥٤- ١٩٣٠م)، ثم اضطر إلى ترك الدراسة، ومرافقة أخيه تامر في عمله القضائي، متنقلاً بين الشوف وجزين وزحلة وبيت الدين وكسروان... ولما بلغ الخامسة والعشرين عمل في تدريس اللغة العربي في غزير، ثم اللغة الفرنسية في مدرسة المطران

غفرائيل الأرثوذكسية في بيروت. وكان من طلابه فيها المطران إيليا الصليبي، والأخطل الصغير (١٨٨٥- ١٩٦٨م).

في عام (١٩٠٢م) قام بتدريس صفّي الخطابة والبيان في مدرسة الحكمة، وكان من طلابه فيها مارون عبود (١٨٨٦- ١٩٦٢م)، وفي عام (١٩٠٨م) ترك التعليم وأصدر جريدة «الوطن» التي تميزت بنزعتها التحررية وقد ساعده في تحريرها كل من فليكس فارس (١٨٨٢- ١٩٣٩م) وإسكندر العازار (١٨٥٥- ١٩١٩م) وداود مجاعص وداود عمون وغيرهم، فأسخطت مقالاتهم الجريئة بعض الحاقدين، فعمدوا إلى إضرام النار في مطبعتها. بعد أن عاشت ثلاث سنوات.

اضطر على أثر إحراق مطبعة الجريدة إلى قبول وظيفة رئيس القلم العربي في متصرفية جبل لبنان، وفي عام (١٩٢٠م) أسندت إليه وظيفة مراقب عام للبلديات، وفي عام (١٩٢٤م) عين مديراً لناحية زوق مكايل، حيث أتيح له أن يصادق ويلازم الشاعر (إلياس أبو شبكة) (١٩٠٣- ١٩٤٧م)، ويتطارحا الشعر، وفي عام (١٩٢٥م) عين مديراً لناحية زغرتا، وفي عام (١٩٢٩م) مديراً لناحية الشوير، وفي عام (١٩٣٠م) قائمقام لقضاء المتن...

في عام (١٩٥٣م) هجر كلياً جميع أعماله الإدارية، وأخلد إلى الراحة التامة في منزله الجميل في بعبدا الذي تحيط به أشجار النخيل الباسقة التي أهداه أصولها الزعيم الوطني المصري سعد زغلول (١٨٥٣- ١٩٢٧م)، وفي صباح الثامن من شباط (١٩٦١م) فاضت روحه إلى بارئها، وشيع في اليوم التالي بمأتم رسمي وشعبي حافل، وفي العاشر من كانون الأول (١٩٦١م) تنادى جمهور من أدباء لبنان لإقامة مهرجان أدبي كبير في قاعة اليونسكو في بيروت إحياء لذكراه، شاركت فيه الحكومة اللبنانية والإذاعة السورية، والتلفزيون اللبناني، وصفوة من أدباء وشعراء لبنان والأقطار العربية منهم: رئيس الحكومة رشيد كرامي، أمين نخلة، نديم الجسر، كمال جنبلاط، حافظ جميل (العراق) بدوي الجبل (سورية) أحمد رامي (مصر)، أنطون قازان، سعيد عقل، بولس سلامة، إلياس ربابي، فؤاد أفرام البستاني، فؤاد صروف، عفيف الطيبي، ونجل الفقيد وجدي الملّاط.

غنى الشاعر «شبلي الملّاط» الشعر ورجاله في مهرجانات حافلة أقيمت لكبار الشعراء العرب تمجيداً وتأبيناً، ففي عام (١٩١٣م) دعي لتمثيل الأدباء السوريين واللبنانيين في الحفلة التي أقيمت لتكريم شاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢- ١٩٤٩م). في القاهرة،

وفي عام (١٩٢٧م) دعي إلى القاهرة أيضــاً ليمثل لبنان في تكريم الشــاعر أحمد شــوقي (١٨٦٨- ١٩٣٢م) ومبايعته بإمارة الشعر، فألقى قصيدته «فم الميزاب» التي بلغ عدد أبياتها مئة وثمانية أبيات، وأثارت حماسة وإعجاباً منقطعي النظير وقال فيها:

يا ساكنَ الوادي وشوقياتُه — زهرُ النجوم طلعن غيرَ خوابي
لك في ظلال الأرز فتيتُه الألى — يترنَّحون بها على استطراب
همّوا بغرة مهرجانك وانثنوا — يتناشدونك في كؤوس شراب
صفقتَ من خمر الشآم شرابهم — وعصرتَ ما في مصر من أرطاب...
يا شاعر الشرقِ المحلقَ نظرةً — فلقد بعثتُ إلى سماك خطابي
وحملتُ من لبنانَ أرواحَ الصَّبَا — ريا النسيم بعنبرٍ وملابِ
أثرُ الطيوبِ روائحاً وغوادياً — من شعر شوقي في فم الميزابِ
ونزعتُ من بردى جمانَ عقودهِ — حَلياً لجيدِ سُميّةٍ وربابِ
جابت قصائدك البلادَ شوارداً — وأوابــداً من ناهدٍ وكَعَابِ

وفي عام (١٩٣٤م) زار حلب بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال المطران الماروني جرمانوس فرحات (١٦٧٠- ١٧٣٢م). حيث ألقى قصــيدته «الشــهباء» التي بلغ عدد أبياتها مئة وســتة أبيات وقال فيها:

حقبٌ مررنَ ولا يزال يرن في — حلبٍ وبيعةِ بطرسٍ قيثارُهُ
حتى كأن أبا المعارفِ حاضرٌ — وعلى المدينةِ دائمٌ إسفارُهُ
لبست به حلبُ غلالةَ عزةٍ — تَعْساءَ مذ زُرّتْ بها أزرارُهُ
أغنى العقولَ بمُعْرَبَاتِ يراعهِ — وجلت غمامةَ عصرهِ أسفارُهُ
تسعون تأليفاً على ما شئت من — دينٍ ومن دنيا يدور مداره
أيام خِدْرُ الضادِ ما انشقت على — مستعربٍ من قومهِ أستارُهُ
عرفت به فضلَ البيانِ تميمُهُ — وقضت له بالسبْقِ فيه نزارُهُ

وبعد انتهاء مهرجان إزاحة الستار عن تمثال المطران فرحات أقام شباب حلب، مهرجاناً آخر لتكريمه، تكلم فيه باسيل أيوب وميشال عون. وإلياس ربابي وإميل صعب، ويوسف شُلْمُت،

فرد عليهم بقصيدة عفوية أبدى فيها حنينه إلى عهد المتنبي في حلب، وإلى العهد الوثيق بين الشام وعهدي فخر الدين المعني وبشير الشهابي في لبنان قال فيها:

وددت لو أن في الشهباءِ داري ... إذا أزمعت عن وطني ارتحالا
وإن جار الزمانُ عليّ فيه ... فلست أرى سوى حلبٍ مآلا
نزلت ربوعَهَا فحسبت أني ... أرى الأرزَ المقدسَ والجلالا...
بني أمي يعز علي أني ... أشدّ غداً إلى الوطنِ ارتحالا
وأهجر دارَكُم بالرغم مني ... مطيعاً من تركتُهُمُ عيالا
وكنت أحب لو يومي تمادى ... وليلي امتد بينكُمُ وطالا
ولكن قلّما في العيشِ كانت ... ليالي الأنسِ والنعمى طوالا

وفي عام (١٩٣٤م) أقام الشباب الوطني في دمشق حفلة تكريمية للمواطن اللبناني-السوري العصامي خليل معتوق. حضرها أقطاب الكتلة الوطنية في سورية، فألقى «شبلي الملّاط» قصيدة باسم الوفد اللبناني المشارك في التكريم، والمؤلف من عدد من الأدباء والصحفيين هم: رياض الصلح، وكاظم الصلح، وجبران التويني، ومحمد الباقر، وأسعد عقل، وإسكندر الرياشي، قال فيها:

جئنا دمشقَ وفي القلوبِ صبابةٌ ... لنرى الشبابَ الحرَّ في غَلَيانِه
وكذا الصديقُ إذا دعاه صديقُهُ ... لبّى وخفّ إلى لقا إخوانه
غرٌّ من الفتيانِ طار إليهمُ ... لبنانُ بالغرّان من فتيانه
يصبو ابن لبنانَ إلى بردى كما ... يصبو فتى بردى إلى لبنانِه
جَمَعَتْهُمُ صلةُ الفؤادِ وضمّهم ... أدبٌ كنُضْرِ الزهرِ في نيسانه...
أوَمَا ترى بردى يسيل وماؤه ... ما زال أحمرَ من دِما شجعانِه
والغوطةَ الخضراءَ حانيةً على ... صرعى الجهادِ الصيِّدِ من شبّانه...
إيهِ شبابَ دمشقَ إنا معشرٌ ... متلهّفٌ أبداً على جيرانه
متهللٌ للجارِ في أفراحهِ ... متوجعٌ للجارِ في أحزانه
فمصيركُمْ كمصيرِهِ وكيانُكمْ ... لو تعلمون مَعَلَّقٌ بكيانه
كتبتْ لنا الأقدارُ حظاً واحداً ... هل سيرُ دهرٍ مال عن دورانه؟

كان الشاعر شبلي الملّاط سيد من يقف على المنابر في المهرجانات الوطنية والقومية والاجتماعية، فلم يقم مهجران في لبنان أو سواه من الأقطار العربية، إلا دعي إليه. وجلجل صـوته الهادر فيه... فإضـافة إلى قصـائده الملحمية في مهرجانات شوقي، والمطران فرحان، وخليل مطران، وخليل معتوق، ألقى قصائد رنانة في مأتم الملك غازي في بغداد (١٩٣٩م)، والجامعـة الوطنية في عاليـه (١٩٢٨م)، وتهنئة الأمير عبد الله بن الحسـين (١٩٣٤م)، وابنه الأمير طلال في الأردن (١٩٣٥م)، وتحية فيصل الثاني ملك العراق، وتحية المغتربين...

ومن قصائده القصصية الطويلة التي اشتهر بها نذكر خولة بنت الأزور، وأم البنين، وسيف بن ذي يزن، وبين العرس والرمس، وشيرين الفارسية، وزنوبيا ملكة تدمر، وعذراء بانياس، وورقاء الشام وفتى الأرز التي تدل على طول نَفَسه، وتمكّنه من النظم، وسيطرته على القوافي مهما شطت ونأت...

آراء الأدباء والنقاد فيه

قال عنه تلميذه في مدرسـة الحكمة مارون عبود: «في شعر«شـبلي الملّاط» سرعة النهر المنحدر، أما على المنبر فهو مِكرّ مفرّ، ينصبّ وينقضّ كجلمود صخر حطّه السيل من علٍ... وهو قليل الظلال كثير الأنوار، ترتاح العين حين تقع على صوره، ولكنها قلّما تكتشف فيه شيئاً فيما بعد، وهذا ما يجعل صوره على قلتها باهتة، فإذا أردت مثلاً للشعر المطبوع، فاقرأ شعر «شـبلي» الذي جلّى في أغراض الشعر الكثيرة، وكان الشاعر الأوحد في القصص، وقد فاق في الشعر القصصي جميع معاصريه».

وقال أيضـاً: «في شـعره كثير من ملامح البحتري، فهو مثله لا يفصّـل الكلام على قدّ المعاني، بل يدع معانيه تخرج من نظامه، بحتري في ألفاظه السـهلة المنتقاة، وتقطيع أبياته أجزاء متساوية...».

وقـال أنطون قازان: «أما حكايـة «الملّاط» والمنبر، فحكاية العز في لبنان، إن مواسـم المنابر عندنا كمواسم الحرير. «شبلي الملّاط» والمنبر أخوا صفاء، ألّفت بينهما وحدة العمر. يعرف المنبر خطوته من بعيد، يهفو إليه على شـوق العناق. رفيع الصوت، إذا أنشد ارتفع له حجاب السـمع. ما تهيّب خطر الإبداع في وقفة علـى وقفة تليها، فله القدم الفارعة في كل مقام. فجَّر الله ينابيع البلاغة على لسانه، حتى غدا سيد الشعر الشفوي غير مدافع».

وقال فؤاد أفرام البستاني: «خيال مجنح وثاب. وحسّ مرهف دقيق، وصورة مشعة مترامية الخطوط، وألفاظ مدوية دوي خطا الأبطال في الخطوب الدُّهْمِ، وأسلوب سهل فياض فيه من تراتيل الموج في الليلة القمراء، وفيه من تدافع الصخور في العواصف الهوج».

وقال سعيد عقل: «يعجبني في شعر «شبلي الملّاط» شموخه، فكأن هذا العملاق جسد أبى إلا أن تكون متطلعاته دوماً إلى فوق. لا نأخذ على «شبلي» إسفافاً في العاطفة أو في المثل الأعلى الذي ينشد. وإن أخذت عليه بعض أشياء في الفن. يبقى «شبلي الملّاط» في تاريخ أدبنا صورة عن قمم لبنان».

وقال خليل رامز سركيس: «شعر «شبلي الملّاط» فخامة لبنانية ذات تطلع إلى التراث. لبنان في قلب «شبلي الملّاط». وشعر «الملاط» قطعة من قلبه، فلبنان إذاً هو منطلقه الشعري. صياغة كلاسيكية تستمد متانتها من إيمان الشاعر بلبنان، فكانت تسميته بـ«شاعر الأرز» تعبيراً طبيعياً عن عبقره. كما تستمد أصالتها من ذهاب «الملّاط» تعميقاً في الجذور العربية. وتوفيقه بينها وبين مبتغيات العصر».

وقال إلياس ربابي: «لم يجمد «شبلي الملّاط» في تأدية الرسالة عند حد معين، أو أفق فرد، فكانت له في العواصم العربية من القاهرة إلى الاسكندرية فدمشق فبغداد فحلب فعمّان... وقفات عز اخضرت لها أعواد المنابر رضواناً وتهليلاً، وكبرت فيها أم اللغات مباهاةً».

المصادر

١- وجدي الملّاط، شبلي الملّاط شاعر الأرز (مدرسة التلاقي الوطني) منارات من لبنان رقم (٣)، مؤسسة جوزيف الرعيدي، بيروت (١٩٩٩م).

٢- يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، مكتبة لبنان، بيروت، (٢٠٠٠م).

الاسم في اللغات الساميّة

الياس قطريب

من المعروف أنّ علماء اللغة صنّفوا اللغات الإنسانيّة التي ظهرتْ عبر التاريخ إلى أسر لغويّة، مستندين في ذلك إلى دراساتٍ وأبحاثٍ كشفتْ ما بين هذه اللغات من قرابة لغويّة وتاريخيّة، وما يجمع بينها من صفات ومميزات مشتركة، فجاء تصنيفهم على هذا الأساس، فكانت هناك أسرة اللغات الساميّة، وأسرة اللغات اللاتينيّة، وأسرة اللغات الجرمانيّة، وأسرة اللغات السلافيّة...

وأسرة اللغات الساميّة تضمّ لغاتٍ عديدة، مثل البابلية، والآشوريّة، والعربيّة، والآراميّة، والعبريّة وغيرها. وفيما يلي عرضٌ لآراء علماء اللغة فيما يخصّ الاسم في اللغات الساميّة، عبر مقارنة توضّح نقاط التشابه والخصائص المميّزة للاسم في تلك اللغات، ممّا يؤكّد وجود قرابة لغويّة وتاريخيّة بينها.

يُعدُّ الاسم واحداً من فصائل الكَلِم الأساسيّة التي تُشكّل عنصراً مهمّاً من عناصر اللغات الإنسانيّة عموماً، فبِه يُسمّى الأشخاص والأشياء، وهو من هذه الناحية يشكّل أهمّ مستوى للوحدات الدلاليّة.

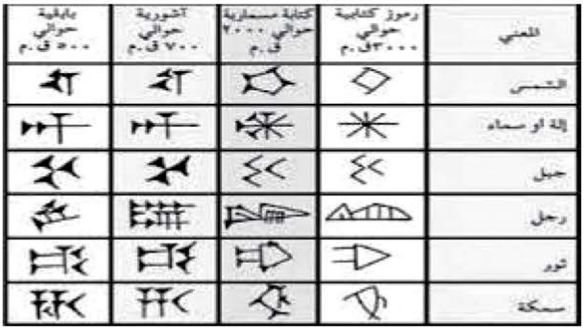
وقد كان لعلماء اللغة العرب اهتمامٌ بهذا الموضوع، فدرسوه تحت عنوان (أجزاء الكلام)، وأفردوا له مكاناً متميّزاً في مقدّمات كتب النحو، وجعلوه مدخلاً أساسيّاً للدراسات النحويّة والصرفيّة، إذ يكاد يُجمع النحاة القدماء على التقسيم الثلاثي للكلمة، فسيبويه يقول: «فالكلم:

اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل»[١]، ويتابعه المبرّد والرّماني وغيرهما في هذا التقسيم.

تصنيف الأسماء في اللغات الساميّة

تُصنّف الأسماء في اللغات الساميّة وفق ثلاثة معايير ثابتة، يمكن تطبيقها على كلّ اللغات الساميّة، وذلك لأنّ هذه المعايير مستنبطة منها، وهي العدد، والجنس، والحالة الإعرابيّة.

أمّا العدد فالمقصود به هنا كلّ ما يتعلق بالإفراد والتثنية والجمع. فاللغات الساميّة تُقسّم الأسماء هذا التقسيم الثلاثي، فكلّ اسم في هذه اللغات لا بدّ أنْ يدلّ على مفرد، أو مثنّى، أو جمع. وبهذا تختلف اللغات الساميّة عن غيرها من اللغات، وذلك لأنّ الاسم الدالّ على اثنين أو اثنتين له في اللغات الساميّة صيغة متميّزة، هي صيغة المثنّى القياسيّة في العربيّة.



أمّـــا الجنس فتصـــنّف اللغات الساميّة الأسماء إلى ما يُطلق عليه المذكّر والمؤنّث، وهو في الحقيقة ليس أكثر من تعارف أو اصـــطلاح أطلقه النحويون على وصف صيغة الاسم بأنها من المذكّر أو المؤنّث. وفـــي ذلـــك يقـــول المستشـــرق بروكلمان: «تُفرّق اللغات الســـاميّة بين نوعَيّ ما يســـمّى بالجنس، وهما المذكّر والمؤنّث. ويعبّر عن الأوّل عادة بالكلمة الأصليّة المجرّدة، كما يفترق الثاني عن الأوّل في معظم الأحوال بنهاية تتصل به»[٢].

أمّا الحالة الإعرابيّة للأسماء في اللغات الساميّة فذات تنوّع ثلاثيّ، وقد أطلق النحاة العرب على هذه الحالات مصـــطلحات الرفع والنصـــب والجرّ. ويُعدّ الإعراب على هذا النحو الثلاثيّ في العربيّة امتداداً للغة الســـاميّة الأولى، ذلك لأنّ هذه اللغات تُصنّف الأسماء من هذا الجانب ثلاثة تصنيفات، وتميّز في إعراب الاسم بين المرفوع والمنصوب والمجرور. يقول برجشتراسر: «والإعراب ســـاميّ الأصل، تشـــترك فيه اللغة الأكاديّة وفي بعضه الحبشيّة، ونجد آثاراً منه في غيرها أيضـــاً، غير أنّ العربيّة ابتدعت شيئين، الأوّل: إعراب الخبر والمضاف، وتتفق في بعض ذلك مع أخواتها، والثاني عدم الانصراف في بعض الأسماء، وتنفرد بذلك عن غيرها»[٣].

أبنية الأسماء في اللغات الساميّة

إذا نظرنا في اللغات الساميّة المختلفة وجدناها تستخدم أبنية اسميّة متعددة ومتنوّعة للتعبير عن شتى أوجه المفاهيم الاسميّة، وهذه الأبنية يمكن تقسيمها إلى:

١- أسماء ثنائيّة مشتركة الأصول، وصلت إلينا وموجودة في كلّ اللغات الساميّة.

٢- أسماء ثلاثيّة مجرّدة، وهي الأسماء الأكثر استعمالاً وتداولاً في كلّ هذه اللغات.

٣- أسماء رباعيّة مجرّدة.

الأسماء الثنائيّة

إنّ الدارس للاسم في اللغات الساميّة يلاحظ أنّ هناك ألفاظاً مشتركة في كلّ هذه اللغات تتألف من أصلين اثنين، وخاصّة تلك الألفاظ التي تدلّ على صلة القرابة وأعضاء الجسم، مثل (أب، أخ، أمّ، ذو، يد، سنّ، شفة، حم، دم) هذه الأسماء موجودة كلها في اللغات الساميّة. ففي العربيّة نجد كلمة (أب) تقابلها في العبريّة كلمة (aob)، وفي السريانيّة (aba)، وفي الأكاديّة (abu). ومنها كلمة (أخ) في العربيّة تقابلها كلمة (ah) في العبريّة، و(iha') في الآراميّة، وكلمة (ahu') في الأكاديّة. وكلمة (ابن) في العربيّة تقابلها كلمة (ben) في العبريّة، و(bra) في الآراميّة، و(binu) في الأكاديّة.

وفي هذا الصدد يقول برجشتراسر: «ومن الأسماء الثنائية ما آخره حركة ممدودة، وهي بعض أسماء القرابة نحو (أبو، وأخو، وحمو) ويشاكلها اسم محتو على حرف واحد فقط هو (فو) والحركة الممدودة سالمة في المضاف نحو (أبو زيد) و(أبونا) وقد قصرت مع التنوين نحو (أبٌ، وفمٌ... وحُذفتْ مع ضمير المتكلم المفرد، نحو (أبي). وكانت الفتحة السابقة لتاء التأنيث ممدودة أيضاً في هذه الأسماء، ومن ذلك في العربيّة (حماة) يقابلها في العبريّة (hamot) وفي الآراميّة (hmata) وفي الأكاديّة (emetu'). وقد توجد فتحة ممدودة نحو (ماء) أصلها(may) فهي في الحبشيّة (may) وقصرت الحركة في العبريّة والآراميّة فصارت(mayyaو mayim) واتحدت بالإعراب في الأكاديّة فأصبحت (mu) ويماثلها في العربيّة (شاء)، ولا نعرف صيغتها الأصليّة معرفة يقينيّة، فالواحدة منها (شاة) وهي في العبريّة (se)، وفي الأكاديّة (su'u)»[٤].

الأسماء الثلاثية المجرّدة

أمّا الأسماء الثلاثيّة المجرّدة فهي الأكثر استعمالاً، والأكثر تداولاً وانتشاراً في هذه اللغات. وقد عبّر النحاة العرب عن هذه الأصول الثلاثيّة الصامتة بالفاء والعين واللام، إذ إنّ فكرة الميزان الصرفي قامت عندهم على أساس التمييز بين الحروف الأصول الممثلة في الميزان الصرفي بالفاء والعين واللام، وبين ما يطرأ على الكلمة المفردة من تغيير بالإضافة أو الحذف. ففي العربيّة هناك عشرة أبنية أو أوزان أصلية للاسم المؤلف من ثلاثة أصول، وهي:

١ – فَعْل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: بيت، صقر، والصفات مثل: سَهْل، ضَخْم.

٢ – فَعَل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: جبل، قمر، والصفات مثل: حسَن، بطل.

٣ – فَعُل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: رجُل، ضبُع، والصفات مثل حدُث وندُس.

٤ – فَعِل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: كتِف، نمِر، والصفات فَرِح، طرِب.

٥ – فُعْل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: قُطْن، جُرح، والصفات مثل: حُلو، مُرّ.

٦ – فُعَل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: جُرَذ، صُرَد، والصفات مثل: حُطم، لُبَد.

٧ – فُعُل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: عُنُق، أُذُن، والصفات مثل: جُنُب، أُحُد.

٨ – فِعْل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: عِلْم، جِلْد، والصفات مثل: مِلْح، نِكْس.

٩ – فِعَل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: ضِلَع، شِبَع، والصفات مثل: عِدى، سِوى.

١٠– فِعِل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: إبِل، والصفات مثل: إبِد. وهو قليل جداً[٥].

وفي الأسماء الثلاثية الأصول يقول برجشتراسر: «وكثير من الأسماء الثلاثية أصليّ أيضاً، وبالأخصّ من أسماء الأشياء الماديّة المنظورة الملموسة، منها الحيوانات كالنمر والذئب والثور والكلب والنسر، ومنها النبات، كالعنب والثوم والقثاء... ومنها أعضاء البدن كالرأس والعين والأذن والأنف... ومنها غير ذلك كالسماء والشمس والأرض والحقل... وكلّ الأسماء المذكورة ساميّة الأصل موجودة في كلّ اللغات الساميّة»[٦].

ويقول بروكلمان: «ترجع الكثرة العظيمة لأبنية الاسم في اللغات الساميّة إلى ثلاثة أصول من الأصوات الصامتة»[٧].

والأمثلة على ذلك أكثر من أنْ تُحصى وتُعدّ. ففي العربية كلمة (كلب) تقابلها في العبرية كلمة (keLeb)، وكلمة (kLeb) في الآرامية، وكلمة (kaLbu) في الأكادية. وكلمة (جمل) في العربية تقابلها كلمة (qamaL) في اللغة العبرية، وكلمة (qamLa) في الآرامية[٨].

الأسماء الرباعيّة المجرّدة

أمّا أبنية الأسماء الرباعيّة المجرّدة فهي ليست قليلة في اللغات الساميّة، ففي العربية هناك ستة أبنية مستعملة للاسم الرباعيّ المجرّد، وهي:

١- فَعْلَل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: جعفر، عنبر، والصفات مثل: سلهب، بلقع.

٢- فُعْلُل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: بُرْقُع، جُؤْذُر، والصفات مثل: جُرْشُع، جُخدب.

٣- فُعْلُل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: بُرْثُن، بُلْبُل، والصفات مثل: قُنْبُل، قُلفُل.

٤- فِعْلَل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: دِرْهَم، ضِفدع، والصفات مثل: هِجْرَع، حِبْلَع.

٥- فِعْلِل: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: زِئْبِر، زِبْرِج، والصفات: دِعْبِل، عِرْبِد.

٦- فِعَلّ: ويكون في الأسماء الجامدة مثل: قِمَطْر، دِمَشْق، والصفات: هِزَبْر، سِبَطْر[٩].

وهناك أبنية للأسماء الخماسيّة المجرّدة في اللغات الساميّة، ولكنها قليلة. أمّا الأسماء المشتقة من الأفعال فكثيرة ومتنوّعة، وفيها يقول برجشتراسر: «ومن أسماء الأشياء الماديّة ما هو مشتق من الأفعال اشتقاقاً لا شك فيه على أوزان معروفة ظاهرة، مثال ذلك: أسماء الآلة والمكان، نحو مفتاح ومسكن، فإنها وإنّ كانت حديثة بالنسبة إلى ما ذكرناه قبلها فهي ساميّة الأصل أيضاً. فنجد المفتاح مثلاً بالعبرية (mapteyah) وفي الأكادية (miptu) أصلها (miptahu). فنرى من ذلك أنّ وزن أسماء الآلة كان موجوداً في اللغة الساميّة الأمّ، غير أنه لم يكن ثابتاً بعد، فحركة الميم في بعض اللغات الساميّة كسرة، وفي بعضها فتحة، فـ (المسكن) يقابله في الأكادية (maskanu)، وفي العبرية (miskan)، وفي الآرامية (maskna)، ووزن مِفعال في مفتاح أصله (فِعال) ألحقت بها الميم، وفِعال أقدم وزن لأسماء الآلة، ومنه (سنان) وهي في الآرامية (snana) و(نطاق) وربّما قابلها في الحبشية (honat) بالتقديم والتأخير وإبدال الحرف السنّي. ومنه (الوعاء) ويظهر أنّ منه (اللسان) وهي في الأكادية (Lisanu) وهي في الآرامية (Lessana) بالتشديد، وفي العبرية (Lason) بالفتح بدل الكسر»[١٠].

يمكننا ممّا تقدّم أنْ نستخلص عدّة أمور ينفرد بها الاسم في اللغات السامية، وهي:

أولاً: معظم الأسماء في اللغات السامية تعود إلى أصل ثلاثي، حتى الأسماء التي قيل عنها إنّ أصلها ثنائي مثل: أب، أخ، حم.... عدّها النحاة العرب من الأسماء الثلاثية، حُذف منها الحرف الأخير، والأصل: أخو، أبو، حمو... وهذا الحرف المحذوف يعود إلى الظهور عندما تتصل الضمائر بها، مثل أبوك، أخوك...

ثانياً: من ناحية التذكير والتأنيث، فإنّ اللغات السامية تُصنّف الأسماء إلى مذكر ومؤنّث، أي أنّها لا تعرف فيما يسمّى في اللغات الجرمانية بالمحايد.

ثالثاً: تتفق اللغات الســامية جميعها على تقسيم الاسم من ناحية العدد إلى مفرد ومثنّى وجمع، وصــيغة المثنّى ممّا تنفرد بها اللغات الســامية دون سائر اللغات، فاللغات التي تنتمي إلى فصيلة الهندية الأوروبية لا تعرف هذه الصيغة، إذ يعبّر فيها عن المثنّى بالجمع.

الهوامش

١- سيبويه: الكتاب، ج١، (ص١٢).

٢- كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، (ص٩٥).

٣- برجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية، (ص١١٦).

٤- برجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية، (ص٩٥)، كما يُنظر في كتاب فقه اللغات السامية، (ص٩٢).

٥- الدكتور فخر الدين قباوة: تصريف الأسماء والأفعال، (ص٦٤-٦٥-٦٦).

٦- برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، (ص٩٨).

٧- فقه اللغات الساميّة، (ص٩٣).

٨- الدكتور رمضان عبد التوّاب: المدخل إلى علم اللغة، (ص٢١٣) وما بعدها.

٩- تصريف الأسماء والأفعال، (ص٦٧).

١٠- التطوّر النحوي للغة العربية، (ص١٠٠) وما بعدها.

المصادر والمراجع

١- برجشتراســر: التطوّر النحوي للغة العربيّة، أخرجه وصــححه وعلق عليه الدكتور رمضــان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، (١٩٨٢م).

٢- رمضــان عبد التــوّاب (دكتور): المدخل إلى علم اللغــة ومناهج البحث اللغويّ، الناشــر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٣- سيبويه: الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، الجزء الأوّل.

٤- فخر الدين قباوة (دكتور): تصريف الأسماء والأفعال، مطبوعات جامعة حلب، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٥- كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمه عن الألمانية الدكتور رمضان عبد التوّاب، مطبوعات جامعة الرياض، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

ألفونس دي لامارتين: أنا أصلي عربي

(١٧٩٠-١٨٦٩م)

محمد حسين الرحوم



لامارتين

لم يحظَ شاعر أجنبي بما حظي به «لامارتين» في العالم العربي من ترحاب شعري وترجمة وتعريب ومديح، فمنذ الثلاثينيات من القرن ما قبل المنصرم انطلق الاحتفاء بهذا الشاعر والذي أطلق عليه العرب لقب (أمير الشعراء الفرنسيين)، وكان أول الشعراء الرومانطيقيين الفرنسيين. تبنّى الفلسفة الرومانطيقية الآتية من بلاد الشمال الأوروبي الألماني والإنكليزي وترك أثراً حضارياً على المستوى الثقافي وأثراً أخلاقياً على المستوى الإنساني، فشكل بأدبه أنموذجاً يزخرُ بالإبداع ويفتح آفاقاً عظيمة تؤرخ لعالمية الأدب والإنسان.

وُلد الشاعر والصحفي والسياسي «ألفونس دي لامارتين» في منطقة ماكون شمال مدينة ليون في فرنسا في العام (١٧٩٠م). وعاش في جو ريفي جميل ضمن عائلة أرستقراطية، وقد أثّرت فيه والدته وأخواته البنات، فجاء هذا التأثير ليضيف عذوبة إلى حياته، ودرس في مدرسة اليسوعيين في «بيلي» وتذوّق كتابات فرجيل وهوراس وقرأ شاتوبريان، وكانت لديه حماسة عارمة، وفي العام (١٨١٤م) عند سقوط الإمبراطورية، خدم ضمن حرس الملك لويس الثامن عشر، ثم استقال من هذا العمل بعد معركة واترلو.

ينتمي «لامارتين» إلى طبقة النبلاء الفرنسيين، وهي أعلى طبقة في ذلك الزمان، فنشأ وترعرع في قصر ميلي تحت إشراف أمه الحنون التي لم تكن تطلب منه أكثر من أن يكون إنساناً حقيقياً وطيباً، كما يقول «لامارتين»، ويا لها من أم رائعة...

وبعد أن أكمل دراساته في أحد المعاهد اليسوعية، راح يسافر في البلدان لكي يروّح عن نفسه كما هو حال معظم أولاد الطبقات الميسورة، فسافر إلى إيطاليا عام (١٨١١م) وبقي فيها حتى عام (١٨١٤م) أي حتى عودة الملك لويس الثامن عشر إلى الحكم، ثم راح يهتم بالأدب والشعر وينشر أولى مجموعاته الشعرية عام (١٨٢٠م) تحت عنوان «تأملات شعرية» وكان عمره آنذاك (٣١) عاماً، والشيء الجميل والعجيب أن هذا الديوان الأول الصغير الحجم جداً، هو الذي جعله شاعراً مشهوراً يشار إليه بالبنان، فقد دشّن الشعر الرومانطيقي في فرنسا وأغلق المرحلة الكلاسيكية لصدوره من الأعماق؛ أعماق القلب الحساس، وكان بمنزلة الزلزال أو الثورة الفرنسية للشعر الفرنسي.

تغنى شاعرنا بالطبيعة وفصولها، فنراه يتحدث عن الربيع أو الصيف أو الخريف في قصائد شجية رائعة، مع ملاحظة أنَّ فصل الخريف كان أحد مواضيعه المفضلة، وقال بعض النقاد بأن الطبيعة لم تكن مستهدفة بذاتها أو لذاتها في شعر «لامارتين»، وإنما كان يستخدمها مرآةً لروحه. إنه يعكس عليها لواعجه وآلامه، فإن كان حزيناً فإنه يتعزّى عن حزنه بالتحدث عن فصل الخريف وسقوط أوراق الشجر، وإن كان فرحاً فإنه يتحدث عن فصل الربيع وتفتح الأزهار وبهجة الحقول.... وعندما كانت تؤرقه قصة حب، فإنه كان يختلي بنفسه في حضن الطبيعة أو على شاطئ بحيرة، إضافة إلى أنَّ الفتاة التي أحبها في مطلع شبابه كان يلتقي بها في أحضان الطبيعة.

كان «لامارتين» كلما أصابته مصيبة أو أطبقت على روحه الآفاق المظلمة، يلجأ إلى أمه الحنون الطبيعة.

وبسبب انتماء «لامارتين» كما هي حال أبناء جيله كلهم، عاش أكبر زلزلة وتمزق في التاريخ وهي الثورة الفرنسية، وبالتالي فقد كان هذا الجيل ممزقاً مهزوزاً مزعزعاً، فلقد شهد موت عالم بأسره ونهوض عالم جديد على أنقاضه، ولكن القديم لم يكن قد مات فعلاً بعد، والجديد لم يكن قد وُلد فعلاً بعد، وبالتالي فهو جيل قلق مليء بالآلام والنزيف الروحي، فازدهرت الرومانطقية في فرنسا وبقية أنحاء أوروبا كملاذ وملجأ ومخلص من كل ما يعانونه، وبالتالي فقد كانت تعبر عن حس معين ومرحلة من التاريخ فقد كانوا جيل

العبور، جيلاً مصدوماً بأعماقه، فعبر عنه «لامارتين» بشعر غنائي مؤثر، يصل أحياناً إلى حدود الفلسفة، فتحمَّل مسؤولية حل مشاكل المجتمع والعصر، لأنه ليس فقط شاعراً بل هو سياسي ومفكر. كحال شعراء فرنسا في تلك الحقبة كفكتور هيجو.

وبعد ثلاث سنوات من تاريخ إصدار «لامارتين» مجموعته الشعرية الأولى، أصدر مجموعة شعرية ثانية بعنوان تأملات شعرية جديدة ثم نشر بعدئذ عدة كتب من أشهرها: (موت سقراط- رحلة إلى الشرق- جوسلين- تاريخ الثورة الفرنسية- تاريخ تركيا- آخر أنشودة جحيم للطفل هارولد- خشوع شعري- سقوط ملاك).

وبعد قيام «لامارتين» بزيارة سورية ولبنان وفلسطين حيث يوجد مهد المسيح والمقدسات المسيحية، (وسنأتي على ذكر هذه الزيارات وأسبابها لاحقاً)، عاد إلى أوروبا وأصبح موظفاً في السفارة الفرنسية بمدينة فلورنسا الإيطالية، ثم تزوج بفتاة انجليزية بعد قصص حب فاشلة من بينها تلك القصة الفجائعية التي ألهمته قصيدة البحيرة الشهيرة وهي من أشهر القصائد الرومانطيقية في الشعر الفرنسي، وقد تُرجمت إلى العربية أكثر من مرة، ونظم «لامارتين» هذه القطعة الخالدة في بحيرة بورجيه عام (١٨١٧م). كتبها وهو ينتظر قدوم جوليا إليها، وجوليا يومئذ تكابد الموت على سرير المرض، فلم تلبِ نداءه، ولم تستطع لقاءه، فزفر لامارتين هذه الزفرة وأرسل هذه العبرة من صدر مكروب وعين قريحة فقال:

أهكذا كُتب علينا أن نمخر في عباب الحياة

مدفوعين في ظلام الأبد من شاطئ إلى شاطئ

دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ أو نرسوَ ذات يوم على مرفأ

انظري أيتها البحيرة

ها هو ذا العام قد كادَ يشارفُ على التمام

وأنا وحدي بجانب أمواجك الحبيبة

أرتقب عبثاً عودةَ جوليا إليها

جالساً فوق الصخرةِ التي كنتِ ترينها جالسة عليها

كذلك بالأمس...

كنتِ تهدرين فوقَ هذه الصخور المعلَّقة

وتتكسر أمواجكِ على جوانبها الممزَّقة

أتذكرين ليلةَ كنا نعتلي صفحتكِ
بين الماء والسماء
نجذف في سكون وصمت
وقد ضرب الله على آذانِ الطبيعة
وختم على أفواهِ الخليقة
فلا نحسّ حركةً ولا نسمع صوتاً

وإذا بصوت لا عهد للآذان بمثلهِ
ينبعث من ضفتكِ الجميلة
فشقَّ حجابَ السكون
وأطلقَ لسان الصدى

أيتها البحيرة الصاخبة
أيتها الصخور الصامتة
أيتها الغيران الموحشة
أيتها الغابات المظلمة

أنتنَ اللاتي يُبقي عليهنّ الدّهرُ
فيُجددُهنّ بعدَ البلى
ويخصبهنّ بعدَ المَحلِ
فاحتضنَ من هذه الليلةِ السعيدةِ على الأقل بذكراها
واندمجنَ على شذا أرَجها وطيبِ مُحياها

وليقلِ الهواءُ الذي يصفر
والقصبُ الذي يئنُّ
والنسيمُ المعطرُ
ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسمُ

«لقد كنا عاشقين».

وبعدئذ انخرط «لامارتين» في الحياة السياسـية وأصبح نائباً في البرلمان، وكان خطيباً مفوَّهـاً من الطراز الرفيع، وقد كان له من السـحر بخطاباته الشـاعرية الفياضـة المليئة بالعواطف النبيلة تجاه الشـعب الفقير، وأصبح من كبار مؤيدي الثورة الفرنسية التي أطاحت بطبقة النبلاء الأرسـتقراطيين وامتيازاتهم الضـخمة، مع أنه ذو الأصل الأرستقراطي، وقد عارض بشدة الحكم الرجعي للملك لويس فيليب وكان أحد قادة الثورة الشعبية الشهيرة التي أطاحت بلويس الملك عام (١٨٤٨م)، والتي انتشـرت في كل أنحاء أوروبا فيما بعد، ثم أصبح «لامارتين» عضـواً في الحكومة المؤقتة لفرنسـا ووزيراً لخارجيتها ولمدَّة قصيرة، وكان من أكبر الدعاة إلى إلغاء قانون الرق والعبودية.

وانتهت حياته السياسـية بصعود نابليون الثالث بانقلاب عسكري عام (١٨٥٢م)، ولوجود اليميـن الرجعي الكاثوليكي في السـلطة، فانطوى على نفسـه وراح يكرس جل وقته للأدب والكتابة كعزاء عن الحزن واليأس.

لامارتين وأصوله العربية: «أنا أصولي عربية»

كان «لامارتين» يردد هذه العبارة دائماً، وبدأ بها كتاباً له «حياة محمد»، وكان دائم البحث عن هذه القضـية، فهو بشـكل أو بآخر يريد تأكيد تلك الجذور، الأمر الذي يدعم القول بأن دراسـة الإسلام لديه ما هي إلا محاولة للتعريف بأصوله الذاتية، لذا تجده يبدأ بتفكيك اسم عائلته إلى «اللامارتين» ويترجمه إلى الخاضعين لأمر الله أو خدام الله، ولا يتوانى في سياق كتابه عن توظيف العديد من التعابير والمفاهيم المسيحية في أوروبا عامة وفرنسا على وجه الخصـوص، فمثلاً حين يتحدث عن الإسـلام متوجهاً إلى الكاتب والشاعر الفرنسي ألفريد دوفيني يقول له: إن الإسلام هو المسيحية المطهّرة ، ثم يؤكد المقولة ذاتها من خلال العودة إلى تفاصـيل الهجرة الأولى للمسـلمين نحو الحبشة، مستشـهداً بقول النجاشي في معرض تعليقه على الحوار بين كفار مكة والمسلمين، قائلاً للمسلمين: ليس هناك فرق بين ما تقولونه عن المسيح عليه السلام، وبين ما تقوله الديانة المسيحية.

وهنا يعلق «لامارتين» على هذه الواقعة بالقول: «من الواضـح أن القرآن في حرفه وروحه هو الثمرة التي أينعت في الصحراء بعد بذرة الإنجيل».

وفي منتصـف الثلاثينيات من القرن العشرين أصـدر كاتبان فرنسيان هما كاربه وفيرال كتاباً مشـتركاً لهما عن الشـاعر «لامارتين»، يقولان فيه بأن «لامارتين» كان يردد أنه انحدر

من أصـــل عربي وأن اســـتقرار آل مارتين في مقاطعة ماكونيه يرجع إلى الحروب الصليبية، فيشككان في هذه المقولة ويقولان:

إن تأكيد «لامارتين» على أصله العربي، لا نجد له أساساً مادمنا لا نستطيع أن نرجع بعصر آبائه إلى ما قبل القرن السادس عشر، فأجداده قبل هذا القرن غير معروفين، وأيضاً إن أصل «لامارتين» هو ال«لامارتين» كما كان يكتبه الشاعر نفسه.

ويعود الكاتبان الفرنســيان إلى رفض ما يراه «لامارتين» من أنه ينحدر من أصــل عربي فيقولان في الكتاب نفسه:

أما الأصل العربي الذي كان «لامارتين» يعترف به في زهو وفخر، فربما كان عذراً جميلاً عن استسلامه للكسل الرفيع، وحبه الشديد لأنواع الحيوان،وتأثير جاذبية الشرق فيه وسلطانه عليه، ولايزال هذا الانتساب للأصل العربي مسألة تحيط بها الشكوك.

وقد علق الأديب العربي الكبير أحمد حســن الزيات في مجلة الرسالة وفي أحد أعدادها الصــادرة ســنة (١٩٣٥م)، على رأي الكاتبين الفرنســيين والذي نقله لنا الناقد الكبير رجاء النقاش بقوله:

فأنت ترى أن «لامارتين» يعترف وبصراحة وثقة بأصوله العربية، ولكن الكتَّاب الفرنسيين بالطبع لا يؤيدون هذا الانتساب، وإنما ينتحلون له شتى الأسباب ومختلف العلل، فهل فينا من يصمد لهذا البحث في فطانة، فيضيف إلى عبقريات العرب هذه العبقرية ويُرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة؟...

فكانت كلمات الزيات دعوة لعلماء وأدباء العرب إلى متابعة البحث والدراسة لهذا الموضوع المثير.

وبالفعل تقدم الأديب محمد غالب ســالم من مدينة حلب، حيث يقول عن الأصــل العربي للشاعر «لامارتين»:

إنه يوجد في غرب مدينة حلب بلد صــغير اســمه «مارتين» ويُكتب باللاتينية «martine» أفلا يجوز أن يكون الأســرى العرب الذين ذهبوا إلى فرنســا، هم جنود هذه المدينة؟ ونحن نقول عادة: هؤلاء من بلدة مرتين ويوجد في حلب عائلة كبيرة تدعى آل مرتين.

وهناك رأي آخر للأديب حسن باشر ويشير فيه إلى رحلة «لامارتين» سنة ١٨٣٣ ميلادية، إلى لبنان، ثم ينقل نصاً من كتاب غراميات «لامارتين» لمؤلف فرنسي هو لوكا دوبريتين وفي هذا النص يقول لوكا:

في رحلة «لامارتين» إلى لبنان، قام الشاعر الكبير بزيارة للسيدة استير استنهوب الإنكليزية، والتي كانت تعيش في قصرها القائم على أحد منحدرات لبنان، وقد تنبأت له هذه السيدة بمكانة رفيعة وحظ عظيم، فسُرَّ بنبوءتها وارتاح إلى تصديقها.

وأهم ما لفت نظر السيدة استر في الشاعر تفاخره بنفسه وتحدثت عنه فقالت:

بينما كان «لامارتين» يمد قدمه ليلفت نظري إلى جمال تقوسها، بينت له أن ذلك الشكل ينم عن أصل عربي، وهو أصل يدل عليه أيضاً بريق عينيه ورسم حاجبيه، فأُعجب «لامارتين» بفراستي واستنتاجي، ثم روى لي كيف أن مئة وخمسين عربياً تعرضوا للأسر في فلسطين أيام الحروب الصليبية، ورُحِّلوا إلى فرنسا واستوطنوا منطقة ماكونية حيث أسسوا قريتين في تلك المنطقة، وأقاموا القصر الذي يسكنه «لامارتين» نفسه.

وعلى أساس هذا النص الوارد في كتاب غراميات لامرتين يؤيد الأديب اللبناني حسن باشر صحة الأصل العربي للشاعر «لامارتين» استناداً إلى ما رواه «لامارتين» نفسه، من أجداده بأنهم من عرب فلسطين الذين أسرهم الأوروبِّيون في الحروب الصليبية.

وهناك رأي آخر للكاتب رجاء النقاش يعتقد بأن الأصل العربي للشاعر «لامارتين» أمر أقرب إلى الصحة والصواب منه إلى الخطأ والبعد عن الحقيقة، فأمام اعتراف صريح من الشاعر نفسه بهذا الأصل، وحرصه على تأكيد صحته، فليس هناك ما يدفع «لامارتين» إلى هذا الاعتراف وهذا الإصرار، ما لم يكن لأصله العربي أساس من الصدق والحقيقة، فلم تكن البلاد العربية في عصر «لامارتين» (١٧٩٠- ١٨٦٩ م) أعظم من فرنسا، ولم يكن هناك أي مبرر من المصلحة أو المنفعة، لأن يدعو شاعراً كبيراً مثل «لامارتين» إلى افتعال ما يجعله منتسباً إلى أصل عربي، فقد كان «لامارتين» أميراً لشعراء عصره في فرنسا، وكان نجماً ساطعاً من نجوم المجتمع والسياسة في بلاده، حتى أنه رشح نفسه لرئاسة الجمهورية الفرنسية سنة (١٨٤٨م). وتولى رئاسة الدولة بالفعل في أوائل ذلك العام ولو لفترة قصيرة.

لم يكن «لامارتين» بحاجة وهو بتلك المكانة في مجتمعه وعصره، إلى الإدعاء بأنه من أصل عربي، بل ربما كان أقرب إلى المنطق والعقل أنّ يحاول نفي هذا الأصل العربي، ويتمسك بالأصل الفرنسي، وهو الرجل الذي يعمل بالسياسة، ويتصل بالجماهير، ويحاول أن يؤثر عليها، ويكسب ودها ورضاها، ولكن «لامارتين» كان إنساناً وفناناً صادقاً حساساً، لا يدخل عالم السياسة من أبواب خلفية ملتوية، بل كان يحرص على دخول هذا العالم من باب القضايا التي تحمس لها،

ودعا إليها، وهي الحرية والعدالة والمساواة، لم يكن مفيداً في ذلك العصر أن يدعي بأصله العربي، بل ربما جر عليه بعض السخط في أوساط المتعصبين القوميين من الفرنسيين خاصة، ومن الأوربيين بصورة عامة، فقد كان «لامارتين» يحمل في أعماقه إيماناً راسخاً بأصله العربي، ويتحول هذا الإيمان في نفسه الشاعرة، إلى عشق للشرق، وحرصاً على زيارته والتعرف إليه، إضافة لحلمه بمشروع ملحمة شعرية يكتبها، وبالفعل قد زار الأماكن المقدسة في الشرق، مهد المسيحية، فزار وابنته جوليا سورية ولبنان وفلسطين، حيث كان يعتقد بأن أصله من هذه المنطقة، وقد لامست روح الشاعر «لامارتين» روح مدينة دمشق حين زارها، فقد كتب في كتابه (رحلة إلى الشرق) عام (١٨٣٥م)، واصفاً البيوت الدمشقية وصفاً مؤثراً، استطاع الدخول إلى عمق أعماق النفس الدمشقية، وقد استطاع أن يلتقط الحس الدمشقي الذي كان يرفض الإفصاح عن المادي، ليبقيه خاصته، من أجل ألا يجرح مشاعر الفقراء، وذا إن مثل، فإنه يمثل جزءاً من روح التكافل الاجتماعي والمادي، وقد كتب «لامارتين» هذا الوصف الرائع للبيوت الدمشقية فيقول:

إن البيوت الدمشقية مطلية بالطين واللبن، وأبوابها متواضعة، أما حين دخلنا إلى بعض هذه البيوت، دهشت من غنى غرفها وأناقتها من الداخل، فبعد أن تدخل من الباب وتجتاز دهليزاً معتماً، تجد نفسك في باحة مزينة ببحرات رخامية، يتدفق الماء منها، تأتي السنونو والحمائم لتشرب منها بحرية، ثم تستريح على حافتها، في الحقيقة مازلنا نخال أنفسنا في الجنة حين نرى جمال باحات تلك البيوت، ونبل مفروشاتها، فالدمشقي لا يرغب بعرض غناه، وإنما يكتفي بالعيش فيه.

وشاء القدر أن تموت ابنته الوحيدة جوليا في لبنان، خلال طريق العودة، وقام بدفنها فيها، ليترك بذلك قطعة من قلبه في هذه المنطقة التي يؤمن إيماناً مطلقاً بامتداد جذوره وأصوله إليها، ويواصل «لامارتين» رحلته إلى الشرق، فيسافر إلى تركيا ويتصل بالسلطان العثماني، فيمنحه السلطان رتبة الباشوية وذلك لمكانة «لامارتين» وقيمته وأهميته في فرنسا وفي أوروبا كلها أديباً وسياسياً.

وقد كان كتابه تاريخ تركيا كتاباً قيماً اشتمل على ستة مجلدات، وهو من الأعمال غير المعروفة لهذا الشاعر الشهير، والسبب هو التعتيم الذي لحق به نتيجة الحملة العدائية التي تعرض لها في زمانه من طرف العديد من المثقفين والمفكرين الفرنسيين، نظراً لما تضمنه الكتاب من آراء مدافعة عن الإسلام ونبيه الكريم.

وخصص «لامارتين» هذا الكتاب للحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن السيرة النبوية، وسيرة الصحابة، وكانت غايته من هذا الكتاب هي التعريف بالأصول الدينية والفكرية لتركيا، وكذلك وهي الغاية الأسمى، تقريب الديانة الإسلامية إلى أذهان عامة الفرنسيين.

ولاشك بأن هذا الكتاب، من الأعمال الفكرية الكبرى التي تؤسس لدعائم التقارب والتفاهم مابين الأديان.

وكما لامست روح «لامارتين» روح مدينة دمشق، أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ، استطاع وبالطريقة ذاتها ملامسة روح شخصية الرسول العربي الكريم قائلاً:

كان الرسول العربي الكريم محمد رجلاً لطيفاً ومتسامحاً، لم يختر الحرب، بل فُرضت عليه الحروب، فدافع عن نفسه ودينه وشعبه، وحين انتصرت دعوته، قام بفتح مكة سِلْماً، ولم يحاول الانتقام من كل من آذاه، فقال للناس بما معناه: من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وهذا إن نم عن شيء، فإنه ينم عن قلب كبير وتسامح عظيم، وحين انتصرت دعوته، أشار إلى أصحابه بأن الجهاد الأصغر هو الذي انتهى، وبدأ الجهاد الأكبر وهو الجهاد مع النفس، للارتقاء بإنسانية الإنسان.

وقال في وصف الرسول الكريم:

ما من إنسان مثله قط، نشدَ إرادياً ولا إرادياً، هدفاً أكثر نبلاً من ذلك الهدف، طالما أنه كان بين المخلوق والخالق، وإعادة الله إلى الإنسان، والإنسان إلى الله، وإعادة تأسيس الفكرة العقلانية والمقدسة للألوهية في خضم فوضى الآلهة المادية والمشوهة في عبادة الأوثان تلك، ما من إنسان مثله قط، وبوسائل ضعيفة للغاية، قام بعمل لا يتناسب إطلاقاً مع قدرة القوى الإنسانية، إذ لم يكن يملك وسيلة تساعده فيه إلا ذاته، سواء في المفهوم الفلسفي أو في تحقيق مثل هذا المصير العظيم، وكذلك لم تساعده سوى حفنة من البدائيين على ناصية الصحراء...

ما من إنسان استطاع إنجاز ثورة حققت مثل هذا الانتشار الواسع في العالم ودامت كل هذا الزمن، وذلك خلال مدَّة قصيرة جداً، إذ إنه وبعد أقلَّ من قرنين على تبشيره بالإسلام، انتشر الفكر الإسلامي التبشيري، وسيطر على مناطق الجزيرة العربية الثلاث، وفتح بوحدانية الله،

بلاد فارس وخراسان و ترازوكسيان (أوزباكستان وبلاد ما وراء النهر) والهند الغربية وسورية ومصـــر وإثيوبيا وكل القارة المعروفة في إفريقيا الشـــمالية، وعدة جزر في البحر المتوسط وإسبانيا، وجزءاً من بلاد الغال (فرنسا).

إذا كانت عَظَمة الهدف وضـعف الوســائل والنتيجة الكبيرة التي تحققت، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنســان، فمن يجرؤ بعد الآن على إجراء مقارنة إنسانية بين رجل عظيم في التاريخ الحديث، وبين النبي محمد؟..

إن أشــهر الرجال العظماء لم يهزوا إلا الأســلحة والقوانين والإمبراطوريات، ولم يؤسسوا حين أسســوا شـيئاً ما، إلا قدرات مادية، غالباً ما انهارت قبل انهيارهم، أما هو فقد حرك الجيوش والتشــريعات والإمبراطوريات والشعوب والسلالات المالكة وملايين الناس في ثلث المعمورة.

عاش «لامارتين» السنوات الأخيرة من حياته بشكل تعيس وحزين، فقد كان مضطراً للعمل ليلاً ونهاراً لكي يســتطيع أن يعيش ويأكل الخبز، وهذا يعني أنه لم يســتغل منصبه حين كان وزيراً ومسؤولاً كبيراً، وقد اشتكى في إحدى رسائله إلى فكتور هيجو بأنه يخشى أن يصادروا بيته وأثاثه، لأنه لا يستطيع أن يدفع الفواتير، ثم اضطر تحت ضغط الحاجة الماسة إلى قبول هبة من الدولة سنة (١٨٦٨م)، وقد عاب عليه المثقفون اليساريون ذلك، واتهموه بالتواطؤ مع الديكتاتور المســتبد نابليون الثالث، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر! فهل يريدون له أن يموت في الشارع كالشحاذ، وهو أحد شخصيات فرنسا المهمة في ذلك الوقت؟

مهما يكن من أمر فإنه مات مغموماً مهموماً بعد ذلك بســنتين فقط، فقد كان يعاني من حالة حزن لا تكاد تنقطع، ويكابد تباريح روحانية كانت إيذاناً بما عُرف فيما بعد عند فحول الشعراء الرومانسيين بداء العصر على حد وصف موسيه أو ماعبر عنه بودلير بعبارة (سبلين) أي القلق والكآبة.

توفي الشــاعر «لامارتين» سنة (١٨٦٩ م) ورفضــت عائلته تنظيم جنازة وطنية له، وذلك خوفاً من أن يستغلها النظام الرجعي لصالحه.

وســنختم رحلتنا إلى عالم «لامارتين» رائد الرومانسية بقصيدة، يعرفها قليلٌ من القراء، وتعدُّ من روائع الشعر الفرنسي، وهي قصيدة العزلة:

العزلة

غالباً على الجبل تحت ظل السنديان أجلس
عند غروب الشمس، حزيناً أجلس
اعتباطاً عبر السهل أجول بالنظر
حيث اللوحة المتغيرة عند أرجلي تمر.

هنا يهدر النهر بموجه المزبد
ينساب، ويغرق في الظلام المبتعد
هناك تمد البحيرة الساكنة ماءها الهادئ
حيث نجمة المساء ترتفع في زرقة السماء

في قمم هذي الجبال المتوجة بالغابات المظلمة
يلقي الغروب شعاعاً أخيراً
والمركبة البخارية لملكة الظلال
ترتفع، وتنير جوانب الأفق

بيد أن صوتاً روحياً من السهم الغوتي
ينطلق في الأجواء بتدفق
يتوقف المسافر، ويمزج الجرس البدائي
موسيقا قدسية وما يحمله آخر اليوم من ضوضاء
لكن روحي اللامبالية أمام هاتي اللوحات الغناء
لا تحس لا بسحر ولا بانتشاء
أتأمل الأرض مثل خيال شارد
شمس الأحياء، ما عادت تدفئ الأموات

من تل لتل عبثاً أجول بالنظر
من الجنوب لرياح الشمال، من الفجر إلى الغروب
أعبرُ كلَّ الأبعاد المترامية الأطراف

وأقول ليست هناك أي سعادة بالانتظار

ما جدوى هاذي الوديان والأكواخ والقصور
لأراها سوى أشياء عبثية خواء من كل سحر
أيتها الأنهار والصخور والغابات والعزلة العزيزة
إن غاب عنك شخص واحد أضحيتِ مهجورة

ودورة الشمس، لتبدأ أو لتنتهِ
بعين دونما اكتراث أتابع مسارها
في سماء ملبدة أو صامتة سيان غروبها أو بزوغها
ما جدوى الشمس؟ ما عدت أرجو شيئاً من الحياة

لو أستطيع لحاقها في عملها المنتشر
لن تبصر عيناي سوى الفراغ والقفار
لا أتمنى شيئاً من كل ما تنير
لا أطلب شيئاً من العالم الكبير

لكن ربما خارج حدود مجالها
حيث الشمس الحقيقية تضيء سماوات أُخَر
لو استطعت أن أترك على الأرض جثتي
ما طالما حلمت بهِ كان لعيني سيظهر

هنا سأنتشي من العين التي أرتجي
هنا سأجد الحب والأمل
وما إليه تهفو كل روح من خير أمثل
وليست له اسم في الحياة الأسفل

لو أستطيع، ممتطياً عربة الفجر
إحدى أمانيَّ الغامضة

الانطلاق نحوك

ما جدوى بقائي في أرض منفى؟

بيني وبين الأرض لا يوجد شيء مشترك

كما في البراري تسقط ورقةُ الغابات

ترتفع ريح المساء وتنتزعها من الوادي

وأنا شبيه بالورق الذاوي:

مثله خذيني يا رياح الشمال العاصفات.

أشهر أعمال الشاعر «لامارتين»

تأملات شعرية- تأملات شعرية جديدة- موت سقراط- رحلة إلى الشرق- جوسلين- تاريخ الثورة الفرنسية- تاريخ تركيا- آخر أنشودة جحيم للطفل هارولد- خشوع شعري- سقوط ملاك.

المراجع

- ديوان غوسلين: ترجمة الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة.
- كتاب «لامارتين»: إلياس أبو شبكة.
- رفائيل: ترجمة حسن الزيات.
- جنفييف: ترجمة حسن الزيات.
- عباقرة ومجانين: رجاء النقاش.
- سير العظماء: جيرار أونجير.
- تاريخ تركيا: «لامارتين».
- رحلة إلى الشرق: «لامارتين»
- كتاب (حياة محمد): «لامارتين».
- غراميات «لامارتين»: لوكا دوبريتين.
- مختارات من كتاب (حياة محمد): ترجمة: محمد قويعة.

أوثان فيكتور هوغو السحرية

د. عبد الهادي صالحة


فيكتور هوغو

إنَّ مجتمعنا الصناعي والتقني، مع ليبراليته المحدثة وعالميته الاقتصادية والسياسية، وصل إلى نقطة اللاعودة.

ومقابل هذه التحديات الكبيرة، تعززت الذاتية وتعرف الإنسان أولاً على نفسه من خلال الأنا التي كشفت وحوت معظم تناقضات العصر الذي انفتح واسعاً ومتنوعاً أمامها. لقد أدت تحولات المجتمع الغربي إلى تعظيم وتمجيد الفرد الذي يتساءل حول مصيره في قلب المجتمع الصناعي الذي يسير قدماً في تطوره المتسارع، وكان من البدهي أن يشرع الإنسان الذي أراد إثبات أصالة ذاته في البحث المستمر عن سعادة كاملة وتوق إلى تجاوز حدوده الزمانية أو الروحانية عن طريق قد يتيح له حلاً نهائياً لمشاكل الحياة.

تركت معجزات العلم في مجال علم الوراثة أثراً نفسياً بالتأكيد، لكنها ما لبثت أن انحصرت في حدود معينة. إن المادية، وكذلك التقنية، لا يمكن أن تمتلكا بحد ذاتهما كل الحلول المعجزة التي من حق الإنسان أن ينتظرها، لأن المادة تبقى دائماً المادة! ومقابل هذا التهديد المتعاظم يصبح أحياناً رد الفعل عنيفاً. إن الثورة الحقيقية لا تحدث مع ذلك في الشارع، ولكن في الصالونات، أو بدقة أكثر، داخل الإنسان.

في الواقع، بعد أن تملكه اليأس والقلق توجه الإنســـان الرومانسي نحو أوثان «سحرية» من المفترض أن تعطيه ســـعادة النفس ومعنى لوجوده. إن الإنســـان الرومانسي، الذي دشّن عهد الحداثة قلق على وجوده، ودون انقطاع، أعاد طرح قضيته في البحث باستمرار عن الحقيقة. هذا الإنسان الذي كان يخضع لمشيئة الأيديولوجيات أو التيارات، كان يعيش في مفارقة دائمة: أحيانـــاً العلم، وأحياناً الســـحر. وكان يتأرجح بين المادية المحيطة بالمجتمع الغربي وســـحر الفلسفات الباطنية أو الإخفائية. وبدلاً من أن تلغي نفسها، فإن هذه القوى المتناقضة ظاهرياً تتحالف في ترابط للطبيعي وما فوق الطبيعي. وتظهر أســـئلة معذبة تطرح نفسها: «التحالف بين العلم والميتافيزيقيا أليس مشـــروعاً أوليّاً لإنسان جديد؟» و«الثاني: ألا يقود التحالف بين السياسة والسحر إلى الشمولية؟ والثالث، وبدقة أكثر،إلى قدوم الإنسان الساحر؟».

إنَّ الفكر الغربي «ثائر جَموح باســـتمرار، لا يفيء إلى شـــاطئ، ولا يعرف الاستقرار، ولا الثقة، ولا اليقين «والإنسان الحديث الذي، على غرار إنسان الماضي، مازال يبحث بشكل يائس عن يقينيات، أحياناً متأرجحاً نحو العقلانية، وأحياناً توّاقاً نحو التجريبية، أخذ يتخلى عن نقاط استناده وشرع بغزو مناطق ومجالات ماوراء نفسية أو خفية؛ إن السحر، هذه الكلمة الثقيلـــة بالمعنى، تعود بقوة إلى مجتمعنا الحديث. من المفترض أن يكون «الســـحر» لازمنياً ويمتلك ســـلطات متعالية. والبحث السحري- بســـبب أحداث يصعب حلها- هو بحث داخلي ومخفـــي. إنه يفترض علاقة مع اللامنظور، اللامرئـــي، إنه ربط حقيقي بين «الطبيعي» وما «فوق الطبيعي». هذا الترابط حققه باطنيو العصـــر الوســـيط بالسيمياء، والكابالا، وغيرها. ولكن أيضـــاً من قبل جمعية حملة وردة الصـــليب في القرن السابع عشر، وفيما بعد من قبل الثيوصوفية والعهد الجديد.

لقد اكتســـبت العلوم الباطنية اليوم حق المواطنة بالطريقة نفســـها الذي اكتسبته الأديان والطوائف. إن عودة الديني يتشـــابه مع عودة العلوم الخفية المحيطة، وحلم الإنســـان الذي يبقى دائماً متعطشـــاً، يبقى ذاته. في الواقع، بالتوازي مع التقليد الوثني، ثم المسيحي، تطوَّر خلال العصور، تقليدٌ آخر، التقليد الباطني، المسمى أيضاً الموازي.

ونســـتطيع القول إن تاريخ الســـحر يمكـــن أن يُلخص بكلمة: الباطنية. إن ســـحر ما فوق الطبيعي، وخصوصاً اكتساب قدرات خفية وتجاوز القدرات العادية كانت في أصل الاتجاهات الباطنية المتعددة. وكان في أصـــل هذا التقليد، الأديان الوثنية، الفلســـفة وعلم الأســـاطير

الإغريقية. كل هذه العلوم «التقليدية» «شفهية أو كتابية» تطورت وانتشرت وأنجبت تقليداً جديداً، هو تقليد الغرب. إن التقليد الباطني الذي هو تركيبة لكل التيارات الشرقية والغربية يفترض لا بل يبحث عن الخلود وتطور المادة التي تُعَدُّ إلهية.

إنَّ الحلولية ووحدة الوجود «مجموع الأشياء تُختزل في النهاية إلى مبدأ واحد أو وحدة، بالتعارض مع الثنائية والتعددية» هما الأساسان الاثنان للتيارات الخفية.

على المستوى الأعلى، الإنسان، هذه المادة الخام، المشابهة للرصاص، يمكن تحت تأثير أفعال ما فوق طبيعية أن تصبح مادة كاملة، مساوية للإبريز. وفيما وراء الرمز، نتأكد أن إغواء الإنسان يبقى دائماً ذاته، يعني إغواء الوصول إلى الحالة العليا. إن الوعد القديم للثعبان راسخ دائماً، ونشهد في أيامنا تجدد نشاط الحركات الباطنية، وخصوصاً السيميائية.

وينبغي ألا ننسى أن الحركات الباطنية أثَّرت في الحركة الرومانسية، على الأقل في بعض الكتاب الرومانسيين، من بينهم كلود دو سان مارتان ونرفال وبلزاك ولامارتين وميشليه، وبالتأكيد رئيس المدرسة الرومانسية فيكتور هوغو بين رومانسية القرن التاسع عشر والعصر الجديد، هناك إذاً نسب خفي واضح.

تتميز مؤلفات فيكتور هوغو باتساعها، وقصائده وملحماته وقصصه ورواياته هي روائع أدبية حقيقية. إن اتساع المواضيع المقاربة تضع هوغو في فئة الكتاب الرائين. ألم يقل هو نفسه إنه كان «ابن هذا القرن»؟ وهذا صحيح!

هوغو لم يصبح فقط زعيم المدرسة الرومانسية، ولكنه أيضاً عايش كثافة هذا القرن سواء على الصعيد الأدبي أم السياسي. قرن من الصراعات الثورية والأبحاث الميتافيزيقية وسمت بميسمها هذا القرن، وأيضاً حياة هوغو. كان هوغو رجل أوثان متعددة. في المقام الأول، الإنسان الذي يمتزج مع الشعب. في الواقع، النثر الهوغوي بأكمله ينزع نحو الإنسان الباحث عن الكمال. وتعدُّ «أسطورة العصور»، و«تأملات» و«نهاية الشيطان» هي المؤلفات الأكثر تأثراً بالميتافيزيقية الباطنية.

يقترح هوغو تصنيفاً واسعاً للإنسانية، منذ بداية وحتى نهاية تاريخها. يتعلق الأمر في الواقع بملحمة ضخمة مصدرها الوحيد هو الباطنية. ونشهد تطور الإنسان نحو الكمال، وهذا بواسطة الفعل الخيري للإله الذي يعفو عن أخطاء الكائنات جميعها، بما فيها أخطاء الشيطان! إن رومانسية هوغو ستغير اتجاهها نحو الفضاءات العليا للعلوم الخفية. هذا

الشاعر الساحر انحرف جهاراً عن المبادئ المسيحية. في الحقيقة، يحمل الشيطان، بالنسبة لهوغو، اسماً جديداً: حرية. الحرية الهوغوية ليست سوى ثورة الشعوب ضد كل الاستبدادات الإنسانية! إن «الحرية»- حسب هوغو- هي في الواقع مديحٌ مِن صُنْع الشيطان. هذه الأبيات المأخوذة من «تأملات» تبرهن على ذلك:

«سيُقال كل شيء. سينتهي الشر؛

وستنضب الدموع؛ ستختفي السيوف والأحزان والهموم؛

وستتوقف الهاوية المريعة القاسية عن صم أذنيها، وستمتم: «ماذا أسمع؟»،

وسيصرخ ملاك: «بداية!».

إنَّ الملاك، وبعبارات أخرى رئيس الملائكة، سيقول إذاً: «بداية!، وتجدر الإشارة إلى أن «نهاية الشيطان» تجري على مستويين: خارج الأرض حيث يُظهر لنا هوغو في رؤى كونية المصير ما فوق الطبيعي للشيطان، أمير الشر في الاتساع العجيب للمكان والزمان. إن روح الشر يستحوذ على الأرض، ولكن قوته ليست خالدة. إن الشيطان هذا الملاك الثائر، يسقط بشكل لامتناهٍ: الملاك حرية يحصل من الشيطان- كما أسلفنا- على حركة قوية، والشيطان المغفور له، يصبح لوسيفر، ملاك النور. هذه القصيدة هي قصيدة العفو حيث نشهد في الحركة الأولى منها اختراع أسطورة الشيطان الذي تحل عليه الصاعقة ويهبط في الهاوية، الشموس حوله تموت الواحدة تلو الأخرى، والليل يزداد كثافة. صرخات ثورة وحقد وكراهية، يشعر الشيطان بأنه يزوَّد بجناحين، الملاك الذي كان يموت، والشمس الأخيرة تنطفئ كجمرة. وها هي الآن المعجزة التي بها سيكون خلاص العالم. يحصل الشيطان على الغفران ويموت في خاتمة مدهشة.

ومن هنا يولد ملاك الحرية الهارب من اللعنة ويلج شيئاً فشيئاً بشعلته هذا العالم المظلم من «ريشة» سقطت من جناح ملاك الظلمات، هذه الريشة يصيبها فيما بعد شعاع سيخصبها، وسيسمو به وسيحوّله حتى الكائن المطلق.

وهكذا يعدّ هوغو الشيطان مرتبطاً بعملية الخلاص، بدقة أكثر مرتبط بإعادة اندماج ومصالحة الكائنات المخلوقة جميعها والناس الآثمين، والشيطان وأبالسته! وأن الخلق يجدد نقاءه البدائي، وأن الشر سيزول نهائياً، وستتوقف الآلام، وستستقيم طبيعة الإنسان الأصلية، و هنا نرى كل الفلسفة الباطنية عند هوغو. إن الفكر الهوغوي هو فكر كل الغنوصيين وحملة

وردة الصليب: نفي الخطيئة والآلام الخالدة، والشيطان الذي سيعود طيباً وإعادة اندماج الأرواح من خلال التقمص؛ وهذا ما يفسر أن هوغو عكف في وقت من حياته على الطاولات واستحضار الأرواح في عام (١٨٥٣م)، وكان لديه استعداد نفسي لهاجس المجهول والسر، ولكن بعد التدرب على معتقدات الكابالا، كل حركة من هذه الحركات، وكذلك كل صورة مع صور الماضي تلقت معنى جديداً، وتوجهت بشكل أوسع نحو الأسطورة التي تهيأت في المحاضر الرسمية لجلسات تحضير الأرواح في جيرسي.

دافع هوغو بشكل جلي في «نهاية الشيطان» عن معنى الدراما التوفيقي والسقوط واحتواء الشر ثانية.

هذا الجهد لإعادة إدماج الشر في الخير والظلمات تحت الشكل الأسطوري للشيطان، يمكن الوصول إليه بسهولة في الرومانسية الأدبية. لقد شرعت الملحمة الرومانسية بدعوى واسعة لإعادة الاعتبار الأسطوري للشر. وكانت هذه الرومانسية وريثة الأدب التوراتي والإيغونوغرافيا القروسطية والفردوس المفقود لميلتون، ونستطيع القول أخيراً: إن هوغو كان الكاتب الساحر، ولكنه لم يكن الوحيد.

حول الذاكرة البشرية عبر التاريخ

ترجمة: محمد الدنيا

الذاكرة هي الموضوع السيكولوجي الأقدم بين اهتمامات الإنسان عبر التاريخ، ذلك أن كلمة mémoire (ذاكرة) نفسها مشتقة من Mnémosyne[1]، إحدى آلهة العصور القديمة في أساطير القرن الثامن قبل الميلاد. وقد نُظر إلى الذاكرة، من تلك العصور حتى عصر النهضة، على أنها القدرة الأثمن- وإن عُدَّت ثانويةً لبعض الوقت بعد «ديكارت»، الذي أعطى الأولوية للاستدلال- فإنها ما تزال شاغل الفكر البشري.

بقيت الذاكرة ميداناً مميزاً للفلاسفة مثل «برجسون»، والأدباء مثل «بروست». وأصبحت موضوعاً أساسياً لرواد علم النفس التجريبي وطب الأعصاب. وبعد الازدهار المعلوماتي لخمسينيات القرن الماضي، فاضت الأبحاث حول الذاكرة وعرّفت عندها على أنها مجمل الآليات التي تتيح ترميز المعلومات واختزانها واسترجاعها.

وضمن هذا السياق التحديثي، المعنون نوعياً «علم نفس الاستعراف»، ازدادت المطبوعات المتعلقة بالذاكرة بالآلاف. وأخيراً، أتاحت التطورات العجيبة في مجالي الفيزياء والبيولوجيا المعلوماتية ظهور تطورات تقانية هائلة في ميدان التصوير أفضت إلى شرح البنى أو العصبونات الفردية.

أُلّهت الذاكرة مع الشاعر اليوناني «هسيودوس» (حوالي القرن الثامن قبل الميلاد). وكانت «منيموزينا» من الفتنة حتى إنَّ «زيوس» اقترن بها تسع ليال: (زيوس) «أحب أيضاً منيموزينا ذات الشعر الجميل، ومنها أنجب ربَّات الفنون التسع ذوات الأطواق الذهبية». كانت «منيموزينا» على مقربة دائماً من «زيوس» تحكي له انتصارات الآلهة على «التيتان»



(المردة)؛ وكانت قوية الذاكرة جداً حتى أنها كانت قادرة على تذكر قصائد وأغان يطلبها «زيوس»، وهكذا مثَّلت الذاكرةَ وجسَّدتها. وكانت عبادة «منيموزينا»، -على ما قيل- سائدة في منطقة الأولمب وتقوم على نوع من الاستشفاء بمختلف المياه، مياه للذاكرة ومياه للنسيان...

كانت كل واحدة من ربات الفنون ميداناً من المعرفة، الأدب أولاً مع «إيراتو» فيما يخص الشعر الخفيف، و«كاليوبي» للشعر الملحمي، وكان للمسرح أهمية كبرى عند اليونان، وكانت «ميلبومين» ربة التراجيديا، وأختها «تاليا» ربة الكوميديا، و«يوتيربي» ربة الموسيقا، و«بوليمني» للغناء، و«تيربسيخوري» للرقص. أخيراً «كليو» ربة التاريخ، و«أورانيا» ربة العلوم.

تُظهر هذه الأسطورة الجميلة أنه لم يكن للذاكرة عند اليونان معنى ذاكرةِ «عن ظهرِ قلب»، وهو ما استمر حتى عصر النهضة، بل كانت مرادفاً للمعرفة، هذا المعنى الذي سنجده أيضاً مرة أخرى في نظريات «علم نفس الاستعراف» الحديثة.

طريقة المواضع (أسطورة سيمونيد)

كان اليونانيون يبحثون، عبر عبادة مياه «منيموزينا» في أولمبيا، عن وسائل تحسن ذاكرتهم. هذا البحث يؤكِّده اكتشاف كان له تأثيره خلال القرون التالية، ونعني به أسطورة «سيمونيد» واكتشاف أول منهج يخص الذاكرة: طريقة المواضع أو الأمكنة. في الواقع، عثر في جزيرة «باروس» اليونانية على لوح رخامي يعود تاريخه إلى نحو (٢٦٤) قبل الميلاد، وقد نُقشت عليه بعض التواريخ الأسطورية، كقيام «سيريس» و«تريبتوليموس» بإدخال زراعة القمح، وابتكار نظام المذكِّرات. ظروف هذا الابتكار الأسطورية كان قد رواها الرومانيان «شيشرون» (٥٤ قبل الميلاد) و«كانتليانوس» (القرن الميلادي الأول) عن مصادر يونانية اختفت اليوم. ووفقاً لهذا الأخير، فإن «سيمونيد» كان قد دعي إلى وليمة غير أنه حين خرج وقد نادته الآلهة، انهار المبنى. ودعاه أهل المدعوين للتعرف إلى أقاربهم، وحين تصوَّر الأشخاص في أماكنهم في قاعة الوليمة، وجد من السهل الاهتداء إليهم. «يبدو أن ما فعله سيمونيد قاد إلى ملاحظة أن الذاكرة تستعين بخانات محددة جيداً في الذهن»، وشكل ذلك ولادة أول طريقة معروفة في التاريخ، طريقة المَواضِع.

تقوم هذه الطريقة على ترميز العناصر التي يجب أن نتعلمها في صور، وعلى وضع كل صورة في موضع معروف جيداً ومتصور عقلياً. وكي نتذكر العناصر كلها بالترتيب، تكفي إعادة رسم المسار عقلياً واكتشاف الصورة التي وُضعت في كل موضع.

ذاكرة وذكريات: أيّ ترابطات؟

لا شك في أن الروائح (الذاكرة الشمية) تستدعي الذكريات بقوة، غير أن الصور (الذاكرة الإبصارية) والكلمات هي أفضل عناوين الماضي. ووفقاً لتاريخ طويل، من أرسطو إلى فلاسفة الترابط (التداعي) associationnisme الإنكليز، فقد لاحظ فلاسفة وعلماء أن الكلمات (أو الأفكار) توحي بأخرى كما لو كانت مترابطة ترابط الحلقات في الشبكة. وكان العالم البريطاني «فرانسيس غالتون» (١٨٢٢ - ١٩١١م) أول من جاءته فكرة استخدام الترابطات لكشف خبايا الذهن، والحالة هنا ذكريات الطفولة.

وبعد إجراء تجاربه، قال عن الترابطات إنها: «تكشف بدقة مدهشة أسس فكر الإنسان وتُظهر تشريحه العقلي بواقعية قد لا يتمنى هو أن تُرى». واستخدم المحللون النفسيون، خصوصاً السويسري «كارل غوستاف يونغ» (١٨٧٥ - ١٩٦١م)، هذه الطريقة؛ ولكن مركّزين بالأحرى على الترابطات غير الملائمة التي تتيح إضاءة لاشعور المريض.

اللاشعور في علم نفس الاستعراف هو الذاكرة، وقد وضع الباحثون معايير لمعرفة الترابطات في ثقافة ما، ونشر الباحثان الأمريكيان «كنت» و«روزانوف» أوّلاها عام (١٩١٠م)، وأُتبعت بالعديد من المعايير الأخرى إذ وجد الباحثان أنها نتيجة صلات بين الكلمات في الجهاز العصبي. بذلك، تتيح المعايير أن تقيس عملياً الشبكة الترابطية وتوقُّع النتائج.

مثلاً، تعلُّم المزدوجات المترابطة بقوة (نحلة - عسل، مثلاً) أسهل بكثير من تعلم كلمات ضعيفة الترابط (نحلة - عش..). وبشكل عام، تجري هذه الاختبارات على عينة كبيرة من المشاركين (٣٠٠ طالب مثلاً)، مما يتيح، بإحصاء الكلمات المترابطة، وضع تراتبية مترابطات. وعلى سبيل المثال، تتمخض الكلمة الترابطية «عسل» عن التراتبية التالية لكلمات مترابطة: عسل (ذكرت ١١٤ مرة)؛ خلية (٣٧ مرة)؛ لسع (١١ مرة)؛ ملكة (٩ مرات)؛ يجني (٧)؛ زهرة، يحلق، عملٌ (٦)؛ تأتي بعد ذلك كلمات ذكرت مرة واحدة: شيء، زجاجة، رقص، إبرة، سرب... وبالنسبة لكلمة الترابط «صوف»، نجد على التوالي كلمات «خروف» (٦٠ مرة)؛ قميص نسائي صوفي (٤٥)؛ حار (٣١)؛ حياكة (٢٦)؛ ناعم (١٧)؛ حرارة (١٢)، وكلمات أخرى ذكرت مرة

واحدة: حمَلٌ، مركب، راع، أبيض، قلنسوة، غطاء... ولعل أشهر استخدام أدبي للترابطات هو حكاية المادلين(٢) للأديب الفرنسي «مارسيل بروست»: (...) حملت إلى فمي ملعقة الشاي التي تركتُ فيها قطعة مادلين كي تلين. ولكن في اللحظة نفسها التي لامست الرشفةُ الممزوجة بفتات الكعكة حنكيَ، ارتعشتُ، متنبهةً إلى شيء غير عادي كان يحدث في داخلي. داهمني سرور لذيذ، معزول، دونما إحساس بسببه. (...). وفجأة، تبدت لي الذكرى. هذا الطعم، كان طعمَ قطعة مادلين صباح الأحد الصغيرة في كومبراي (...)، كانت عمتي ليونيا قد قدمتها لي بعد أن غمستها في نقيع شايها أو زيزفونها (...). حين لم يدم شيء أتذكره من ماض قديم (...)، بقيت ذكرى الرائحة والطعم لزمن طويل بعدُ (...)».
(Marcel Proust، À la recherche du temps perdu. Du côté de chez Swann، 1913).

يبدو من المثبت إذاً أن الروائح تستدعي الذكريات بقوة. مع ذلك، حتى لو تذكرنا جيداً روائح فريدة (فنيلا، شمع...)، فإن ترابط الروائح مع عناصر أخرى لا يحمل كثيراً من النتائج؛ هذا إلا إذا كان «الأنف» أنفاً استثنائياً، فإن القليل من ذكريات حياتنا مرتبط بروائح نوعية. وتبقى ذكرى مادلين «بروست» من الحالات النادرة عند البشر، رغم واقعيتها.

فقْد الذاكرة عند كورساكوف ودور الحُصَيْن

كان عالم الأعصاب الروسي «سيرغي كورساكوف» قد لاحظ في نهاية القرن التاسع عشر وجود اضطرابِ ذاكرةٍ بارزٍ عند المرضى الكحوليين المزمنين: فقْد الذاكرة. يصف «كورساكوف» أحد مرضاه قائلاً: «كان بعمر سبع وثلاثين سنة، كاتباً روسياً

اعتاد في أسفاره إلى سيبيريا أن يشرب الكثير من الخمرة (مصدرها الحبوب). (...). كان مع ذلك يتجرع كمية كبيرة من الخمر (...). لاحظ أصدقاء المريض أخيراً أن ذاكرته أصبحت أضعف. (...). كان المريض ينسى تماماً ما كان يحدث معه منذ وقت قريب، ولم يعد يستطيع القول إن كان قد تناول طعاماً ذاك اليوم وما إن كان قد أتى أحدهم لزيارته. لم يعد يتذكر ما يجري معه منذ خمس دقائق خلت. (...). لكن المريض كان يتذكر كلياً مجريات يومه قبل المرض ويعطي تفاصيل؛ أما ما كان يحدث معه منذ أن بدأ مرضه فقد كان يتذكره بشكل مشوش. وهكذا مثلاً، كان قد بدأ بكتابة قصة قصيرة في شهر حزيران ثم أنهى أكثر من نصفها، ولكن في هذا الوقت لم يعد يتذكر الحل الذي كان يريد إعطاءه لنهايتها».

وهكذا، بالنسبة إلى العديد من مرضاه: كانوا قادرين على التذكر المباشر. وقياساً إلى النظريات الحالية، فإن لهؤلاء ذاكرة قصيرة الأمد. في الوقت نفسه، قادرون على استرجاع ذكريات قديمة؛ لديهم إذاً ذاكرة طويلة الأمد أيضاً. إلا أن كل شيء يحدث وكأنه لم يعد لديهم الآن تسجيل ذاكري لأمد طويل. يسمون هذا النمط من فقد الذاكرة «نساوة اللاحق» (نسيان الأحداث التي تلت الحادث أو المرض المسبب للنساوة) amnésie antérograde العامة، إذ إنها تعيق أية معلومة جديدة، كلمة أو صورة أو وجه...، عن الاختزان لأمد طويل. وإكراماً لاكتشافه، سميت «نساوة كورساكوف». يعيش المرضى هنا إذاً في الماضي وفي حاضر لا يكف عن البدء مجدَّداً ومجدداً. إن المصاب بنساوة كورساكوف، الذي يضع قطعة السكر في قهوته، لا يعود يتذكر ذلك بعد ذوبانها، ويبقى يضع السكر مرة تلو مرة. لا يستطيع مثل هذا المريض ممارسة لعبة الورق إذ إنه لا يمكنه تذكر الورقات التي وضعها على الطاولة. ولكن على العكس، إن كان مريض كورساكوف يعرف اللعب بالشطرنج (قبل مرضه)، يمكنه الاستمرار في اللعب، لأن القطع موجودة أمامه على الرقعة وليس عليه أن يستذكرها.

الحُصَيْن مسؤول عن نساوة كورساكوف

مع ذلك، بما أن الأذيات عديدة في باثولوجيا الكحوليات، فإن الجراحة العصبية المقرونة باختبارات ذاكرية هي التي تتيح بوضوح تحديد المنطقة المسؤولة عن نساوة كورساكوف. وكان جراح الأعصاب «وليم سكوفيل» وخبيرة علم النفس العصبي «برندا ميلنر»، الكندياِن، هما اللذان أظهرا أن النساوة تحدث كلما وقعت أذية بالمستوى الصدغي من منطقة تسمى الحُصَيْن hippocampe ، هذه البنية التي تشبه سمكة صغيرة على شكل حصان. وكانت «برندا ميلنر» قد وصفت عام (١٩٧٠م) حالة شاب خضع لعمل جراحي في حُصَينَيه (يوجد حصين في كل نصف كرة مخية) بغرض إيقاف نوبات صرع وخيمة. ومنذ هذه العملية، بات عاجزاً عن تعلم معلومات جديدة، فيقرأ الصحف نفسها ولا يتذكر عنوان والديه الجديد...، غير أن ذكاءه وذكرياته السابقة بقيت سليمة. ويذكر أنه يوجد في الحصين البشري (٤٠) مليون عصبون (خلية عصبية)، أي (٤٠) مليون من «أمناء المحفوظات» المتفانين، مهمتهم حماية وحفظ ذكرياتنا.

وباستثناء الحوادث (حادث سيارة مثلاً أو حادث وعائي)، فإن ما يُتلف الحصين غالباً جداً هو الكحول، بل أيضاً المخدرات (الكوكايين وسواه). ويتميز داء آلزهايمر أيضاً بتلف الحصين الذي يُبقي المريض في الماضي.

تقهقر الذكريات وداء آلزهايمر

في كتابه «أمراض الذاكرة»، طوَّر الفيلسوف الفرنسي «تيودول ريبو» (١٨٣٩ - ١٩١٦م) نظرية حول الشيخوخة معاكسة لنظرية التطور عند داروين، وقد كان معجباً بالداروينية. حسب «ريبو»، تسلك الذاكرة مع شيخوخة الدماغ مسلكاً معاكساً للتطور: اللا تطور أو التقهقر. ويفيد قانون تقهقر الذكريات إياه، الذي أضحى شعبياً (خصوصاً في الوسط الطبي، حيث يسمونه «قانون ريبو»، بأن الذاكرة المتشيِّخة تتراجع بدءاً من الذكريات الحديثة فلا تستمر فيها سوى ذكريات الطفولة.

إلا أن «ريبو» لم يبن نظريته إلا على بضعة أمثلة قد يمكن تفسيرها بشكل مختلف اليوم. على العكس، إن دراسة الذكريات لدى المسنين الأصحاء تناقض هذا القانون، إذ يلاحظ انحطاط الذكريات المتوسط في فترات الحياة كلها (قياساً إلى المشاركين الشبان)، ولكن ليس بما يخص الذكريات الحديثة أكثر من القديمة. وخلافاً للفكرة الشائعة، ولكن الأكثر منطقية، فإن الشبان (٣٠ سنة) هم الذين لديهم ذكريات شباب أكثر، وليس المسنين. أما الاختلاف مع الشبان فهو أن المسنين يتذكرون عموماً ذكريات أقل حول مجمل حياتهم لكنهم لا ينسون بشكل خاص الأحداث الحديثة (رحلة، أو حدث سياسي أو ولادة في الأسرة...).

كان «ريبو» يعتقد أن الذكريات تتقهقر مع التقدم في العمر فلا يعود المرء يتذكر سوى الأحداث القديمة، غير أن المرضى لا يعودون يسجلون الوقائع الحديثة إلا عند وجود مرض في الذاكرة.

يوهِمُ فقدُ التسجيلِ الذاكري الحديث بأن الذاكرة تتقهقر، غير أنها لا تتقهقر عملياً إلا في بعض الأمراض كنساوة كورساكوف أو آالزهايمر. في الواقع، لا تتراجع الذاكرة، بل تتوقف عن التسجيل إبَّان المرض. ولا تعود تبقى في ذاكرة المريض سوى الذكريات السابقة. ويتميز داء آلزهايمر في بداياته بتشابه مع نساوة كورساكوف، أي فقدان القدرة على التسجيل حتى ينتهي بخرف عام ولكن بسرعات متباينة. ويتصف هذا المرض بالتعقيد والارتباط بالعديد من «الأحداث» على المستويين العصبي والكيميائي، والتنكسُ العصبوني هو أحد خاصياته الرئيسة.

الذاكرة قصيرة الأمد

ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية تقنيات جديدة متسارعة التطور تنحدر من الإلكترونيات. وكان الحاسب الإلكتروني الذي ابتكره «ألن تورينغ» جزءاً من خطة «تشرشل» لفكِّ رموز رسائل «إنيغما»، آلة التشفير الألمانية؛ ومن هنا ظهر التمييز بين ذاكرة قصيرة الأمد وذاكرة طويلة الأمد.

وكان المهندسان الأمريكيان «شانون» و«ويفر» قد وضعا نظرية المعلومة، وأوجد العالم الأمريكي «نوربرت ويرنر» عام (١٩٤٨م) السيبرنيات (علم عمليات التواصل والتحكم في الآلات والحيوانات). وشهدت الحواسيب، بين هذه المنظومات كلها، تطوراً هائلاً أحدث ثورة في أساليب حياتنا: الحاسوب في البيت وفي مكان العمل والهواتف وألعاب الفيديو... وظهرت في المختبرات، حيث كان يعمل مهندسون وعلماء نفس، فكرة أن الدماغ نفسه هو أيضاً نوع من الحاسوب، إذْإنَّ هذا الأخير سمي «دماغاً إلكترونياً».

وهكذا، كان «نوربرت وينر»، مؤسس السيبرنيات، أول من أطلق فرضية وجود ذاكرة قصيرة الأمد مختلفة عن ذاكرة أخرى طويلة الأمد: «تُختزَن هذه المعلومة على شكل فيزيائي (...). إلا أن جزءاً منها هو كذلك على شكل ذواكر دورانية مع حامل فيزيائي يختفي حينما تنطفئ الآلة..».

ولكن لم تتأكد هذه النظرية إلا بعد عشر سنوات لاحقة. أثبت الإنكليزي «براون» (١٩٥٨م) والأمريكيان «مرغريت وليويد بترسون» (١٩٥٩م) لأول مرة أن المعلومات البسيطة (حروف، كلمات) تُنسى خلال أقل من (٢٠) ثانية، مؤكدين بذلك وجود نسيان «قصير الأجل». وسرعان ما عُزي هذا النسيان إلى ذاكرة خاصة قصيرة الأمد، الذاكرة قصيرة الأمد. ولم يخطر ببال فيلسوف عبر تاريخ الذاكرة الطويل أن تكون هناك ذاكرة قصيرة الأجل، بسبب عدم القدرة آنذاك على قياس آجالٍ بهذا القصر دون شك. وكثيراً ما يتجلى النسيان قصير الأجل في الحياة اليومية، كأن ننسى رقم هاتف قرأناه أو سمعناه قبل لحظات، أو فكرة سمعناها منذ قليل خلال محادثة مع أحدهم... إن هذا النسيان قصير الأجل، الذي يثير قلقنا، خوفاً من وجود مرض في ذاكرتنا، هو على العكس طبيعيٌّ تماماً.

النسيان وأدلة الاسترجاع

النسيان هو الوجه الآخر للذاكرة، وآلياته مختلفة. ويعود أول قياس للنسيان إلى الألماني «إبينغهاوس» عام (١٨٨٥م)، حين كشف أن النسيان سريع جداً: (٥٠٪) بعد ساعة وحتى (٨٠٪) بعد شهر! وأُثبتت هذه التجربة مراراً وتعكس جيداً ما يحدث في الحياة اليومية.

إلا أن الأبحاث الحديثة تُظهر أن النسيان ليس محواً كلياً، بل ينجم في جزء كبير عن فشل استرجاع معلومات من خزان الذاكرة الواسع. هذا ما اكتشفه باحثون افترضوا أن الذاكرة تعمل كحاسوب أو مكتبة («تولفينغ» و«بيرلستون»، ١٩٦٦م). وكما أن الكتب مرتبطة بمرجع يستخدَم عنواناً في الرفوف، فربما كانت ذكرياتنا مزودة بأدلة استعادة للعثور عليها. وعديدة هي هذه

الأدلة. إن أسماء الفئات، وعنوانا كتاب أو درس، هي أدلة دلالية. والاختصارات أو الأحرف الأولى (من الأسماء...) أو المقاطع اللفظية الأولى، أو أيضاً القوافي هي أدلة للذاكرة المفرداتية.

الصور (الفوتوغرافية وسواها) أدلة ممتازة. مع ذلك، الأسماء والوجوه لا تنسى كثيراً. وباختصار، النسيان هو أقل بكثير مما يبدو عليه، وتعاني ذاكرتنا ببساطة من صعوبات في العثور على المعلومة بين آلاف المعلومات التي اختزناها خلال حياتنا.

ذكريات وانفعالات

الذكريات المترافقة بانفعالٍ أفضلُ حفظاً غالباً من ذكريات الأحداث العادية. ونتذكر «المرة الأولى» بشكل أفضل: الحب الأول، أو الحصول على ميدالية أو جائزة، أو مسرحية، أو رحلة إلى الخارج... كذلك الأمر بالنسبة إلى الأحداث الاجتماعية الصادمة التي يمكن أن تحدث انقلاباً في الحيوات الفردية. وكان عالم الأحياء العصبية الأمريكي «جوزيف لودو» قد أوضح أنه توجد في دماغنا، قرب الحصين، الذي هو مسجل ذاكرتنا، بنية أخرى مرتبطة به، أي اللوزة المخية، التي تقوم وظيفتها على إطلاع الدماغ حول ما إذا كان الحدث جيداً (إيجابياً) أم سيئاً (سلبياً). عندما يثير الحدث انفعالاً قوياً (كالغضب أو الخوف)، ترسَل جزيئات خاصة إلى الحصين الذي يقوم بالتسجيل بشكل أفضل. كما أظهرت التجارب المنجزة على حيوانات مختبرية أن عمليات التعلم المقترنة بصدمات كهربائية مؤلمة تكون أسرع من عمليات التعلم الإيجابية (الطعام) وتكون ذكراها أدوم.

المصدر

Futura - Science - بقلم Alain Lieury **اختصاصي فرنسي في علم نفس الاستعراف**

الهوامش

١- «منيموزينا» **Mnémosyne** هي إلهة الذاكرة، ابنة «أورانوس» (السماء) و«غايا» (الأرض). وقد عُرفت بأنها ابتكرت الكلمات واللغة. وقيل عنها إنها «تعرف ما كان كله، وما يكون كله، وما سيكون كله». وغالباً ما يصورونها بملامح امرأة رصينة في حالة تأمل... «المترجم».

٢- المادلين: نوع من الحلوى. «المترجم».

اللغة.. في خدمة الإعمار

د. عادل داود

يغرف الكائن الاجتماعي من اللغة، فينطلق لسانه بالتعبير عن مكنونات ذاته، مستنشقاً الهواء الثقافي، ومصوّراً في ذهنه واقعاً يولّد انفعالات واستجابات منوطة بالزمان والمكان والظرف المحيط به، ويتغير منطق اللسان بتبدل الوضع الاجتماعي وتحول الثقافة؛ فهذه قواعد عامة لواقع طبيعي وحيوي في الأزمان جميعها. غير أن التطور اللغوي يتسارع في الظروف الاستثنائية التي يمر بها مجتمع أو وطن، لتتفاعل اللغة مع الواقع الجديد وتعبر عن لسان حاله، وما من شك أن الكلام المتداول في عصر معين صحيفةٌ تاريخيةٌ تكشف عن الواقع المعيش، لأن المجتمع يأخذ من معاجم اللغة، ويطوّع قدرات اللسان للتفاعل مع مكوناته وهواجسه وأتراحه وأفراحه.. فإن تجددت اللغة، فلتغيُّر يطرأ في الثقافة وأعرافها وتقاليدها. وإن انتكس المجتمع حيناً، تنتكس اللغة معه، وإن تطور ثقافياً وعلمياً، تتطور معه؛ فتكبو اللغة حين يكبو المجتمع، وتنطلق حين ينطلق، وإن أحس ببعض الأسى فاللغة أول مواسية له، وأول ناضحة بإنائه.

وإن كان صحيحاً أن التطور في استعمال اللغة تلقائي في الغالب، ويخضع لظروف مفروضة؛ بيد أن السعي لـ«تطويع» هذا التطور لما فيه خير المجتمع أمر واجب. فما السبيل لتحقيق ذلك؟ وكيف يمكن لهذا السعي أن يأتي بفائدة حقيقية لإعمار الوطن والمجتمع؟

ثنائية (اللغة والإعمار)

جرى على الألسن استعمال ثنائيات تتوالى فيها كلمتان بمقتضى العرف اللغوي، من نحو: اللغة والاقتصاد، واللغة والمجتمع، واللغة والثقافة، واللغة والفكر.. وتدل هذه الثنائيات على ترابط وثيق يجمع بين كفتين ترمي إحداهما بثقلها على الأخرى، فتتأثر بها وتؤثر فيها حُكماً. ويُحشر أيضاً بين هذه الثنائيات المتآلفة عبارة (في خدمة)، لتصبح: اللغة في خدمة المجتمع، واللغة في خدمة الفكر.. ونضيف إلى ما سبق ثنائيةً تجمع بين اللغة والإصلاح، لنقُل: اللغة والإعمار، أو اللغة في خدمة الإعمار.

والإعمار لغةً مشتق من الفعل الرباعي أعمَرَ، ومعناه جعل المكان عامراً بأهله، مزدهراً غنياً بوجودهم لإصلاحها وتعميرها، وجاء في لسان العرب في مادة (ع م ر) أن عَمّاراً صفةُ الرجل «القوي الإيمان الثابت في أمره الثَّخينُ الوَرَع: مأخوذ من العَمِير، وهو الثوب الصفيق النسجِ القويُّ الغزلِ الصبور على العمل». وذُكر في (تاج العروس من جواهر القاموس) أن العمّار هو «الحليم الوقور» و«الموقور في كلامه». وأعمره المكان واستعمر الله العباد في الأرض أي أتى بهم ليصبحوا من الساكنين فيها. واستعمر الأرض أيضاً أمدها بما تحتاجه من أياد معمِّرة لاستصلاحها وتأهيلها. وأعمَر عليه أغناه.



فالمقصود أولاً بالإعمار إصلاحُ العقل وتطويرُ الفكر. أمّا صلاح الأرض وتعميرها فهو تبدُّل حسن يطرأ عليها في ظرف عادي، أو طارئ حصيلةً للخبرة الإنسانية وتماهياً مع الواقع السائد. وإحدى الأدوات الأساسية لتطور الفكر هي اللغة وتطورها.

الأسباب الأساسية للتغيّر اللغوي

تُبدِّل اللغة حليّها تلبية لاحتياجات التواصل في الظروف الطبيعية والمتغيرة، ويُحافَظ بذلك على سمة البقاء، التي يسعى إليها كل كائن بشري ويهب أحياناً نفسه في سبيلها. فتتغير اللغة وتولِّد ألفاظاً تدل على التقدم التقني أو الظواهر الثقافية الجديدة. وتُركَّب ألفاظ جديدة، أو يُتوسَّع بمعنى ألفاظ قديمة لترمز إلى واقع حديث العهد؛ فالتقدم سبب جوهري

في التغير اللغوي. ولكن التأخر بسبب النكسات سبب أقوى لتغير ثمار الحقول الدلالية. لذا نرى أن اللغة العربية باتت قاصرة عن مواكبة ركب الحضارة الفكرية والعلمية، ويعاني المترجمون على نحو خاص من هذا الأمر حينَ ينقلون نصوصاً تقنية أجنبية إلى العربية.

غير أن الهجرة والأزمات تُسرِّع كثيراً من توليد الألفاظ، فتنّشط اللغة لإنتاج أسلوب تعبيري يوصِّف الواقع الجديد ويترجم دقائقه. فإن كان التغير أو التطور الثقافي واللغوي سنّة الحياة في العموم، فحدوثه قد يكون قسرياً وواسعاً وسريعاً، في زمن الهجرة والأزمات خصوصاً.

وقد يتسارع أيضاً تغير اللغة أو تطورها لأسباب تتعلق بالاحتلال أو الهجرة. فالاحتلال يسعى أولاً لفرض ثقافته عن طريق اللغة، ويسعى المحتلون بعد مغادرتهم لإبقاء آثارهم الثقافية واللغوية، ويهدفون بذلك إلى إبقاء «ولاء» فكر الناس لهم ليظلوا مرتبطين بالمحتل؛ لذا تجهد الدول الكبرى اليوم للسيطرة على الشعوب من دون غزو الجنود والعتاد، بل باللغة التي تحمل الفكر وتتغلغل في أذهان الناس وفقاً لعناصرها الثقافية، التي تصل حداً يطغى به على ملامح اللغة الأصلية وثقافتها.

وتترك الهجرة أثراً راسخاً في الذاكرة، فتغيب بعض استعمالات اللغة لغياب مواقف الحياة المعهودة في المهجر، فيؤدي ذلك إلى فقدان العناصر اللغوية الوطنية من الذهن، وهذا أحد أسباب شعور الغربة المشخَّص بعدم تطابق مفردات اللغة مع عناصر الواقع، فمن العسير وصف العالم الغريب باللغة الذاتية. والمهاجرون -إنّ عادوا- سيحملون فكراً جديداً يعبرون عنه بلغة تحمل تجدداً في المفردات وتنوعاً في الأفكار. فإما أن يتأثروا على نحو إيجابي بلغة الغربة فتُلطَّف بها لغتهم الأصلية، وإما أن تزداد غلاظة نتيجة قسوة الغربة وأزماتها.

سمات اللغة الدارجة إبان الأزمة

اللغة حاضنة الفكر والمعبرة عن انفعالات النفس. وللعقل استجابات تسبق الكلام، الذي يسوغ الفعل. فطريقة تلقي الكلمات ومظانها ظاهرة اجتماعية تتأثر بمقولات الفكر الجمعي؛ فإذا أتينا بكائنين بشريين ومَسسنا فكرهما بقول شائع متداول، رأينا أنهما يجيبان بكلام متطابق إلى حد بعيد، يترجم ما خلَّفه المحيط الاجتماعي من خبرات جماعية في ذهنهما. فكثيراً ما رأينا الناس في زمن الأزمة في سورية، وفي ذروتها خصوصاً، يكررون الكلام ذاته، وكله كلامٌ سمته التحدي والوعيد والانفعال، آملين أن يعوضهم نقصاً ويحمل مواساة من الوضع المزري من نواح عدة. فاتسمت اللغة الدارجة تارة بالشدة وإجبار القلب على القسوة

وطرد الشفقة، وتارة أخرى باستثارة العواطف بقوة واستنفار مكنوناتها الشديدة لشحن الهمم؛ فتتراءى في الحالتين معاً «سادية لغوية» تجلد الذات بشدة العنف أو العاطفة؛ فترتد بظلمتها على نفوس المتحدثين بها لتزيد من غمِّهم. إذ انشغل الناس بتأويل هذه الكلمات، وتناسوا الحضارة الناصعة القديمة في بلادنا، وتجاهلوا الحضارة الحديثة في البلدان المتطورة، فلم يستعملوا ألفاظاً مستقاة منها أو معبرة عن حالها.

وأتاحت الشابكة الانتشار الواسع لكلام القاصي والداني، وصار عددهم في تكاثر مخيف؛ فأعطى تجرؤاً زائداً في الحديث، وخصوصاً إن نال مرتاد موقع التواصل إعجاب أقرانه، فبات يقضّ مضجع اللغة ثقلٌ انفعاليٌ لا تطيقه الكلمات في كثير من الحالات، فضلاً عن طغيان السمة العامية والمثقّلة بالتشويه الشكلي والمجازي في الكلام الذي قد يُرمى جزافاً، مع العلم باحتواء اللغة على ما يكفي من ألفاظ وتعابير تعبِّر عن كل واقع بسلاسة ونداوة.

غير أن حدة هذا الكلام تناقصت مع خفة وطأة الألم الذي ألمَّ بنا، ولكن الآثار راسية في الأعماق، ولم يزل ردُّ الفعل اللغوي مشابهاً عند التعرض للمحرض القديم. والحاصل أن هذا الفكر اللغوي بحاجة إلى توجيه وتحسين وتلطيف.

تطوير الفكر بلغة العلم والفن

يجدر القيام بدراسات مجتمعية تنهض بالواقع من الجهات النفسية والثقافية والفكرية. وإن كان من الصعب الآن رفع المستوى المعيشي للناس، فحري على الأقل رفع المستوى الفكري، وتطوير المنطق الكلامي. ويجب أن تُفسِح القوة العنيفة التي اقتحمت أقاويل المواطنين المجالَ لظهور القوة الناعمة، بمنحهم سلاح الفكر السليم الهادئ، والحرب بالاقتصاد الموجَّه المدروس والثقافة المنفتحة، ولعل تنشيط الحياة الثقافية مسارٌ للعقل نحو التدرع بالقوة الذهنية، والتحصن ضد الأفكار المظلمة.

فالحاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى لعرض أفلام سينمائية على مرأى الناس من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية، وإنْ ندرت دور السينما فاللجوء إلى أجهزة الإسقاط في المؤسسات التعليمية والثقافية أمر ممكن ويسير، والواجب أن يغلب في الأفلام المعروضة طابع الخيال والتقنيات الحديثة حتى يقول المتفرج: أين نحن من هذا التطور فتثير فيه حب الاكتشاف والتفاعل مع التطور الحاصل حينَ يعيش لحظات خيالية تفلت منه فيحاول العودة إليها من جديد.. ويتعين الابتعاد عن أفلام القتال والعصابات، فإنها الأداة التي استُعملت منذ

نحو عقد ونيف -بصورة خاصة- لإيجاد متعة بصرية في الاقتحام والصراع والنجاح بأداء مهام مخلة بالأمان، نُفذت على أرض الواقع بتصوير «هوليودي» مدروس، حتى بات المتفرج يتلذذ برؤية هذه المشاهد الحقيقية المحاكية للمشاهد السينمائية.

وزاد من هذه «اللذة» الألعاب الإلكترونية التي تصور ساحات المعارك والنزال. فقلَّل ذلك من التأثر بمشاهد العنف التي انتشرت في الحقيقة وعلى الأرض لأن المتفرج بات مُتطبعاً على رؤية هذه الأعمال التي حُضِّر لها جيداً، بل بات ينتظرها في النشرات المسائية لأنها تحقق له في بعض الأحيان المتعة أكثر من الألم، مع كل ما فيها من مآس يعجِز اللسان عن وصفها. فحريٌّ الآن مع تغير هذه الصور في الأرض، تغييرها على الشاشة باستعمال هذه الأخيرة لأغراض نبيلة.

وينبغي دعم العروض المسرحية في المؤسسات التعليمية أو في المراكز الثقافية، لتُقدَّم فيها لمحات فنية أولاً، ولمحات أخلاقية مشغولة بصورة متقنة تحاكي الواقع ولا تطابقه تماماً، وتخرج عن المألوف كلما أمكن ذلك؛ فهي تشحذ الهمم وتلطِّف الفكر أيضاً. شأنها في ذلك شأن معارض الرسم التي تقدم لوحات حيوية تطغى فيها لغة فنية متفائلة وبهيجة، تكسر من حدة التشوه البصري الذي اجتاح الأمكنة وساد في الأذهان.

ويجب دعوة الشباب على اختلاف أطيافهم للمشاركة معاً في فرق فنية وموسيقية ورياضية، لتُصرف طاقاتهم في منحى إيجابي ومفيد. إذ يختبر الشبان نجاعة العمل الجماعي ويشعرون بمتعته، فيخفِّف ذلك من التنافر الفكري بين معتقداتهم وقيمهم، ويمنح الأفراد قوةً ومهارات تفاعلية واجتماعية، ويروِّج للغة سليمة في التحاور والتعاون والتكامل تعمر بها عقولهم ونفوسهم.

والحاصل أنَّ العلوم الإنسانية، من فن وفكر وفلسفة إيجابية وموسيقا وشعر..، تبدو أكثر ما ينقصنا اليوم، والمجاز أقوى وأمضى في وصف الواقع الغريب، أو لإظهار حالة جديدة بدلالات وتصوير حديث؛ فالشعر والموسيقا -مثلاً- ينقّيان الذهن ويسموان بالفكر ويزيدان من طهر النفس التي لابسها فسادٌ عظيم في زماننا، وتطبَّعت بأوصاف منفِّرة وسمات مكروهة ومنبوذة، وكذا حال النظرة الفلسفية المغسولة بماء الاعتدال والتآلف.

إنَّ المختصين في العلوم النفسية والاجتماعية مطالبون اليوم ببذل الجهد لإعادة إعمار العقل السوري، ولإبلاغ السوريين لغةً جديدة مفتاحها التصالح مع الذات بداية، ومع عناصر

المجتمع من أناس وأماكن ثانياً. فالحاجة ماسة لرؤية المبدعين يتألقون من جديد ليضفوا صورة لامعة على ركام الفكر الذي أضناه تكرار الأفكار المتعبة تكراراً أضرَّ به كثيراً، وحطَّ من قدْره جداً، واستسلم للغة تعبت تعابيرها وسئمت تحميلها ما لا تطيقه.. فلغةُ اللسان ولغة الفنون يصفان الواقع، وإنّ جهدنا لتغييرهما إيجابياً، سعينا بالمنحى ذاته لجعل الواقع متأثراً بهما.

الخاتمة

إنَّ تطور الواقع اللغوي يساعد في نقل إرث حضاري ناصع، ويدفع لتقديم صور تتجاوز السيئ وتدفع إلى الحسن. وإعمار الفكر يمر بالضرورة عبر تنقية اللغة من شوائب النوائب التي حلت بالبلاد؛ فتكون اللغة في خدمة الإعمار بمواكبتها الحضارة والتطور العلمي والفني بدلاً عن انهماكها بتصوير الانتكاس الاجتماعي والثقافي، وتتطور اللغة اليوم بتحسين اللغة الدارجة على الشابكة ولغة الدعاية والإعلام... فاللغة المعتدلة تجعل الإنسان حليماً وقوراً في كلامه وصفاته، وهي السبيل لاستعمار الأرض والنهوض بالمجتمع؛ فينبغي عليها مخاطبة العقل، وتوظيف العواطف لتغذية الانفعال المنطقي، لتصبح اللغة وسيلة لنشر الوعي والتحاور والتواصل الحسن وتبديد الخلاف؛ أي وسيلة للارتقاء في ميادين العلم والمجتمع كافة.

الـــرأي . . .

اللغة والخطأ

بيان الصفدي

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم ليس خافياً على علم وشعر كثير».

أبو عمرو بن العلاء

ليس خافياً على أحد أن اللغة العربية تعاني من عدة مصاعب في أيامنا، وهي شكل من أشكال التحديات التي تفرضها الحياة التي نعيشها، حيث يعاني المهتمون، من تعقيدات الإعراب التقليدي، ومن جمود الجهد في المعجم، ومن ضعف الفهم لتطورات اللغة في فنون التعبير شعراً ونثراً.

لكن الشبح المخيِّم دوماً فوق رؤوس الطلاب والكتاب هو الخطأ اللغوي، في المفردة والجملة، والنحو والصرف، والنطق والإملاء.

ما الخطأ اللغوي؟

يمكن أن نجمل الخطأ اللغوي بما يأتي: هو الخروج عن القواعد والأعراف اللغوية المعترف بها.

والخروج هنا يؤدي إلى سوء الفهم أو الرَّكاكة أو تشويه اللغة، وهي محذورات تتجنبها الشعوب جميعها، لأن الخطأ يهدّد اللغة نفسها إذا ما انتشر، وحلَّ محلَّ الصواب، وربما أسهمَ في مآرب سياسية تمَسُّ أمة من الأمم.

لكننا إذا ما ذهبنا عميقاً فستواجهنا عدّة وجهات نظر لا بد من أخذها بالحسبان، فاللغة على الدوام تتطور مع الحياة، ويثير التطوّر جملة من التحديات، تواجه بالجمود أو الانفتاح.

لكن ما المعنى العام للخطأ في لغتنا العربية؟

هــو مخالفة ما ورد عن العرب شــعراً ونثراً حتى عصــر الاحتجــاج، ومخالفة المعاجم المعترف بها، وما سنَّه النحاة الكبار من قواعد.

الخلاف حول الخطأ

المعضــلة الأســاس أنه تُثار جملة من الخلافات حول كل ما ورد قبــل قليل، فابتداء من القرآن الكريم، وهو أصدق وأهم معيار للصوابية- تواجهنا مشكلة القراءات السبع أو العشر، أو ما سمي بالقراءات الشاذة، مع أن الرأي الأرجح هو الأخذ بالقراءات السبع.

ثم تأتي مســألة الاعتراف بالقبائل التي يجوز الاحتجاج بلغتها، ثم العهد الذي نعدّه نهاية عصر الاحتجاج، إذ غلب أن يكون منتصف القرن الثاني من الهجرة في الحضر، ونهاية القرن الرابع في البادية.

وتتفرع اعتراضات متنوعة أخرى، كاللهجات، واعتماد الحديث النبوي أو تجاهله. أو الأخذ النادر منه، والفصيح والدخيل والمعرَّب.

ومعروف أن العلماء أنفسهم خطَّؤوا بعضهم بعضاً، ووصل الأمر إلى تخطئة الفصحاء، وفي جنون التصــحيح هذا ربحت اللغة وخســرت، ربحت الحرص عليها، ومنع تحويلها إلى أعوبة بيد من هبَّ ودبَّ، فأسَّســتْ ركائزها، وســنَّت قواعدها على يد كبارها من أمثال الفراهيدي والكسائي والأصمعي وسيبويه والزمخشري والجرجاني وابن جني.

لكنها خسرت عندما ضيَّق العلماء عليها كثيراً، أو تشدّدوا، فكاد يضيع الصواب، ورسَّخوا شكلاً من أشكال العبودية لما قرّروا غير آبهين بكلام العرب، ثم أغلقوا دائرة الحياة عندما لم يحتجوا بأعلام حضــارتنا في كل مجال، فصار على العربي «الصميم» ألّا يحتجَّ بلغة المتنبي أو المعري أو البهاء زهير أو الشاب الظريف إلخ.

ولا يستطيع أن يحتجَّ بلغة الجرجاني أو ابن جني أو ابن رشد أو ابن خلدون!

ولــم يُنظر إلى تطور الأســاليب اللغوية نظرة علمية منفتحة، تقدِّر أن لا شــيء في هذه الحيــاة العقلية ثابت، فكل شــيء في إطــاره الزماني والمكاني والاجتماعي خاضــع لقانون التجديد والتغير، واللغة من المظاهر شديدة التعلق بحركة الحياة.

يقول المازني:

«دخلت بغداد فأُلقيتْ عليَّ مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبي، ويخطّئونني على مذهبهم».

(مغني اللبيب ١/٩٥)

وقبله قال الأصمعي:

«اختلف رجلان في الصقر. فقال أحدهما بالصاد، وقال الآخر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول ما قلتما إنما هو الزَّقر».

(المزهر١/٦٣)

وقد يكفي مثقفاً معاصراً أن يطلع على كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» للأنباري ليطلع على التنوّع الكبير في النحو، لكن مع الإشارة إلى أننا في مناهجنا المدرسية أخذنا بالمدرسة البصرية في الغالب، ثم تحوَّلت تفاصيل هذا العلم إلى عبء حقيقي في زمن الدقة والسرعة العملية الآن.

التأليف في التصحيح اللغوي

شهد تاريخ العربية عناية كبيرة بالتصحيح، بل مبالغة غير مطلوبة فيه، وممن كتبوا فيه أبو موسى الحامض وأبو حاتم السجستاني وأبو بكر الأنباري والفرّاد وابن فارس والزبيدي والصقلي والحريري واللخمي وآخرون كثر.

وفي العصر الحديث تناولَ التصويبَ كثيرون كاليازجي والشدياق وعباس أبو السعود ومصطفى جواد وأنستاس الكرملي وزهدي جار الله ومحمد العدناني وصولاً إلى شوقي ضيف وإميل يعقوب وأحمد مختار عمر وعبد العزيز مطر وغيرهم.

وتولت مجامع اللغة العربية بشكل خاص أمرَ متابعة اللغة، واقتراح البدائل، وتصويب ما تراه خطأً، وكان لمجامع اللغة في مصر ودمشق وبغداد جهد بارز في هذا المجال.

التصحيح وأخطاؤه

إذا كانت العربية لا يحيط بها إلا نبيّ، كما يقول أبو عمرو بن العلاء، وإذا كان ما وصلنا هو قليل منها، والمعاجم لم تحصر مفرداتها كلها، ولا نستطيع أن نطلق حكماً بالتخطئة إلا بعد مراجعة لكل ما ورد عن العرب خارج المعاجم، فكيف سنحكم على الخطأ والصواب؟

ألم يقم كثيرون بالاستدراك على ما فات المعاجم، ولعل من المعاصرين فارس الشدياق صاحب «الجاسوس على القاموس»؟ لهذا فكم كان التصحيح تسرُّعاً، أو خطأً، أو جموداً!

إن الاطلاع على كتب التصحيح اللغوي مفيد في حالات الخطأ الصريح، أما تجميد اللغة في حيّز ثابت، محصور في المعجم، أو في كتب عصر الاحتجاج فعمل أقرب إلى العبث، لأن العربية أوسع وأجمل وأغنى، وأجدني شديد الانحياز لرأي العلّامة د. أحمد مختار عمر عندما يقول:

«لعل القارئ يدرك مدى خطورة التشدد في قبول اللفظة أو العبارة حين يعرف أن كتاباً مثل (معجم الأخطاء الشائعة) للأستاذ محمد العدناني- ولا أريد أن أغضَّ من قدره فهو في نظري من أفضل ما كتب في الموضوع- يحوي (١١٨٦) استعمالاً عدَّ معظمها من الخطأ الشائع، مع أن كثيراً منه يمكن قبوله بشيء من التجوُّز أو نوع من القياس والنظر».

(العربية الصحيحة ص٦٦)

ثم يحذر قائلاً:

«وأخشى ما أخشاه أن يأتي التشدُّد بنتيجة عكسية، وأن يحمل غالبية المستخدمين للغة على التمرّد».

(المصدر السابق والصفحة نفسهما)

العربية الآن

لندعَ تفاصيل التصحيح ومشاكلها التخصصية، ولنتحدث بشيء من التعقّل في واقع الحال.

فالعربية في تدهور متواصل، فعلى الرغم من انتشار التعليم ووسائل الإعلام، والفصحى تعاني تعلُّماً ونطقاً، وبدأ يغيب المعلم الكفء، والمصحِّح الثقة، وإن وجد المطَّلع على لغته كاتباً أو خطيباً أو قارئاً فهو عرضة للتخطئة التي جعلتنا نقول إنه لا أحد يتقن لغته.

ومن الغريب أن بعض مشكلات التصحيح لها علاقة بالبلد العربي ذاته، ولنأخذ مثالاً على ذلك كتابة الهمزة، فهي تُكتب في سورية مختلفة عن العراق أو مصر في كثير من الحالات، والمحزن أن العرب لم يستطيعوا حتى الآن إيجاد طريقة سهلة وموحَّدة للخروج من تفاصيل قواعد الهمزة التي لا جدوى منها عند التطبيق في الحياة العامة. وكثيراً ما نعاني من طريقة

كتابة الأعداد، والتذكير والتأنيث، والتثنية والجمع، وضبط عين الفعل الثلاثي، والممنوع من الصرف، والضاد والظاء، وكسر همزة إن وفتحها، وتفصيلات أخرى.

أرى أنــه لا بد مــن أن نخرج من هذا النفق، وإذا لم نفعل فقد نجد أنفســنا ذات يوم قد ضيَّعنا لغتنا، في الوقت الذي نظن أننا نحميها.

ومن أجل ذلك لا بد من خطوات سريعة إسعافية في هذا المجال، أهمها:

١- التركيز على اللغة السهلة المعاصرة، والابتعاد عن الجزالة في وسائل الإعلام والتعليم، واختيار الأسهل لغوياً حتى من تراثنا.

٢- تنمية الســليقة اللغوية السليمة في وسائل الإعلام، وتنشيط برامج ومسلسلات أطفال بالفصحى.

٣- اعتماد الفصحى في التعليم ابتداء من الروضة.

٤- وضــع معاجم تقوم على المفردات المســتخدمة كثيراً، وإيرادها حسب حرفها الأول، وبلا الرجوع إلى جذرها.

٥- تبسيط قواعد اللغة- خاصة في الإعراب- والإبقاء على ما له علاقة بالمعنى فقط.

٦- التســليم بأن اللغة مســتويات، لا يخطِّئ بعضها بعضــاً، فهناك لغة أكاديمية، وأخرى إعلامية، وأخرى تعليمية، وتبعاً لذلك فهناك مستوى فصاحة مختلف، من دون الإخلال بنظام العربية العام طبعاً.

نماذج من غنى اللغة

من المستحيل أن نأخذ الآن بقول ابن فارس: « وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه».

(الصاحبي. ص٣٣)

إن من حق الأدباء والعلماء في كل عصــر أن يُدخلوا إلى اللغة مفردات وأساليب متنوعة، بل من واجبهم، وسيكون إبداعهم دليلاً جديداً للاستعمال.

ولا نريد أن نذهب بعيداً، لكن يكفي أن نذكر ما يوفره لنا القرآن الكريم من اتِّساع لغوي، وما تمنحه البلاغة في مفهوم «التضمين» لتمنحنا أفقاً مفتوحاً في استخدام الأفعال وتعديتها أو لزومها، وكذلك لهجات العرب قديماً، فمن خلالها نعرف أن هذا التحجُّر خارج كلام العرب

أساساً، فلن تتهدم العربية إن قال بعضنا: «مديون»، و«نفس الشيء» و«زوجة» و«اعتبره فاشلاً» و«هذا بمثابة عذر» و«أمَّن واسطة للسفر» و«تعرَّف إلى أصدقائه» و«لعب دوراً مهماً» و«لم يتوقع دمقرطة المجتمع سريعاً» إلخ من الكلام الذي صار من حقائق اللغة.

ولا ننس أن الكتابة الصحفية تحديداً تحتاج إلى تقصّد في استخدام عبارات عامية، وهو أمر أشار إلى مثله الجاحظ منذ القديم.

إضاءات للتأمل

ومن المفيد أن نتأمل هذه الأقوال، لتضيء لنا الخطوط العامة فيما نعنيه من عربية صحيحة، خطؤها ليس من مماحكات علماء، بل من عدم قدرتها أن تكون لغة سهلة صحيحة عصرية.

«لما رأيت النحويين وأصحاب العربية قد استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج إليه المتبلِّغ في النحو من المختصر.. أمعنت النظر في كتاب أؤلفه وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين ليستغني به المتعلم عن التطويل».

(خلف الأحمر)

«الأعرابي إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله بعد».

«ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم»

«الشيء إذا اطَّرد في الاستعمال وشذَّ في القياس فلا بد من اتباع السمع الوارد به».

(ابن جني)

«لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، ولا ساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون وحشياً، إلا أن يكون المتكلم به بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس».

(الجاحظ)

«علي أن أذهب إلى ما قال أبو زيد: إذا جاوزت المشاهير من الأفعال التي يأتي ماضيها على فَعَلَ، فأنت في المستقبل بالخيار، إن شئتَ قلتَ: يفعُل بضم العين، وإنْ شئتَ قلتَ: يفعِل بكسرها».

(الفيروزآبادي)

«والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب».

(الشافعي)

«ابن عبيد قال لأبي عمرو: يا أبا عمرو، شغلَكَ الإعراب عن معرفة الصواب».

(الزبيدي)

«الكلمة الأعجمية إذا عرِّبت فهي عربية»

(الزمخشري)

«ليس اختلاف اللغات قادحاً في الإنسان».

(ابن فارس)

«اللغات الشاذّة لا تحصى، وإنما يعمل على ما عليه الفصحاء الموثوق بلغتهم».

(ابن هشام)

وظيفة الاستهلاك في المجتمعات الرأسمالية

مقدمة لدراسة تحليلية

د. زهير مناصفي

يرتبط الاستهلاك بآلية أساسية لعملية التقدم التقني القائمة على سلسلة دينامية من الإنتاج ومن استخدام الدخل في «كل» مشترك مما يسمح نسبياً بارتفاع دخل الفرد وازدياد مقدرته الشرائية.

ولقد اكتسبت السوق حالياً وبسبب الإنتاج الصناعي الضخم سمة كانت غير معروفة في الماضي لأن الإنتاج لم يعد يُحدد بحسب كمية الطلب بل بحسب قدرة الإنتاج فتراكمت البضائع وتحوّل السوق من مكان لعرض المبيعات إلى مكان لترويجها. فتتدخل عمليات التسويق (Marketing) لتصمم وتخطط للسلعة مستندة إلى أبحاث السوق ودراسة دوافع المستهلكين.

ومن أبحاث التسويق الحديث التركيز على المستهلك بدل التركيز على السلعة ومحاولة تعرُّف حاجاته بل في نهاية المطاف «خلق حاجات» جديدة لديه والعمل على إشباعها رمزياً.. وبتوجيه البحث إلى المستهلك لا تعود العملية الاستهلاكية عملية اقتصادية بحتة بل تتداخل فيها محدِّدات نفسية اجتماعية ثقافية جاعلة الاستهلاك ظاهرة اجتماعية قائمة على نشاط علائقي مع الأشياء ومع الآخرين.

- المقال مختار من مجلة دراسات عربية عدد (٥)، السنة الحادية والعشرون- آذار/ مارس (١٩٨٥م).

لذلك أصبح من الضرورة مراقبة هذه الظاهرة ومتابعتها ودراستها، خصوصاً وأنَّ الدراسات الحقلية في هذا المجال قد طبّقت المفاهيم النفسية والتحليلية. فعبر إستراتيجية عملية فرض «أيديولوجيا» الاستهلاك، استُخْدِمت هذه الوسائل لا بهدف العلاج والتكيّف ولكن بهدف السيطرة والاستغلال من النظام الصناعي.

لذلك فمن الأهمية بمكان كشف الطرق «الملتوية»- إن صحّ التعبير- التي سلكتها الدراسات الأجنبية للتخاطب مع المستهلكين عبر وسائط الإيصال الجماهيري (Mass. Media) أو من خلال المخازن الكبرى وما شابه.

وبما أن قسماً من مجتمعات ما يسمونه بالعالم الثالث هي مجتمعات تابعة وخاضعة اقتصادياً فإن الطبقة المسيطرة، التي تنشر ثقافتها على سائر الطبقات، تستمد اتجاهاتها وأهواءها واختياراتها من معتقدات المجتمعات الرأسمالية المنتجة، فتخضع بالتالي لأساليب البيع وتأثيراتها وقيمها (إعلان السلع التجارية الأجنبية في التلفاز مثلاً). فقد حاولت أساليب البيع تلك أن تُظهر بأن السلع والمنتجات تتمتع، بالإضافة إلى معانيها الأصلية، بمعانٍ تدخل في قانون السمات العلائقي كعناصر ذات دلالة ملبية إشباعات رمزية غير الإشباعات الرمزية التي توفرها السلعة.

وإلى جانب ارتباط السلعة بالمنطق الاجتماعي فهي على صلة أيضاً بمنطق اللذة والرغبة، فتستخدم السمات المضافة على السلعة لإشباع رغبات لا واعية قائمة على علاقة سحرية جبروتية.

- من جانب **المنطق الاجتماعي** تتم قرارات الشراء لأسباب تبدو عقلانية وكلها تعتمد حالياً مفهوم السعادة التي تصل إليها عبر الاستهلاك- «أنا أستهلك إذن أنا سعيد» كما يقول عالِم الاجتماع بودريار.

«فالسعادة الصناعية» هي سعادة شراء السلع وتكديسها. هذا «التكديس» يدخل ضمن منطوق الطابع التمايزي الطبقي مؤدياً إلى الشعور الوهمي بالمساواة.. مساواة جهاز التلفاز أو الغسالة الآلية وليس أبداً المساواة في المواطنة أو الدور أو العمل.

إذاً في أجواء هذه السمات لا تعود السلعة تُستهلك لذاتها وإنما لدورها أو مركزها مصطحبة معاني ثقافية اجتماعية طبقية. مثلاً:

(بنطال «الجينز» مصنوع من القطن، داكن اللون، حمول للاتساخ، يُغسل ويُلبس دون كَيٍّ لو أردنا، وهو رمز المراهقة والشباب والعمل والرفض أيضاً: رفض الياقات البيض وسلطانها.

ويعني أيضـاً أسـلوباً في الحياة قائماً على البساطة والعلاقات المباشرة والمرح والتعاون... تقرباً من الطبيعة ومن الأشياء...

ولكننا ماذا نرى حالياً؟ نرى مصادرة هذا النوع من اللباس لمصلحة الاستغلال الصناعي، فيعاد تصـنيعه من جديد على أنه سـلعة ذات دمغة (Une marque) واسم وسعر مرتفع وما الأجواء الفخمة في إعلانات الجينز الحديثة إلا دليل على ذلك).

تبقـى هـذه المعاني فاعلة خلف عملية الشـراء تلك والتي تبدو للشـاري كأنها عقلانية واقتصـادية، وهي التي تسيّر سـلوك الشراء وتؤثر فيه. فعندما يُسـأل المستهلك عن سبب شـرائه لسـلعة ما تكون الإجابة تماماً كما في الرائز الإسـقاطي حين يقول المفحوص شيئاً معبراً عن شيء آخر.

فهناك حقل اسـتهلاكي- أو ما يُسمى بالشبكة الاسـتهلاكية- وهو حقل اجتماعي نفسي حيث يقوم الإنتاج والنظام بدور تدريب الأفراد والجماعات على التعامل والعيش ضـمن هذا الحقل.

مثال: فكرة الكُلّية في الدراسات الجشطلتية أعطت تطبيقات فيما يَخُصُّ ترتيب المخازن الكبرى. فطريقة ترتيب السلع على الرفوف ووفرة السلعة من الصنف نفسه وتنوعها، والمجال الفيزيائي من تهوية وإضاءة وضجيج وتدافع، والبائعين في زِيّهم المميّز.. كل ذلك يخلق نوعاً من ذوبان طلق عند الداخل إلى هذا الحقل.

فالنظام الصـناعي الذي درّب الجموع كقوة إنتاجية في القرن التاسـع عشر أخذ يدربها الآن على أن تكون قوى استهلاكية.

- أمـا من جانب «**منطـق اللذّة**» فإن الإنتاج الصـناعي يجعل للسـلعة علاقة مع القوى الليبيدية والنزوات غير المشـبعة عارضاً السلعة على أنها إشباع لهذه القوى، ولكن إرضاءها يبقى وقتياً ولا تلبث أن تُعبَّأ هذه القوى من جديد وتحوّل إلى أيّ سـلعة أخرى تقوم بالإشـباع الوهمي. فالحاجة، من هذه الزاوية، إلى سـلعة معيّنة لا تعني شـيئاً لأنها لا تُشـبع الحاجة الحقيقية في الذات الإنسانية وبالتالي فالإنسان المستهلك المنطلق من هذا المنطق بحاجة دائمة إلى الاستهلاك.

فالعملية الاسـتهلاكية تعود بالحاجة (Le besoin) إلـى الرغبة، والرغبة تظل دائماً غير مشـبعة لأنها تتعلق بالنقص (Le manque). هذا النقص يقنّن ويوظّف (وهمياً) بالسـلعة...

وتظهـــر هـــذه التوظيفات بالإعلانات التجارية ويصـــبح هدف كل فـــرد أو مجموعة امتلاك واستهلاك هذه السلع دون كلل.

تعبئة النزوات هذه تُسهل استغلال و«ترويض» المستهلك من خلال إدارة وتوجيه العناصر اللاواعية عنده. مثلاً: الخطاب الإعلاني يطرح السلع كإشباعات بديلة «كمهدئات ومسكّنات» لمشاعر القلق العصابي والمخاوف والشعور بالذنب والهستيريا والوله الجنسي...

ولكن كيف تُنفّذ عملية التدريب/الامتثال الاستهلاكية؟

لفهم آلية الاستهلاك يجب الانطلاق، برأينا، من خلال تلازم زمن العمل/ زمن اللا عمل. فالحيـــاة الصـــناعية تتمركز حول حياة الإنتاج/ حياة أوقات الفراغ. وكان النظام الصـــناعي مسيطراً على زمن الإنتاج فقط (من هنا اهتمام الدراسات الاجتماعية الاجتماعية التحليلية والتحليل النفسي بدراسة وتفسير العمل وزمن العمل) بينما مع وضعية الوفرة والتقدم التقني وانتشـــار وسائل الإيصـــال الجماهيري امتدت الســـيطرة إلى زمن اللا عمل (الآن يوجد في فرنســـا وزارة لأوقات الفراغ ووزارة للبحار...) الذي أخذ يعبأ شـــيئاً فشيئاً لأجل الاستهلاك فصارت الحياة الصناعية تتمحور حول حياة الإنتاج/حياة الاستهلاك، (أنتج واستهلك).

وفي اعتمادنا الدراســـة التحليلية لفهم الوظيفة الاســـتهلاكية التي أصبحت ترتبط بزمن اللا عمل من الضـــروري العودة إلى زمن العمل القائم على مفهوم الحضـــارة. وبالتالي يمكن النظر إلى عملية الاســـتهلاك بأنها إشـــباع وتعويض وتسامٍ لكل النزوات التي عُطّلت في زمن العمل بهدف إعادة إنتاج قوى الإنتاج.

فزمـــن اللا عمل هو زمن الاســـتهلاك الخاضـــع لمبدأ اللذة من قِبـــل النظام... فالنظام يصـــادر، في عملية ثانوية، مبدأ الواقع ومبدأ اللذة محاولاً الســـيطرة التامة على الســـلوك والاختيار والآراء... تحت صورة مزيّفة من التحرر/القيّد...

لذلك سأركز بشكل موجز على مفاهيم **فرويد** في الحضارة وإسهامات **ماركوز** (Marcuse) **ومانديل** (Mendel) شارحاً وظيفة الاستهلاك ضمن هذا الإطار التحليلي.

طبق فرويد اكتشـــافات التحليل النفســـي على دراســـة المجتمعـــات فأدخل مفهوم **القوة النزوية** وآلية التوظيفات في «المواضـــيع» لشرح العلاقات الشخصية المتبادلة متيحاً لرؤية دينامية طاقوية في تفســـير الحضارة. فالنسق الحضـــاري في مفهوم فرويد هو نسق قمعي، كابت. فالحضـــارة تفرض على الأفراد التضحية، بإشـــباع النزوات لأن نهاية النزوة تدميرية

بالنسبة إلى المجتمع من جهة ولأن الحضارة تحيا من سحوبات هذه الطاقة النزوية من جهة أخرى. كما أنه في غياب اشتراك هذه النزوة في العلاقات الإنسانية يُهدد التنظيم الاجتماعي بالتفكك من قبل «غريزة» الموت.

فالحضارة- أي الجهاز العقلي الإنساني والبناءات الاجتماعية (التقنية والأخلاقية)- كلها تبدأ مع وبوساطة قمع (أو استلاب) النزوة. ففي مقدار الانسلاخ لجزء من النزوة وتميزها عن هدفها الخاص (الذي هو الانغماس في النرجسية والغلمية) يستطيع الإنسان أن يسمو ويعقل.

هذا الاشتقاق للطاقة يؤلف منهل الوعي والقلق والحياة الاجتماعية معاً، (من هنا العلاقة بين الحياة العقلية والحياة الاجتماعية عند فرويد). فالقسم الواعي من الشخصية وأدواته هي وسائل مشتقة من الصراع بين «مبدأ اللذة» و«مبدأ الواقع». هذا الصراع الثابت يميل إلى تنمية الفكر من جهة، وإلى تطور شعور غامض بالألم من جهة أخرى. فعند الإنسان نوع من إدراك أليم للقلق وعدم إشباع للّذة نفسها، هما ترجمة للصراع الداخلي.

إذن هناك صلة ظاهرة بين نسق الحضارة والشعور بالذنب. فالنمو الثقافي الاجتماعي يصاحبه نمو للشعور بالذنب وهو شعور عام وخاص بالجنس البشري (طول اعتماد الطفل على شخص يعتني به، قمع الحركات البدائية للطلب النزوي، التدريب الغذائي والعضلي الإفرازي، كبت وضعية أوديب، كلها مناسبات مشتركة لجميع البشر).

يكشف لنا هذا العرض عن أن الخبرة الصراعية بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة هي خبرة لا تاريخية وبالتالي قمع اللذة هو لا تاريخي. فيخلص فرويد إلى أن الإنسان في الحضارة هو إنسان لا يمكنه أن يصل إلى السعادة بل يبقى في بحث دائم عنها (ولكن العالم الاستهلاكي يقودنا إلى هذه «السعادة» كما رأينا من خلال شراء السلع. لذلك ندرك لماذا سعادة السلع هي سعادة زائفة).

كيف نفسر العمل انطلاقاً من هذه النظرية؟

تطابقاً مع نظريته يقول فرويد بعدم وجود ميل طبيعي للعمل. فالعمل يتطلب أيضاً نوعاً من «اختلاس» ميل الجسد للذة. فهو نتيجة ترك جزءٍ من الطاقة الجنسية. فالحضارة سحبت الجنس من مناطق الجسد ليتحول هذا البدن إلى أداة إنتاج.

ويفرّق فرويد بين العمل الخلّاق وهو تسامٍ للنزوة عبر إشباعات رمزية والعمل غير الخلّاق حيث تبقى النزوة غير مشبعة.

وعلى المستوى التطوري الفردي يضيف فرويد أن العمل ينشأ من قمع الأم لرغبة جسد الطفل من خلال تدريبه على السيطرة العضلية الإفرازية. (لقد «عملت» تبدأ الأم بالقول لطفلها.. وهو أول عمل/ هدية يقدمه الطفل لأمه).

ويعود فرويد فيعلن أن العمل ينشأ من الضغط الذي تمارسه الوضعية الأوديبية على الحياة الجنسية الطفلية، فهو يظهر على أنه يرتبط بوظيفة الأب الذي يخصي مما يجعل العمل بمثابة تكفير واستلحاق للذنب الذي يشعر به الإنسان تجاه الصور الوالدية نتيجة هذا الصراع...

هذا التصوّر يوصلنا إلى القول بأن العمل غير الخلّاق هو نتيجة للسيطرة؛ ويمكن لآراء فرويد أن تعطينا المفتاح لأساس مفهوم العمل/الاستلاب.

فالعمل غير الخلّاق هو نشاط مُستلَب حيث تحوّل سيطرة الأب إلى الجماعة.

وهنا أستندُ إلى تجديد بريسه لمفهوم الاستلاب من الوجهة التحليلية: الاستلاب هو استخدام الطاقة (الليبيدية) لا لصالح حاجات ورغبات الفرد ولكن لصالح غيره.

لذلك تُحاط وضعية الاستهلاك بسمات عكسية لوضعية العمل مع نفي دور الحضارة الكابت (غياب العمل عن عالم الاستهلاك؛ فالاستمتاع بالسلعة يحصل فترة خارج زمن العمل: اللهو، قيادة السيارات، اللعب إلخ، أو العمل الذي تفتقده حضارة معينة مثال راعي بقر مارلبورو).

فزمن اللا عمل يظهر من خلال الاستهلاك على أنه رفض إعادة اللذة إلى الجسد وإشباع النزوات والرغبات التي كانت قد حُصرت في عمل غير خلّاق، فهو زمن تعويض كل الاضطرابات التي سببتها الحضارة. ولكن المشكلة هي أن استعمال الطاقة لا يتم لصالح الفرد ولكن لصالح بيع السلعة.

فكل ما يثيره الاستهلاك من سمات وتداعيات هي وهمية وغير صحيحة...

ولكن هل يكفي تزويد السلعة بالقدرة على الإشباعات اللا واعية حتى تُشترى؟

بالطبع هناك عمليات اقتصادية اجتماعية تتداخل في قرارات الشراء، ولكن ما يهمني هو الوجهة التحليلية من هذه العملية.

إن جزءاً مهماً من الاستهلاك يعود إلى فكرة ما يُسمى «بالنقص» وهو الذي يُشكّل القوة الحركية التي تدفع الإنسان لعدم الاكتفاء بما هو حاصل عليه، لأن القوة النزوية (النزوة المكبوتة) هي التي تحاول أبداً الإشباع الكامل.

هذا الإشباع عماده إعادة إشباع أولي قديم... إذن هناك فارق بين الإشباع الذي يحظى به الفرد والإشباع الذي يسعى إليه، مما يخلق قوة محركة تمنع الإنسان من الرضا عن وضعيته الحاليّة مهما كانت، وتدفعه دون اطراد إلى الأمام أي إلى تغيير هذه الوضعية.

وبما أن العودة إلى الوراء في الحالة السوية محظورة (هذه العودة تصبح ممكنة في حالة الاضطرابات النفسية) لا يبقى على الفرد إلا أن يبتغي الطريق التي تُركت مسموحة (طريق الإشباعات البديلة) دون الوصول أبداً إلى غايته. ويطرح النظام الرأسمالي الاستهلاكي السلعة على أنها الهدف البديل مسهّلاً إطلاق القوة المحركة التي تكلمنا عنها وإضفاءها على عمليات الشراء.

ولكن الإنسان يتمتع بمقاومة وبدفاعات وبفكر ناقد، فيردّ الإعلانُ باستعمال كل الإغراءات الممكنة، جاعلاً القيم الإيجابية في السلعة، محاولاً تحطيم مقاومته وتقويضها، تساعده على ذلك الثقافة الاستهلاكية المنقولة عبر وسائل الإيصال. فلو نجح المستهلك في مقاومة رغبة شراء سلعة ما فهذا لا يعني أنه نجح في الخروج من شبكة الاستهلاك التي تلغي حريته ثم تحيطه من كل جانب، ولا تعود السلعة هي الإشباع ولكن الاستهلاك نفسه هو ذلك الإشباع. (نفهم كم هو أساسي ومركزي دور الإعلان في عملية الاستلاب).

أما **ماركوز** فقد حمل على الفرويديين الجدد أمثال **إريك فروم** والذين بيّنوا عن «جهل فاضح» الطابع الاجتماعي العميق في فكر فرويد، فبالإضافة إلى الكبت كواقع حتمي ملازم للحضارة بعرض ماركوز «لفائض الكبت» أو الكبت المضاعف (Surplus Repression) ويعني قدراً كبيراً جداً من الكبت الجنسي كنتيجة إلزامية للشكل التاريخي المميز للحضارة. وهو كبت في خدمة السيطرة، إذن هو تاريخي اقتصادي. فائض الكبت هذا لا يخضع لمبدأ الواقع بل لمبدأ الأداء، (Performance Principle) أي كلما زاد الإنتاج والعمل زاد الكبت.

أدخل **ماركوز** هذا المبدأ ليفسر واقع المجتمعات الصناعية الرأسمالية «المتقدمة» الذي يزيد كبت النزوة، لكن هذه المرة من قِبَل جهاز الإنتاج الجديد. ففي مجتمع تتركز فيه كل قيمة من القيم على العمل المأجور لا بد للذة أن تفقد قيمتها وتنضوي تحت القيمة

المأجـورة. لذلك فـإن أي زيادة في اللذة تعرّض النظام للخطر. هذا هو شـرط مبدأ الأداء والضروري لاستمرار عمل النظام الرأسمالي.

ويظهر هذا القمع كأنه عقلاني بسبب شموليته، فيدخل في كل المجتمعات التقنية ويؤثر على الأفراد من جهتين:

- تعاش هذه العمليات من جهة على أنها موضوعية.
- ومن جهة ثانية تعاش على أنها قوى مجتافة.

فيعيش الفرد قمعه الخاص «بحرية» كما لو كان فعلاً سـيد حياته، لذلك تمتد السـيطرة الخفية إلى زمن اللا عقل أي زمن اللهو والترويح والاستهلاك. فيجب ألا يُترك الفرد لنفسه، فيتحول الجسد والعقل إلى أداتين للاستلاب.

ويضـيف **ماركوز** إلى هـذا المفهوم فكـرة الكبت غيـر المتسـامي (Unsublimated Repression) ويعني تحرير الجنسـية تحت أنماط وأشـكال تضـعف الطاقة الغلمية. فتمر الجنسية إلى ميادين وعلاقات كانت في الماضي محرمة. فإدخال عناصر جنسية في الأعمال وفي السياسـة وفي الإعلان والدعاية هو مثال على ذلك. فبعد أن تجردت الدوافع الجنسية الجزئية من جنسـيتها وانصـاعت لمتطلبات تنظيم اجتماعي معيّن (مبدأ الأداء) فلا بُدّ من إيجاد مصـادر بديلة تكون بمثابة قنوات تفريغ للطاقات الجنسية الجزئية للناس في مسارب غير ضـارة ومراقبة. (الكبت غير المتسامي)=اللهو، وسـائل الترفيه، الميول الحديثة، التي نراها في عملية «التوتاليتارية» أكان ذلك في العمل أو في الترفيه.

ولنأخذ مثلاً اللهو الذي يتم على شـكل الراحـة، الامتثالية، الفظاظة، العنف... لوجدناه يمثـل نوعاً من الخلاص تجاه القمع، نوعاً من خلاص للبدن «المتحرر» من مفسـدة العمل. بكلام آخر عملية استرداد الجسد للطاقة الجنسية ضمن إشباعات بديلة.

أما النزوات العدوانية فتُقنن نحو اسـتغلال الطبيعة والسـيطرة عليها: فتدمير الخبرات أصبح مرادفاً للحضارة والاستهلاك والعيش الرغيد.

لآراء ماركوز أهمية في إظهار هذا النوع من اجتياح الواقع على حساب النزوة، أي الازدياد السريع والمقبول للاستلاب العقلي.

فالمجتمعات الرأسمالية «المتقدمة» تشهد الآن تغييراً في علاقات الإنسان مع نفسه ومع الآخرين وذلك من خلال:

• تقهقر صورة الأب (لم يعد الأب يسيّر المؤسسة).

• تراجع الجنس نحو الغلمية (دعاية، إعلان، استهلاك).

• تراجع العدوان نحو الجناح (Délinauance).

• تحوّل اللهو الفردي إلى امتثالية جماعية بواسطة وسائل الإيصال الجماهيري.

• انتصار «إيروس Eros» (أي نزوة الحياة) الجماعي على «إيروس» الأسروي...

بالاستناد إلى هذه الآراء تظهر وظيفة الاستهلاك بأنها قمعية وتدخل ضمن مفهوم الكبت غير المتسامي؛ فغرض إستراتيجية النظام السيطرة على اللذة ثم تحريرها في قنوات منضبطة وأهداف وهمية عبر ثنائية العمل/ اللا عمل...

أما تحليلات مانديل فهي لا تتوافق مع مقولات ماركوز لأسباب عديدة لا مجال لشرحها الآن وما يهمني من آرائه بعض المواقف المختصة بالمستوى الاجتماعي- التحليلي.

يقول مانديل بنواة إنسانية وراثية (Anthropogène) نوعية لا يمكن لأي حضارة تغييرها مبنية من مجموعة خصائص:

• فيزيولوجية (تراكم كمي طاقوي ناشئ من بطء النمو الحركي عند الإنسان، مع تطور حسي إدراكي نتيجة ذلك، مما يزيد من التوترات الداخلية ويؤدي إلى ظهور القلق عند أول إحباط).

• أنساق لها وظيفة هوامية ناشئة من تكوّن تصورات عن أشياء «جيّدة» وأشياء «سيّئة» تترابط هذه الأشياء الخطرة والمدمرة مع كل معيش «قبل- الأنا» (Pré-moi)، مؤدّيةً إلى نسق أساسي نوعي عند الإنسان هو الكبت الأصلي.

• تماهيات أولية مع «الأم السيئة» و«الأم الجيدة» أي هناك جزء من الليبيدو النرجسي – حب الذات- قد وظّف في الموضوع.

إن ما يُكتب في المرحلة الطفلية يُسقط على العالم الخارجي ويُعاد اجتيافه (أي إدخاله في الذات) من جديد مكوّناً صورة الأم السيئة. نتيجة هذا الإرصان لا يعود القلق الإنساني الأولي (مرحلة اللا موضوع Anobjectal) يُمارس داخل النفس مدمراً الأنا، لكنه يجد توظيفات هوامية في الخارج أي في الموضوع.

فابتداء من إدراك العالم الموضوعي يوجه جزء من الليبيدو النرجسي للموضوع وهذا ما يُعرف بالجنسية ويتحول القلق فيصبح عدوانية.

تتميز هذه الأنساق وهذه التماهيات بوظيفة نضالية ضد القلق النوعي الحاد عند الإنسان، ويتحـــول هـــذا القلق باكراً، كما رأينا، إلى عدوانية بعد توجيهـــه إلى الخارج. ولكن خوفاً من ارتداء كثيف لهذا القلق الأثري نحو الذات يكون بالإمكان التشبث بمراحل أولية غير متكيفة من النمو ورفض التطور والواقع الخارجي معاً.

لذلك فإن الجهاز النفسي انبنى بالشكل الذي هو عليه بهدف مقاومة الميل لهذا الإشباع الأولـــي (أي العودة إلى الذوبان في الأم) الذي لا يتلاءم مع الحياة وبهدف التغلب على القلق والعدوان الناتجين جرّاء هذا الإحباط.

فهناك إذن، وبشكل مؤكد، حنين لعلاقة أوّلية جيدة مع الأم، حنين لوضعية حاضنة، دافئة، رابتة ومحبوبة وغير متميزة. وهناك أيضاً هذه القوة التي تمنع الشخص من العودة إلى الوراء نتيجة وجود صـــورة الأم الأثرية التي تجمع في اللا وعي نتائج إحباطات الطفولة الأولى أي صورة الأم السيئة.

تخطّى عالَم العمل والإنتاج هذه الصـــور فهو عالم ناشـــئ من صورة الأوديب ومن إحلال التماهيات بصورة الأب.

لكن ماذا يحدث حالياً في المجتمعات الصناعية؟

هناك تَغييب لصورة الأب واجتياح صورة الأم «المخيفة» الناشئة مع نمو قدرة التكنولوجيا الحديثة. فالسلطة التقنية أصبحت تُعاش على شكل هوام أم أثرية جبروتية قد أخصت الأب بمعنى أنها شوّهت القيم. فالأب الاجتماعي الجديد هو أبٌ مخصي وعاجز.

فالعمل والإنتاج في المجتمع الرأســمالي التقني يُعاشـــان على صـــورة الأم الأثرية بينما يُعرض الاستهلاك وعالم اللا عمل على صورة الأم الجيّدة، (الفصل نظري فقط) التي تقدِّم ثدياً مانحاً بل إن الاســـتهلاك هو عالم «يهتم» بنا، «يعطف» علينا ويلفنا بالســـلع التي تُشـــبع حاجاتنا.

هذه الســـلع متجددة على الدوام ومماثلة قطعاً في اللذة التي تولدها. فتحت ســـتار تبادل كهذا، تخصي السلطة الاجتماعية الحديثة الأفراد وتجعلهم منحلين، طفليين (إدخال الكحول، التدخين، مراهنات سباقات الخيل، الإعلان، الأفلام الخلاعية في الحياة الاجتماعية)؛ فكل المهارة تقوم على إغراق الصـــراعات الاجتماعية ضـــمن تشريط قائم عبر استغلال نكوصي للصراعات النفسية (النكوص هنا من الاجتماعي إلى النفسي..).

من الضروري هنا توضيح قضية الحتمية الاجتماعية للقمع النزوي. فهناك طبيعة إنسانية خاصة غير مشتقة من وظيفة الاجتماعي- الاقتصادي. ولعل ما يحصل في المجتمع هو الآتي: يمكن للنظام الاجتماعي القيام بعملية «إنتاج» النفس الإنسانية في الظواهر الاجتماعية وهذا ما يعطي الانطباع بأنَّ الاجتماعي- الاقتصادي هو المحدِّد الأول، المؤدّي إلى ظهور:

- عمليات إسقاط (أي لفظ إلى الخارج) لرغبات لا واعية ذات طبيعة طفلية.
- عمليات تماهٍ بمثال الأنا (صور الأب، الأوديب).
- عمليات إدماج لا واعية لخبرات حدثت في الواقع الخارجي.

يستعمل النظام هذه الأواليات لمصلحته الخاصة. فعمليات الإسقاط على الموضوع (اجتناباً للقلق). والتي يستغلها للبيع، لا يمكن إلا أن تكون في هذه المرحلة تدميرية، لأنه يعرض عالماً «استهلاكياً أمومياً» لا يوجد فيه مكانٌ للتماهي بصورة الأب. فعالم السلع والبيع هو عالم تدمير السلع أيضاً، والأمثلة على ذلك متوفرة: فالأخبار الصحفية والإذاعية والمتلفزة تحمل صور الموت والدمار والصراع - خصوصاً عن العالم الثالث- وهي ترجمة لإسقاط النزوات غير المقبولة.

أما عمليات التماهي المعروفة في هذا العالم الاستهلاكي فهي عمليات تماه مع الأم قبل الأوديبية. لذلك هذه السلع لا تُعطي أي قيمة ذاتية للذي يشتريها لأنها لا تحمل تحقيقاً فعلياً للذات تمكنه من المكاملة - من خلال السلعة- بين العدوانية والتجاذب العاطفي الضروري للنمو السويّ.

لذلك تسيطر الأم الاجتماعية وتنوّمنا «مغناطيسياً» بواسطة مواهبها الخارقة وتقنياتها المهدئة.

كما أن وسائل الإيصال الجماهيري تحاول من جهة تخدير قدرات الوعي الشخصي وشلّها بينما يتقنّع عالم الاستهلاك من جهة أخرى بطابع الأم الحنون مقدماً الطمأنينة والاعتبار مقابل حصوله على جعل الأشخاص خاضعين أبداً، ثم تدخل العلاقة التفاعلية مع خيرات الحياة والسلع لتأخذ معاني ورموزاً مشتقة من المعاني الأولية لعلاقات الطفل.

في الحقيقة كل ما يحدث هو لخدمة الرأسمال أو المصنع أو النظام؛ فالإنسان المنتج في خدمة الإنسان المستهلك، والإنسان المستهلك تحت رحمة السلعة المباعة في السوق وهذه الأخيرة تقوم كما رأينا على قوى ومعانٍ متعددة تقوى باستمرار ولا يمكن ضبطها. لذلك نفهم لماذا تنشر الحضارة الحالية ثقافة اللذة وغُلمية الحياة.

ويمكننا في النهاية القول: إنَّ الوضعية الاستهلاكية تصعّد الصور الأولية للأم قبل الأوديبية، فهي وضعية شبه ذهانيّة، أما الإجابة المطلوبة أي شراء السلعة فهي إجابة عُصابية (تشبث، هجاس، هستيريا ...) فالوضعية الاستهلاكية تخفي تبعية تجاه النظام هي نتيجة عملية إزاحةٍ للحب الأول بينما يساعد تكديس السلع على التحقيق النرجسي؛ فيُسْتَغَلُّ الصراع الأوديبي من خلال نفي هذا الصراع عبر استعمال الليبيدو النرجسي وليبيدو الموضوع معاً.

فالإعلان مثلاً يستخدم صور الحنان والدفء والدعة (عودة إلى الأم) أي التشبث والتعلق من جهة، ثم تجاوزها من جهة ثانية حين يعرض صوراً قابلة للتماهي مدغدغاً بذلك نرجسيتنا (صور الإنسان المغامر والناجح...). استخدام هذه القوى يقيد المستهلك ويتحول الاستهلاك إلى صورة صفات المخدّر يطلب دائماً تحت طوطم الدمغة مؤدياً للسلعة تحت امتدادات وهمية للشخصية.

لذلك تقوم استراتيجية البيع على الاهتمام باللا وعي ثم دغدغة الأركان الواعية مما يترك انطباعاً بأن المستهلك يتمتع بحرية الاختيار.

❀ ❀ ❀

قراءات

فكر المعري

ملامح جدلية

وليد شعيب

فكر المعري (ملامح جدلية) كتاب نقدي يقع في نحو (٣٤٠) صفحة، من الكتب النقدية، التي تناولت فكر المعري.

وعادةُ الجُوعِ، فاعلمْ، عِصمةٌ وغنىً   وقد تزيدكَ جوعاً عادةُ الشّبعِ



يرى الكاتب أن أبا العلاء قد بزّ سواه من أدباء عصره ومفكريه، في امتلاكه عناصر بنية جدلية متكاملة، لا ينقصها سوى الصياغة النظرية المتماسكة. وقد رأى قبل الخوض في الملامح الجدلية لدى أبي العلاء أن يمهد بفصول ثلاثة، يعرض أولها الخطوط الرئيسة للمنهج الجدلي، ويتناول ثانيها شواهد من الإرث الجدلي في الفكر الإنساني، فيما يختص ثالثها بجوانب من ذلك الإرث في الفكر الإسلامي الوسيط. وقد استند الكاتب في قراءة الملامح الجدلية في فكر المعري إلى الصياغة الحديثة للمنطق الجدلي، وقد توزعت مادة البحث على عدة أغراض، تناول كلّاً منها بالعرض والتحليل، ورتّب الشواهد التي اختارها، بدءاً «من تلمس الوحدة والترابط في رؤية المعري للوجود، ثم التضاد

في القضـــايا، والتماس صراع الأضداد ووحدتها، والســيرورة الجدلية التي تنقل الأضداد، عبر صراعها، إلى تركيب أرفع، وهو ما يعبّر عنه بقانون الجدل الأول. يلي ذلك تقصي شواهد على التحول من الكم إلى الكيف، وإدراك المعري للطفرة التي تمثل نقطة التحول، في انطوائها على مقولة المعيار. وهو ما ينعكس في قانون الجدل الثاني.

بعدها يتتبع الكاتب الحدس العلائي لمضـــمون القانون الثالــث (نفي النفي) ويتناول ما يتصل بمسألة المعرفة، والمقولات المنطقية، وما يتعلق بها من أفكار.

مهد الكاتب لفكر أبي العلاء بباب بعنوان الجدل فكان بحثاً طويلاً جاوز المئة والعشرين صـــفحة يكاد يغرق فيه القارئ ويرهق في بحر الجدل العميق لولا أســلوب الكاتب المتمكن، الســلس والمشــوق، الذي يشكل قارباً جميلاً رشــيقاً يحمل القارئ على متنه لمتابعة الرحلة الشــاقة للوصول إلى بحر المعري. لكن في واقع الأمر، فعلى الرغم من أهميه تلك المقدمة سالفة الذكر، كان يفضل أن يفرد لها كتاباً مستقلاً وهي تستأهل ذلك.

قســم الكاتــب هذا البــاب إلى أربعة فصــول. عرض فــي الفصــل الأول لملامح البنية الاقتصــادية- الاجتماعية والحياة الفكرية في عصر المعري، حيث ألقى الضوء على أسلوب الإنتــاج ما بيــن القرنين الرابع والخامس الهجريين، إبان الفتــرة التي عاش فيها المعري في ظل أنظمة أتوقراطية- اســتبدادية ساد فيها أســلوب الإنتاج إقطاعي الشرق. كما تعرض إلى البنية الاجتماعية في العصر العباسي- الفاطمي وما نجم عنها من صراع اجتماعي حيث تربع الخليفة وحاشيته على قمة الهرم تليهم الأرستقراطية الإقطاعية وقادة الجند. وعرض الكاتب لمذاهب الفكر والكلام التي سادت حينذاك رغم الصراعات والثورات والحروب.

في الفصــل الثاني تناول الكاتب المنهج الجدلي في مدلوله الحديث الذي اكتســبه على يد الفلاســفة الألمان، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: (**كانت، فيختته، شيلنغ، هيجل، ماركس**). «الجدل، وفق الرؤية الحديثة، هو المنهج المعرفي- المنطقي الذي ينظر إلى الكون كوحدة واحدة مترابطة متفاعلة، يؤثر الكل في الجزء، ويؤثر الجزء في الكل، وهذه المنظومة الواحدة لا تعرف الثبات أو الســكون فهي جيّاشــة بالحركة، وفي حال من التغير الشامل، من الأزل وإلى الأبد». وقد أشار الكاتب إلى قوانين الجدل الثلاثة:

القانون الأول: قانون تحول الكم إلى كيف، «التراكم الكمي يؤدي إلى تغيّر كيفي».

القانون الثاني: وحدة الأضداد وصراعها، «وهو يعبر عن المصدر الداخلي للتطور، وقوته المحركة، فما من ظاهرة في الوجود لا تنطوي على أضداد متصارعة».

القانون الثالث: نفي النفي، «وهو يصف آلية التطور، وتعاقب مراحله، واتجاه سيرورته: من الأدنى إلى الأعلى، ومن الصور البسيطة إلى الأكثر ثراء وتعقيداً، وقد اتخذ لبوساً يتمثل في الثلاثية: (الظاهرة، نفيها، نفي النفي)».

كما أشار إلى المقولات الفكرية كالسبب والنتيجة، الحتمية والحرية، الضرورة والصدفة، المحتوى والشكل، الوحدة والكثرة وغيرها، هذا بالإضافة إلى نظرية المعرفة ودرجاتها، الحقيقة بين المطلق والنسبي، الوحدة الدينامية للعالم وإلى ما هنالك.

في الفصل الثالث ألقى الكاتب الضوء على بواكير الجدل في العصر القديم، الإرهاصات الشرقية الحكيم الصيني الكبير **لاو- تسو** ثم الجدل في الفكر الإغريقي بدءاً من **هيرقليطس** (٥٣٥-٤٧٥ق.م) مروراً **بزينون الإيلي وسقراط وأفلاطون وأرسطو**.

أما في الفصل الرابع والأخير من الباب الأول فقد تناول فيه الملامح الجدلية في الفكر الإسلامي في عصره الوسيط حيث انتقلت العناصر الجدلية بزخمها، من الفلسفة الإغريقية إلى الفكر الإسلامي، وتداخلت مع المؤثرات القادمة من الشرق، **كالزرادشتية، والبوذية، والمانوية، والدهرية** .. «فتضفي عليها الثقافة الإسلامية طابعها وأصالتها، لتنتج عدداً من الفلاسفة والمفكرين الكبار **كالمعتزلة، والكندي، والفارابي، والرازي، وإخوان الصفا، وابن سينا، والكرماني**، في المشرق، **ابن باجة، وابن طفيل، وابن رشد، وابن عربي**، في المغرب، وقد تفاوتت الملامح الجدلية في أفكار هؤلاء».

بعد هذه المقدمة الطويلة والثرية في آن، في الباب الأول، يصل الكاتب إلى الباب الثاني الذي يتناول فيه فكر المعري في سبعة فصول يبدأ فيه الفصل الخامس بعنوان: **جدل في الطبيعة والحياة**.

وقد أشار الكاتب إلى أن الكلمة المفتاحية للدخول إلى فكر أبي العلاء هي العقل:

اللّب قطب والأمور له رحىً ... فيه تدبّر كلها وتدار

ويقول المعري:

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه ... شيئاً ومنه بنو الأيام تغترفُ

فكل معرفة جديدة يحوزها العقل، تمثل توطئة لمعرفةٍ أرفع... وإذا راودت الشكوك الإنسان، في أمر ما، ورانت عليه الحيرة فما من هادٍ غير إعمال الفكر:

تفكّر فقد حار هذا الدليل ... وما يكشف النهج غير الفِكَر

فالفكر، خالصاً من المصادرات الفلسفية والإيمانية، هو الدليل الوحيد لاستكشاف السبيل السوي.

وفي هذا إضاءة لجانب من رؤية المعري في مسألة المعرفة، فإن حيرة المعري، وشكه، ليس بالشك المبدئي أو المطلق، إنما الشك الذي يثيره التأمل في الوجود، وخاصة في المسائل التي يصعب الحكم فيها، كالتصورات الغيبية».

كان أبو العلاء، أشد الناس اتهاماً للأخبار ورفضاً لها، فهو لا يؤمن بالتواتر ولا يراه حجة...

فالمعري يرى في رواية آدم التوراتية- على سبيل المثال- ما يدعو إلى التساؤل:

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدمٌ على إثر آدم

ومن شأن العقل المستنير برؤيته الجدلية أن يستقرئ نواميس الوجود ... ولعل أول ما ينكشف لذلك العقل، الحضور المهيب للدهر، الذي يضرب بأصوله في الأزل، لكنه المتجدد في كل حين، فهو الدهري الفتي أبداً:

والدهر عودٌ بلا فناءٍ أو جذعٌ ما له بزول

وقد بيَّن الكاتب أن المعري قد أدرك العلاقة الجدلية بين الزمان والمكان وماز بينهما حين نسبهما إلى الحركة:

أما المكان فثابتٌ لا ينطوي لكنْ زمانك ذاهبٌ لا يثبتُ

ويستشف من بعض آثار المعري، نزوعه إلى رؤية لا سكونية للكون، فما يبدو لنا كوناً مستقراً، إنما يمثل حالاً نسبية عارضة، على تطاولها - فالحركة والتحول ناموس الوجود:

نزول كما زال أجدادنا ويبقى الزمان على ما نرى
نهارٌ يضيء، وليل يجيء ونجم يغور ونجم يُرى

ويهتدي عقل المعري ذو البنية الجدلية إلى الترابط والتفاعل الشاملين اللذين يوحدان الكون:

وبعض ذا العالم من بعضه لولا إياةٌ لم يكن فختُ[1]

وفي بنية الإنسان تجتمع الغرائز المتباينة وتؤلف في ترابطها منظومة حية واحدة، فإذا حان حينها، انفرط عقدها، وعادت إلى موادها، أو صورها الخالصة:

جمعت جسومٌ من غرائز أربعٍ وتفرّقت، من بعدُ، مجتمعاتها

فليســـت الحياة، أو الصحة، سوى موالفة متناغمة بين تلك الأضداد. فإذا دبّ الخلل إلى إيقاعات التناغم، غلب التضاد التآلف، وبرزت عوارض المرض.

تلك كانت حال الجسد، فما حال الروح وعلاقته بالجسد التي شغلت فكر المعري؟ ورغم تردده بين أفكار كثيرة إلا أنه يرى اتصال الروح بالجسد، كنزول الظعن في الربع، فهي تعمره حيناً من الدهر، ثم ترحل عنه تاركة طللها (الجسد) وراءها:

والجسم للروح مثل الربع تسكنه وما تقيمُ إذا ما خُرّب الجسدُ

أما أين يذهب الظعن بعد فراق مربعه، فليس من إجابة:

الروح تنأى فلا يُدرى بموضعها وفي التراب لعمري يُرفتُ الجسدُ

ويتساءل الكاتب: هل تمضي الروح في الفضاء الرحب لتتخامد في منتهاها، أم لعلها تلبث في دنياها هذه مبدلةً قميصاً بقميصٍ؟ فيستشهد بقول المعري:

وقد زعموا هذي النفوس بواقياً تشكّل في أجسامها وتهذّبُ
وتنقلُ منها فالسعيد مكرّم بما هو لاقٍ والشقيّ مشذّبُ

ويتســـاءل الكاتب: هل اقتصرت جدلية المعري على تقصي واكتشاف اصطراع الأضداد ووحدتها؟ أم إن البنية الجدلية لعقله الفذّ، اســـتطاعت اكتناه الســـيرورة التي تحوّل التغيّرات الطفيفة، والتراكمات الكمية البطيئة، في هذه الظاهرة أو تلك، إلى نقلة كيفية، هي ما يعبر عنها الفلاسفة الجدليون، في العصر الحديث، بقانون تحوّل الكم إلى كيف ولنتلمس معاً كيف يقرأ ذلك العقل النيّر، المظاهر المألوفة في الطبيعة والحياة الإنســـانية، فيلتقط فيها نبض الجدل المستمر، الذي يحول التراكم في الكم إلى تغيّر في الكيف فيقول:

وحبل الشمس مذ خُلقت ضعيف وكـــم فـنـيـتْ بـقـوتـه حـبـالُ

ويطابق المعري بين ثنائية «النور والظلمة» وهي إيقاع للطبيعة، وثنائية «الخير والشـــر»، وهي إيقاع إنساني وها هو يعيد صياغة التجاوب بين الطبيعة والإنسان على نحو آخر:

والشرّ في الإنس مبثوثٌ وغيرِهمُ والنفع مذ كان ممزوجٌ به الضررُ
تناقض في بني الدنيا كدهرهمُ يمضي المقيظ وتأتي بعده القِررُ

ويقف المعري طويلاً أمام مصير الإنسان المأساوي المرسوم منذ ولادته:

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـسَ بصوت البشير في كل نادِ
إنَّ حزناً في ساعة الموت أضعا فُ سرورٍ في ساعة الميلادِ

كما أنه يقلب الفكر ويسأل النفس: كيف للأم التي تغذو بنيها أن تلتهمهم في النهاية!:

والأرض غذتنا بألطافها ثم تغذّتنا فهل أنصفت!

جاء الفصل السادس في الكتاب تحت عنوان: جدل في المجتمع الإنساني ونرى فيه كيف أن أبا العلاء حمل إيقاع التضاد الثنائي من عالم الطبيعة إلى المجتمع الإنساني من خلال ثنائية «الخير والشر»:

خيرٌ وشرٌّ وليل بعده وضحٌ والناس في الدهر مثل الدهر قسمان

ونتعرف في هذا الفصل موقف المعري الاجتماعي من رؤيته للصراع القائم في المجتمع وأسبابه المختلفة، والتي ترجع جميعها برأيه إلى تضارب المصالح المادية وبالأخص إلى التنازع حول الملكية:

متى كشفت أخلاق البرايا تجد ما شئت من ظلمٍ وحرجِ
ضغائن لم تزل من قبل نوحٍ على ما هان من فرزٍ ومن عرجِ
فجرّت قتل هابيلٍ أخوه وألقت بين معتزل ومرجي(٢)

وقد أدرك المعري جدلية الثراء والفقر؛ فما من فقر دون غنى، فالفقر ليس قدراً إلهياً، في رأي المعري، ولم يقسم الله الأرزاق بين البشر، وإنما الفقر وليد التوزيع الظالم للثروة الاجتماعية:

غنى زيدٍ يكون لفقر عمروٍ وأحكام الحوادث لا يقسنه

وأدرك أيضاً طبيعة الطغيان الاجتماعي والسياسي واكتشف الطابع الاستبدادي للسلطة الحاكمة، والمستند إلى الابتزاز الضريبي في الدولة الإقطاعية الشرقية التي كانت قائمة آنذاك:

ظلمُ مستضعفٍ وأخذ مكوس وحياةٌ في عالم منكوس

وقد دأب المعري على فضح المظالم، وإثارة الحس الاجتماعي، والكشف عن مظاهر الزيف والنفاق:

لقد جاء قومٌ يدّعون فضيلةً وكلّهم يبغي لمهجته نفعا
وما انخفضوا كي يرفعوكم وإنما رأوا خفضكم طول الحياة لهم رفعا

ويرى المعري أن لا مخرج من التناقض الاجتماعي، ومن طغيان الشر سوى بالإصرار على مقارعة الشر، وممارسة الحياة، حلوها ومرها:

شقينا بدنيانا على طول ودّها فدُونكَ مارسْها حياتكَ واشقَها
ولا تظهرنّ الزهد فيها فكلّنا شهيدٌ بأنَّ القلبَ يُضمر عشقَها

كما يرى أن من عرف الدهر وسيرورته وقوانينها، واستحوذ على تلك المعرفة، امتلك قوتها المادية، فالمعرفة هي السبيل إلى الحرية:

الألمعيون إنّ ظنُّوا وإنْ حَدَسوا ظنينهم بيقين واضحٍ ثلجوا

فهم يحوزون توقد الفكر الذي يلهمهم صدق البصيرة، واستشفاف المستقبل، وبه يبلغون اليقين، أولئك من انتظر المعري!

يتناول الفصل السابع فكر المعري في النفس البشرية، حيث ينطلق في تناوله طبائع النفس البشرية من مبدأين اثنين: الإيمان المطلق بالعقل الإنساني مرشداً وحكماً، وطلب الخير في ذاته:

سأتبعُ مَن يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي

ويترابط هذان المبدآن، ترابطاً وثيقاً، في بصيرة المعري، وفي مسلكه، فعندما يكون العقل طليقاً من كل قيد وهوى، بريئاً من المآرب والأطماع لا بد أن ينشد الخير، وينحاز إلى الحق. إلا أن ثمة جدلاً عميقاً بين عقل الإنسان وما فُطر عليه، أو اكتسبه، من طبع، فهما متحدان في الشخصية الإنسانية الحافلة بالصراع حيناً وبالتصالح حيناً:

بين الغريزة والرشاد نفارُ وعلى الزخارف ضمّت الأسفارُ

وليس هذا التنافر تعارضاً ساكناً، يقتسم به الرشد والطبع ضفتي الوجود، وإنما مجاهدة مستمرة لا يخبو أوارها:

وأخو الحجى أبداً يجاهدُ طبعَهُ فتراه وهو محاربٌ كمسالم

وينطوي الشطر الثاني على فهم أعمق لجدلية الجهاد بين العقل والطبع، والحرب بينهما مستمرة ما دامت شعلة الحياة متقدة:

واللبُّ حاربَ تركيباً يجاهدُهُ فالعقلُ والطبعُ حتى الموتِ خصمانِ

وتتصل جدلية العقل والطبع بجدلية العقل والهوى، وقد تنسب أهواء الإنسان ورغباته إلى الطبـــع والفطرة، فهل العقــل بريء من الأهواء؟ إلا أن نفس أبي العلاء، العامرة بحب الحياة، على تنكرها له، ما زالت جياشة بأهوائها، فثمة تنازع لا يهدأ بين تلك النفس، وما أقامه العقل حولها من أسوار المحرمات:

تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجحٌ أبداً ولا هي

ولئن كان اصطراع العقل والنفس، بما طبعت عليه النفس من غرائز هو عملية داخلية تتفاعل في صـــميم الإنسان الفرد، فإن الصـــراع بين تعلق الحياة وقسمة الموت، يمتلك بعدين اثنين: أولهما خارجي موضوعي يتمثل في التناقض بين النفس الإنسانية الزاخرة بالعواطف والرغبات، وقدر الموت المســـلط بقسوته وصلابته، والبعد الآخر ذاتي يتمثل في التضاد بين الرغبة في الحياة، من جانب، والإدراك الواعي لمأساة الموت، من جانب آخر:

والروحُ في حبِّ دنياها معذَّبةٌ حتى يُقال لها بيني عن الجَسدِ

لكن الأمل جمّ والعمر محدود:

حاجي نظيم جمانٍ والحياة معي سِلكٌ قصير فيأبى جمعَها القِصَرُ
أمّا المرادُ فجمٌّ لا يحيطُ به شرحٌ ولكنّ عمرَ المرءِ مختصرُ

لكن المرء يقنع، بعد السخط، بما قسم له من عمر محدود وبأحكام القضاء:

والمرء يَسخطُ ثم يرضى بالذي يُقضى ويوجِدُهُ الزمانُ ويعدمُ

في الفصـــل الثامـــن وعنوانه: **آلية الفكر ومنطقه**، يؤكد فيـــه الكاتب على إيمان المعري العميـــق بالعقل، وعلى قدرته المعرفية العظيمة، وبخاصـــة ما يتعلق بالمســـائل الخاضـــعة للاختبار الحسي، والمعايير العقلية والمنطقية:

كذبَ الظَّنُّ لا إمامَ سوى العـ ـقلِ مشيراً في صبحهِ والمساءِ
فإذا ما أطعتَه جلبَ الرحـ ـمةَ عندَ المسيرِ والإرساءِ

علـى أن العقل ذاته يقف حائراً، أحياناً، أمام المسـائل التي تتخطى آفاق الفكر، وحدود الخبرة الحسـية، أو تتضـارب فيها الظنون. ومنها ما يتعلق بمغزى الوجود، وحقيقة الروح، والتصورات اللاهوتية:

متى عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وإن عرُضنه

فالعقل على جبروته، قاصـر عن الإحاطة بفكرة الله ولا يسعه أمام ما استغلق من الغيب، إلا أن يتفكر ويتأمل:

وإنـيَ من فكرتي والقضاء ما بين بحرين لا يسجوان

ومـا بين نواميس العقل ونواميـس الطبيعة، حيث تجد حرية الفكر ضـداً جدلياً لها في الضرورة الطبيعية، أو الاجتماعية، فإنها تعكس، أيضاً، جانباً من التضاد بين الجزء (الإنسان)، والـكل (الطبيعة أو المجتمع)، وتدعونـا إلى البحث عن العلاقة بيـن قوانين الفكر وقوانين الطبيعة. وفي تلمس موقف المعري من هذه المسـألة، يحسـب الكاتب أن أبا العلاء ذهب إلى التوحيـد بين قوانين العقل المنطقية وقوانين الطبيعة، فنـرى أبا العلاء مثلاً، إذا أراد إثبات قضـية ما في الوجود الكوني، أو في الحياة الإنسانية، يأتي بسند من المنطق المجرد، أو من علوم الرياضيات وما إلى ذلك، أي من فاعلية العقل الخالصة، فيتساءل الكاتب إن كان هذا ينم عما سوف يقول هيجل بعد عدة قرون: (إنَّ ما هو واقعي عقلي، وإنَّ ما هو عقلي واقعي)؟

وهـا هو ذا أبو العلاء يسـتعير من فن الشـعر، وقواعد العروض، دليلاً يسـند به فكرة اجتماعية إنسانية:

وإذا النفوس تجاوزت أقدارها حذو البعوض تغيَّرت سجراؤها[3]

فإذا صح التحول المعياري في الوزن الشعري، صح نظيره في الحياة الاجتماعية، فالجدل وسُنَنه ينظمان العقل والمجتمع معاً، ويُقاس أحدهما على الآخر.

جاء الفصـل التاسع تحت عنوان التحول سنة الوجود، ففي الطبيعة يقرأ المعري العالم في حركته، فما من سكون في الوجود، كونٌ يجيء وكون يذهب، وجيل يعقب جيلاً:

ألم ترَ عالماً يمضي ويأتي سِواه كأنه مَرعيُّ بَقْلِ

فمثلما ينبت عشب المروج فيُرعى لينبت من جديد في تداول بين الوجود والفناء، يتجدد الكون ولادةً وفناء، هذا يفني ذاك، ليفنى بدوره، في سيرورة جدلية أبدية. أما في الحياة فما

دامت قد ولدت في كنف الطبيعة فلا بد أن تخضع لقوانينها. بل إن ظاهرة الحياة ما هي إلا ثمرة الفاعلية الجدلية لتلك القوانين، في ظروف البيئة الأرضية. ولذلك فإن مبدأ التغير كامن في بنية المنظومات الحيّة، فكل حي سيرورة:

أرى الأشياء ليس لها ثباتُ ... وما أجسادنا إلا نباتُ

وكذاك الأمر في سيرورة الحضارة فلا تقتصر الحركة في الحياة على الكائن الفرد، فللجماعات، أجناساً وأنواعاً، سيرورات تحكمها سنن الطبيعة، وقوانين الجماعات، وهذه هي حال الجماعة البشرية:

وشخوص أقوام تلوح فأمةٌ ... قدمت مجددةً وأخرى تهلكُ

وفي المجتمع الإنساني، تمتزج رغبة أبي العلاء للتغير، بموقفه الاجتماعي الجذري الذي يمقت الاستغلال والطغيان ويدعو إلى الخير والفضائل منزهة عن المنفعة، وإن كان يرى أن الدهر لا يميز الصالح من الطالح في جريانه الأبدي:

أرى ذوي الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سَيلُكَ في مدِّهِ

ولسيرورة الدهر مفارقاتها التي تجمع بين المأساة والسخرية ومنها ما ينم عنها هذا البيت:

قد شيّد القصر لسكانه ... وغير من يسكنه الشائدُ

ويروق للمعري أن يلقي مزيداً من الضوء على تلك المفارقات التي تنطوي عليها مظاهر الخلل الاجتماعي، ومنها ما يتعلق بمتلازمة الغنى والفقر، وطغيان الثروة:

يمهَّد للغني فراش نومٍ ... وقبرٌ كان أروح من مهادِ

ولا يفوت المعري أن يسلط سيف جدله على الملوك في كل عصر، فكما تدول دولهم، ستهتز عروشهم وتنهار. كلٌ يصير إلى نقيضه في حركة التاريخ التي لا تؤبِّد ملكاً، ولا تخلد عرشاً، إنه إنذار التاريخ ينطق به لسان أبي العلاء، وهو اللسان نفسه الذي يكشف عن مفاسد أولي الأمر ومظالمهم:

فشأنُ مُلوكهمْ عزفٌ ونزفٌ ... وأصحاب الأمور جُباةُ خرجِ

ويختم المؤلف الرحلة الشائقة في بحار المعري في الفصل العاشر من الكتاب الذي جاء بعنوان: المقولات، وقد عرفها بأنها أعمّ المفاهيم التي تعكس الخصائص والعلاقات بين ظواهر الواقع، وأكثرها جوهرية. وتضرب جذور المقولات في بواكير الفكر الفلسفي في العصر القديم، ويرجع الفضل إلى أرسطو في تحديدها وتطويرها وقد عرفها بأنها الأصناف أو الأحوال العليا للوجود. وفي رأس تلك المقولات يأتي «الجوهر» وقد يكون مفرداً، مثل سقراط، أو نوعاً، أو جنساً، مثل إنسان. وتوجد الجواهر مستقلة (أو مفارقة)، وإليها تنسب المقولات الأخرى، الكيف والكم، والنسبة، والمكان، والزمان، والوضع، والتملك، والفعل، والانفعال وإلى ما هنالك. وتعد المقولات ركناً من أركان المادية الجدلية، وترى فيها أدوات معرفية، وصوراً لتأمل الوجود، وتتحرى علاقاتها المتبادلة. ومن أهم مقولات الجدل المادي: المادة والحركة، الزمان والمكان، الكيف والكم، السببية، الحرية والضرورة، الضرورة والصدفة، الإمكان والواقع، الشكل والمضمون.. إلخ. ويبدو أن ثنائية «الضرورة والحرية» قد حظيت بالنصيب الكبير من اهتمام المعري، واتخذت في مفرداته صور الثنائية «الجبر والاختيار» والتي ارتبطت بنزعتين في الفكر الإسلامي، برزتا منذ أواخر العصر الأموي، هما الجبرية والقدرية.

ويقف المعري أمام حقيقة الكينونة الإنسانية، هذه الكينونة المجانية التي لم يخترها صاحبها، بل فرضت عليه:

خرجتإلىذيالداركرهاًورحلتي ... إلى غيرها بالرغم والله شاهدُ
فهل أنا فيما بَينَ ذَينَكَ مجبرٌ ... على عملٍ أم مستطيعٌ فجاهِدُ

فالحياة واقع موضوعي، وليست فعلاً ذاتياً إرادياً، وما الأفراد من بني البشر وباقي الأحياء كافة، سوى أدوات، أو مراحل عابرة في سيرورة الحياة، فهم وإن تباينت أشخاصهم وطبائعهم، إنما ينفذون ذلك المخطط الحيوي الذي ابتكرته الطبيعة، اضطراراً لتأبيد أنواعهم الحيّة.

فالضرورة المتمثلة في سنن الطبيعة، تتجاوز إرادة الإنسان وطاقته، وما إنْ يُمنح الإنسان فرصة الحياة، حتى يدخل، من فوره، في صراع الضرورة، ومن أبرز تجلياته: نضال الإنسان من أجل البقاء، في الوقت الذي حكمت عليه تلك الضرورة بالموت، ولم تمنحه سوى عمر قصير تضيق به نوازعه وآماله العريضة:

ظمئتُ إلى ماءِ الشبابِ ولم يزلْ ... يغورُ على طول المدى ويغيضُ

وفهم الضرورة وقوانينها، هو العتبة التي تفضي إلى جدل الحرية والضرورة:

**أرى العنقاء تكبر أن تُصادا		فعانِدْ مَن تطيقُ له عنادا**

وجاء في شرح البطليوسي لهذا البيت «إن ما تريده من الأيام ممتنع عليك، كامتناع صيد العنقاء، فعاند من تقدر على عناده، أما الدهر فلا قدرة لك على معاندة أمره». ويمثل السخط رد الفعل الأول للعقل، حين يصطدم بالضرورة، فإذا زادته التجارب معرفة وحكمة، لم يجد بُداً من الرضا بتلك الضرورة:

**ترضى بحكم القضاء في سَخَطٍ		وَهل تحب الظباءُ حابلها**

لكن أبا العلاء ينفض يده من الجبرية والقدرية كليهما. ويحسب المؤلف أن الأول يريد القول بأن الإنسان، منذ أن امتلك الوعي، حاز شيئاً من الحرية، فلم يعد عبداً، كامل العبودية، للضرورة، رهيناً للحظوظ العمياء. لكن استشعاره تلك الحرية، وإدراكه طغيان الضرورة، معاً، جهلاً من الإنسان موطناً لصراع، لا تطفأ جذوته، بين ذينك القطبين، وليس أمام العقل من خيار سوى الموقف المتوازن بين الجبرية والقدرية:

**لا تَعِشْ مُجبراً ولا قَدَرِيَّاً		واجتهدْ في توسّطٍ بينَ بينا**

وينطوي هذا «البين بين» على ملمح جدلي، ففي كل موقف يتخذه الفرد، مزيج متراكب من عناصر الضرورة وعناصر الحرية، وفي كل مسعى من مساعيه قد تلبس الضرورة ثوب الحرية، وتتحرك الحرية في فضاء الضرورة. فأنت مجبرٌ مخيرٌ في سيرورة حياتك كلها، لست مجبراً حيناً، ومخيراً حيناً، وإنما أنت مجبر مخيّر في الوقت عينه، وفي كل آن.

❁ ❁ ❁

الهوامش

١- الإياة: نور الشمس، الفخت: ضوء القمر أول ما يبدو.

٢- المرجئة: الإيمان على التصديق بالقلب.

٣- سجراء: جمع سجير وهو الخليل الصفي.

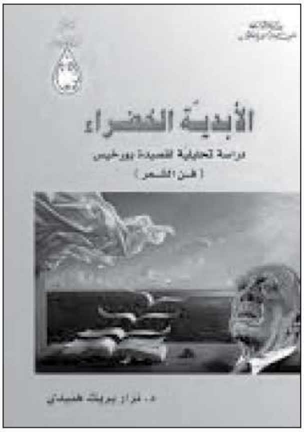
❁ ❁ ❁

الأبدية الخضراء ❁

بورخيس: كل النظريات الشعرية مُجرَّد أدوات لكتابة القصيدة

منهال الغضبان

إنَّ الفضاء الفسيح الذي يطل منه قارئ «الأبدية الخضراء» تلك الدراسة التحليلية لقصيدة خورخي لويس بورخيس «فن الشعر» ستكون عبر عتبة نصية جعلها الشاعر الدكتور نزار بريك هنيدي مفتاحاً للدراسة التي أهداها: «إلى رفاق يوليسيس المعاصرين الذين ما زالوا يوجهون أشرعتهم نحو الأبدية الخضراء».



لعل هؤلاء الشعراء الأصلاء الذين يمتلكون أساطير البشرية، ويدركون معانيها، وقادرون على استخدام تفاصيلها ورموزها لتعزيز بنية النسيج الشعري في قصائدهم لتعميق دلالاتها وتوسيع طيف إيحاءاتها.

إنَّ تصور الشاعر الأصيل على هذه السوية الأدبية والثقافية والمعرفية من الأسس التي تقوم عليها رؤية بورخيس للعالم والفكر والأدب..

❁ الأبدية الخضراء: تأليف د.نزار بريك هنيدي- الهيئة العامة السورية للكتاب (٢٠١٧م).

ويرى الدكتور بريك هنيدي إن معرفة منجزات الفكر البشـري شرط لا غنى عنه لتكوين الشاعر المبدع، وهو ما عبَّر عنه بورخيس في قصته «المرآة والقناع» حين سأل ملك أيرلندا شاعره: هل ترى نفسك كُفُؤاً لهذه المهمة؟

- أجاب: «أجل يا مولاي.. لقد دربت نفسي لاثني عشر شتاءً على ضبط إيقاعات العروض، وأعرف عن ظهر قلب الأساطير الثلاثمئة والستين التي تشكل الشاعر الأصيل».

إنَّ الإهداء الذي استهل به الدكتور نزار بريك هنيدي كتابه النقدي لدراسته التحليلية لقصيدة بورخيس «فن الشعر» لا يدعو من خلاله لنخبوية القارئ «المتلقي» إنما هي دعوة لنخبوية أدبية وثقافية وفكرية تأخذ بيد القارئ باتجاهها، وتقدم له وجبة دسمة سواء أكانت مقروءة أم مسموعة أم مشاهدة وهذا هو التزام الأدباء والمفكرين بقرّائهم ومجتمعاتهم وبالتالي بعالمهم.

فلدى قراءتي لكتاب «الأبدية الخضراء.. دراسة تحليلية لقصيدة بورخيس «فن الشعر» للطبيب الشاعر الدكتور نزار بريك هنيدي الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب، ضمن سلسلة «آفاق ثقافية» تأكد لي أن خير من يقرأ الشعر هم الشعراء أنفسهم، لأنهم يقاربون النص الشعري من الموقع ذاته، وعبر مشترك رؤيوي قادر على فهم أبعاد الصورة الشعرية، ومرامي لغة الشعر وأبعاده، وإحالاته، واستحضاره للمختلف والمؤتلف المولدين للاستعارة، والمقابلة لعقد المشابهة أو المغايرة التي تخدم مشهديات القصيدة، وترميزاتها ... وهذا يلتقي مع حديث بورخيس عن «لغز الشعر» لدى صدمته بالكتابات النقدية، ولا سيما منها من يكتفي بقشور النصوص دون الدخول إلى جوهرها وفك رموزها، والإبحار في جماليّاتها.. بقوله: «كلما تصفحت كتاباً في علم الجمال، راودني إحساس مقلق بأنني إنما أقرأ أعمالاً لفلكيين،لم ينظروا إلى النجوم قط».

ويشاطره الرأي أيضاً الشاعر الأمريكي أرشبالد ماكليش في كتابه «الشعر والتجربة» بقوله: « ..والمرء في ميدان الشعر بحاجة إلى رائد ثقة، رجل رأى واستبانَ ثم عاد، ولن يكون هذا الرائد إلا شاعراً.. أما النقاد فهم كمن يضع خرائط لجبال العالم الذي يرودونه، غير أنهم هم أنفسهم لم يتسلقوا تلك الجبال قط..».

ويعبر نزار بريك هنيدي عن موقعه كشاعر، وما عليه أن يكونه بالقول: « ..الشاعر هو من نذر عمره كله ليتسلق جبال الإبداع، بعد أن ملأ جعبته بكل ما اجترحته مخيلات الفنانين

والشـــعراء وما أنجزته عقول الفلاسفة والعلماء ليصـــل إلى أقصى نقطة استطاعت البشرية الوصول إليها، ومن ثم يطل منها على ما يرخم وراءها من خفايا وأسرار».

فالشـــاعر لدى الدكتور هنيدي: هو من منحته الطبيعة الملـــكات والقدرات التي تتيح له أن يتجاوز بحدسـه حدود الحواس.. التي يمتلكها الإنســـان العادي، ويتخطى برؤيته ظواهر الموجودات، ويتغلغل في أعماق أســـرار الكون والحياة.. مما يجعله قادراً على سماع همسات النجوم، والتقاط إشاراتها وتلقي رسائلها المشحونة بالمعاني والرموز..».

فقبل الدخول في نصـــوص بورخيس الشعرية باح الدكتور هنيدي بمقاربة بورخيس ناقداً وشاعراً بآن واحد لافتاً إلى رؤية بورخيس للشعر في كتابيه «صنعة الشعر، وسبع ليالي» الأول صادر عن دار المدى (٢٠٠٧م)، والثاني عن دار الينابيع سنة (١٩٩٩م). الذي يلخص بورخيس فيه نظرته للشـــعر بالقول: أؤمن بالشعور بالشـــعر، وليس بتعليمه فيما يؤكد في كتابه «مرآة الحبر» الذي ترجمه محمد عيد إبراهيم، وصدر عن دار علاء الدين في دمشق سنة (٢٠٠٣م) ما مفاده: «الشـــعر ينبع من مـــكان أعمق، ما وراء الذكاء، وقد لا يرتبـــط حتى بالحكمة، إنه الشيء في ذاته، له طبيعة تختص به».

ويرى بورخيس في كتابه صـــنعة الشـــعر أن كل النظريات الشـــعرية (مجرد أدوات لكتابة القصـــيدة) وبناء على آراء بورخيس هذه التي استقصـــاها الدكتور هنيدي والتي تبرز هروب بورخيس من الكلام النظري في محاضـــراته ليقدم لمستمعيه قصيدة مشهورة،يقوم بتحليلها مبينـــاً مواطن الجمال فيها.. وواضـــعاً يده على العوامل التي تمنحها شـــعريتها.. مؤكداً: أن بورخيس قارَب «فن الشـــعر» بتحويله إلى موضوع شـــعري لقصيدة حملت العنوان نفسه (فن الشـــعر) لأن اللغة الشـــعرية -حســـب هنيدي- قادرة على قول ما لا تســـتطيع اللغة العادية قوله، فقد يمكن لها أن توحي بما يضـــمره الشـــاعر في أعماقه من تصور للشعر وخصائصه ومقوماته، وبما يعتمل داخل معمله الشعري من طرائق وأساليب ورؤى يقوم عليها البناء الفني لنصه الشعري..

يتابع د.هنيدي: وهذا ما دفعني إلى الاعتقاد بأن أفضل ما نفعله للوقوف على فن الشعر عند بورخيس -وفق المنهج البورخيسي نفسه - هو القيام بقراءة هذه القصيدة وتحليلها..

وكشـــف د.هنيدي في مقدمته لهذا الكتاب أنه عثر على ترجمتين لقصيدة بورخيس «فن الشـــعر» الأولـــى ترجمة «خليل كلفت» التي ضـــمنها كتابـــه «بورخيس.. مختـــارت الفانتازيا

والميتافيزيقيا» الصـــادر عن دار شـــرقيات بالقاهرة عام (٢٠٠٣م)، والــذي طُبع لمرة ثانية ضـــمن مشروع الألف كتاب الصادر عن الهيئة العامة المصـــرية للكتاب عام (٢٠٠٨م)، فيما الترجمة الثانية لقصـــيدة «فن الشـــعر» كانت لمحمد عيد إبراهيم ضمن كتابه (مرآة الحبر.. مختارات من بورخيس) الصادر عام (٢٠٠٣م) عن دار علاء الدين في دمشق، مورداً النصين الكاملين للترجمتين بمقاطعهما السبعة لاحظاً تميز ترجمة محمد عيد إبراهيم ورشاقة لغته في المقاطع الخمس الأولى، فيما التميز حالف المترجم خليل كلفت في المقطعين الأخيرين الســادس والســابع اللذين اعتمدهما الدكتور هنيدي مكمليــن لمقاطع المترجم محمد عيد إبراهيم الخمسة – وبهذا يكون قد غلب الحس الجمالي والشعري لديه في اختياره ومواءمته بين المقاطع السبعة، وكأنهما صادران عن روح ترجمة واحدة وليست ثنائية..

وكأني بالشــاعر نزار بريك هنيدي باختياره وتقصيه لدراسة قصيدة فن الشعر لبورخيس يلاقيه في منتصف الطريق كناقدين وشاعرين لهما المسار نفسه منبعاً ومصباً، وفاقاً لمقولة بورخيس: «لطالما تخيلت الفردوس كنوع من المكتبة.. ودائماً ما كنت أصــل إلى الأشياء بعد أن أجدها في الكتب»..

من هذا الموقع جاء اختيار د.هنيدي لقصـــيدة بورخيس «فن الشـــعر» الذي شكل مفتاحاً وعتبة نصـــية لدخول عوالمها وعوالمه بآن معاً بدءاً من فهم بورخيس للشعر، الذي عبر عنه بكتبــه ومحاضـــراته ومنهجه في التدريس، إذ كان في محاضـــراته جميعها يهرب من الكلام النظري المجرد ليقدم إلى مستمعيه قصيدة مشهورة يقوم بتحليلها مبيناً لهم مواطن الجمال فيها، وواضـــعاً يده على العوامل التي تمنحها شـــعريتها.. ويؤكد الدكتور هنيدي بالقول: ربما كان هذا هو ما دفعه أيضاً إلى محاولة الاقتراب من (فن الشعر) بتحويله إلى موضوع شعري لقصـــيدة حملت العنوان نفسه (فن الشـــعر) لأن اللغة الشعرية قادرة على قول ما لا تستطيع اللغة العادية قوله.

ويرى هنيدي أن العنوان (فن الشـــعر) الذي اختاره بورخيس لقصيدته يستفزُّ القارئ منذ الوهلة الأولى لأنه من غير المألوف أن تحمل قصيدة مثل هذا العنوان، الذي يحيل إلى كتاب «فن الشـــعر» لأرسطو.. هذا العنوان قد يصلح لمبحث فلسفي، أو دراسة في علم الجمال، أو النقد الأدبي، أكثر بكثير من أن يكون واسماً لقصيدة شعرية إلا أن غرض بورخيس من ذلك.. هو تقديم مفهومه للشعر ورؤيته لخصائصه ووظيفته، دون وساطة الوسائل النظرية والفكرية

التي يســتخدمها الفلاسفة والمنظرون والنقاد لأن تلك الوسائل تبقى عاجزة عن فهم الشعر ومفاهيمه على الرغم من بحار الحبر التي أريقت منذ أرسطو حتى اليوم، إنما لجأ بورخيس إلى وســائل التعبير الشــعرية من إيحاء وتخييل وتناص وتحريض ذاكرة واســتنفار أحاسيس ومشاعر وشحن المفردات والجمل لتتمكن من قول ما تعجز عن قوله في حالتها النثرية..

إذاً، كيف جســد بورخيس «فن الشعر» في قصيدته التي حملت العنوان نفسه؟ وكيف رأى الدكتور هنيدي الشعر البورخيسي بدءاً من المقطع الأول من القصيدة؟

نحدق في نهر من الوقت والماء

ذاكرين أن الوقت نهر آخر

نعرف أننا شاردون كأنهر

وأوجهنا تتلاشى كماء

إن تأمّل بورخيس لنهري الماء والزمن هو تأمل لســيرورة الوجود بأسره ومصير الإنسانية مما يحيل إلى ما قاله «أوفيد» المولود سنة (٤٣ق.م) في كتابه التحولات (الميتامورفوزس):

الزمن نفسه يمضي منساباً، كأنه النهر أو أسرع. الساعات تهرب الواحدة من الأخرى.. إن كل برهة من الزمن ما هي إلا خلق جديد.. وتذكرنا هذه الصــورة بقصــيدة أنشودة الحرية لشيلي حين يقول:

في صفحة نهر الزمان الجاري، تكمن صورته المجعدة.. كما كانت تستلقي ساكنة قلقة، ترتجف إلى الأبد لكنها لا تستطيع العبور.

ويحيل هنيدي إلى استحضـــار بورخيســ لرواية توماس وولف (عن الزمن والنهر) ومــا ولدته تلك الرواية فــي ذهنه من إيحاءات.. فهو يقول عنهــا : إن مجرد اتحاد الكلمتين يوحي بالاستعارة (الزمن..النهر) كلاهما يتدفق. مما يذكّر بالحكمة اليونانية القائلة «لا أحد يســتحم بماء النهر مرتين..» هنا نجد بصــيص رعب لأننا نفكر بماء النهر.. وتدفقها ككائن مختلف، وفجأة ننتبه إلى أننا نحن النهر وأننا لانقل عن النهر تفلّتاً وهروباً..».

وهذه الإشــارات إلى استحضــارات هنيدي، للنقد البورخيسي، وســواه من نقاد وشعراء وفلاســفة ومفكرين تسنى لبورخيس الاطلاع على نتاجاتهم التي تماهت في عصارات نتاجه النقدي والشــعري، وشكلت المهاد والأرضية التحليلية التي ســار عليها هنيدي على مساحة مــا يزيد عن مئة صــفحة من التحليل والمقارنات والإضــاءات والإســقاطات النقدية، التي

استطاعت الدخول إلى أعباب قصيدة بورخيس بمقاطعها السبعة التي تشي بحقيقية الشاعر لديه، وأصالة شاعريته بنصوصه المبنية على تأمل الأزلية القائمة بين الوجود الإنساني، وأسرار الكون عبر أسئلته الكبرى التي مافتئت البشرية تطرحها منذ أن وعت وجودها في هذه العالم وعن الأصل الذي جاءت منه، والغاية من وجودها ومآلها ومصيرها.. تلك الأسئلة التي تشكل المسار لفن الشعر ووظيفته الرئيسية بمواكبة الجوهر الإنساني في سيرورة وجوده، ومكابداته لأحوال الزمن وقسوة الطبيعة، وسطوة القدر، وبحثه الأبدي عن صبواته للحق والخير والعدالة والجمال بين المسالك المتشعبة التي تتألف منها متاهة الحياة الهائلة التي رُمي فيها الإنسان، والتي عبر عنها بورخيس.

إن في كثير من قصائده النابعة من مخيلة؛ فنيةً خلقت أعماله، ورسمت رؤيته الخاصة لمفردات الواقع الذي يعيشه؛ فحسب «كولردج»: إن المخيلة لا تنسخ الواقع بل تغيُّره..

هذا ما أصبح يعرف في عالمي الإبداع والتخييل (بالانزياح)..

ففي المقطع الثاني يقول بورخيس:

«**نحس أن اليقظة ما هي إلا حلمٌ آخر**

يحلم أنه غير حالم.

وإن الموت ما نخشاه في عظامنا ليس إلا الموت

الذي ندعوه كل ليلة حلماً».

ففي معرض تحليله لهذا المقطع يرى هنيدي:.. إن الحلم يشبه الشعر في تقنيته.

وهو ما ذهب إليه الناقد الإنكليزي (كريستوفر كوديل) الذي يقول في كتابه «الوهم والواقع»: إن ما يميز الحلم هو أن الحالم يؤثر التأثير الرئيسي فيه، فهو موجود في حلمه دائماً وأحياناً في أقنعة عديدة، وهذا التمركز الذاتي هو ما يميز الحلم.. إن لا ترابط منطقياً يقابل الإيقاع والسجع اللا منطقيين للشعر..

كما أن الحالم يعيش كلياً في صور حلمه، دون العودة إلى واقع آخر.. فإن قارئ الشعر يعيش في كلمات الشعر دون العودة إلى الواقع الخارجي.. إن صور الحلم كما هي أفكار الشعر مادية ملموسة، ففي كل حلم، وكل قصيدة تؤثر صورة الذاكرة، وكذلك تؤثِّر الكلمة تأثيراً مختلفاً لذا يكون لهما معنيان مختلفان..

وهذا ما يسمى بالانزياح والتباين بين الواقع والحلم، والكلمة في السياق الشعري أو النثري..

ويضيف هنيدي: ولا يعني هذا أن الشاعر، أو الفنان، أو الحالم يبتعد بذلك عن الحقيقة «فالنوم مشغول بوظيفة الخبرة الذاتية» على حد رأي «إريك فروم».

وفي قصة «كتابة الإله» يقول بورخيس على لسان بطل القصة:

«أنت لم تستيقظ إلى اليقظة، بل إلى حلم سابق، وهذا الحلم ينطوي داخل حلم آخر... وهكذا إلى ما لا نهاية».

ويبدو واضحاً - أن ذلك بالضبط - هو ما عناه بورخيس في السطر الثاني من هذا المقطع حين قال: «**يحلم أنه غير حالم..**»

وهو ما يتطابق مع قول الشاعر الألماني «فالتر فوجيلويد»:

«**تراني حلمت حياتي..**

أم أنها كانت حلماً؟».

ويشير هنيدي إلى المعنى ذاته عند أبي العلاء المعري (من البحر البسيط):

دنياك هذي منامٌ إن جزى حلمٌ

فيها بشرٍّ فأمِّل غبطة الحلمِ

وكذلك قول ابن الفارض (البحر الكامل):

ورعى ليالي الحيف ما كانت سوى

حلمٍ مضى معْ يقظةِ الإغفاءِ

فيما قال حازم القرطاجنّي (بحر الرَّمَل):

ما يقظاتُ العيشِ إلا حلمٌ

ولا مرائي الدهرِ إلا كالرؤى

وفي السطرين الأخيرين من ذلك المقطع يطرح بورخيس مسألة الموت والحلم:

«**ما نخشاه في عظامنا ليس إلا الموت..الذي ندعوه كل ليلة حلماً..**»

وبما أن النوم حالة خاصة في اليقظة يرتع فيها الخيال.. وتنبع منها الأحلام والأشعار.. فما الذي يمنع الموت أن يكون حالةً خاصة من الحياة تنفتح على آفاق جديدة؟

كما سـبق لأفلوطين أن قال: «أن نعبر من حياة إلى حياة أخرى، هي كمثل النوم في أسرّة مختلفة.. في غرف مختلفة..».

وكان بورخيس في المقطع الرابع قد وصّـف الغروب بالحزن المذهّب رابطاً بين الغروب في الطبيعة، والحزن في النفس:

«نرى في الموت حلماً في الغروب
حزناً مذهّباً..»

وفي المقطع الخامس من القصيدة يقول بورخيس:

«في المساء، يوجد وجه يرانا
ذات حين، من أعماق مرآة الفن
لابد أنه من نوع تلكم المرآة
تفشي لكل منّا وجهه».

فالمـرآة تشـكّل بؤرة هذا المقطع مع الوجه الذي يطل مـن أعماقها ليرانا.. هذه المرآة تختلـف عن المرآة التي نعرفها في الواقع تعكس صـورة ما يقابلها.. إنما في مرآة بورخيس الوجه يطل منها.. ليرانا، ليتعرف علينا.. يعرّفنا على أنفسنا ويفشي لنا أسرار وجوهنا وهذا يحيل إلى المرآة في الأسـاطير التي اصطبغت بالدلالات السـحرية والعجائبية.. ما يذكرنا بأسطورة «نرسيس» الذي تمرأى في سطح ماء البحيرة، فأدرك ما يتمتع به وجهه من جمال لم يكن اكتشفه قبل ذلك، واستحوذ عليه هذا الإدراك حتى أغرقه وحوّله إلى زهرة نرجس..

وكذلك أسـطورة «ميدوزا» التي اكتسـبت فيها المرايا قوة خارقة، مكّنت (بريسيوس) من القضاء على تلك المرأة المخيفة التي كانت تحوّل كل من ينظر إليها إلى حجر.

ويضـيف هنيدي: ويمكن لنا أن نذكر قصة «سـنو وايت والأقزام السبعة» التي جعلت من المرآة وسيلة للمعرفة، وللإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليها..

فبعد هذه الجولة مع المرايا وتوظيفها في مختلف الأجناس الأدبية يؤكد الناقد هنيدي:

.. لـم يكـن غريباً أن تحتل المرآة مكاناً أثيراً في أدب بورخيس.. فهو يتحدث عنها كثيراً في سـياق مقالاته وقصصه وقصائده، ففي قصة له بعنوان «المرايا المجعدة».. يقول: «وأنا صغير كنت أحس أمام المرايا الضخام بنفس رعب التطابق الشبحي، أو الحقيقة المتعددة.. وكانت ملاحقاتها لأفعالي، إيماءاتها الواسـعة كلهـا خارقة للطبيعة آنذاك.. أعرف أني كنت

أشـاهدها كهواجس.. وخفت أحياناً أن تبدأ الانحراف عن الحقيقة.. ومرات أخرى خفت أن أرى وجهي هناك مشوّهاً بمغالطاتٍ غريبة!»

قـد يكون الخوف من المرآة فـي جوهره خوفاً من الزمن وصـروفه وتداعياته، فالمرآة ترصـد فعل الزمن وندوبه التي يحفرها في ملامحنا وفـي حياتنا.. ويمكن أن تكون المرايا سجلاً وتأريخاً حسب ما جاء في قصيدة لبورخيس بعنوان «مرثية»:

«وشاخ..

في مرايا كثيرة جداً»

ويمكن أن تصبح للمرايا أحلامها كما جاء في قصيدته «سبينوزا»:

«..ذلك الانعكاس للأحلام

في حلم مرايا أخرى..»

ويتسـع مفهوم «المرآة» عند بورخيس لمزايا ميتافيزيقية لا توصـف عادةً بها إلا الآلهة ففي قصيدته «مرايا» يقول:

«لا نهائية أراها

منفّذة لميثاق قديم..

مضاعفة العالم

مثل الفعل المولّد»

وفي المقطع السادس من القصيدة يقول بورخيس:

«إنهم يخبروننا كيف أن يوليسيس، متخماً بالعجائب

انتحب بحبٍّ ليلمح جزيرته «إيثاكا» من بعيد

متواضعة وخضراء..

والفن هو إيثاكا تلك

إيثاكا الأبدية الخضراء

وليس إيثاكا العجائب».

يستحضر بورخيس «يوليسيس» بطل أوديسة هوميروس حيث تطغى على نصوص بورخيس غناها بالشخصيات الأسطورية والروائية إلى درجة يصبح معها هذا الولع واحدًا من الأعمدة الرئيسة التي يقوم عليها عمله الإبداعي.

وأوضـــح هنيدي: إن الإشـــارات والتضمينات المســـتمدة من ثقافات العالم المختلفة في عصورها جميعها، مما يحول النص البورخيسي مهما كان مختصراً إلى مكتبة غنية.

ورأى أيضاً: إن يوليسيس الذي يظهر في هذا المقطع.. هو يوليسيس الخاص ببورخيس، مثلما ظهر يوليسيس الكوميديا الإلهية خاصاً بدانتي..

ويقول بورخيس عن ملحمة الأوديســـة: إنها تتضـــمن، قصتين، «عودة يوليسيس إلى بيته، وعجائـــب البحر ومخاطره..» وإذا ماتناولنا الأوديســـة بالمعنى الأول، فســـتكون لدينا فكرة العودة، فكرة أننا نعيش في الصـــحراء، وأن بيتنا الحقيقي هو في الماضي، أو في السماء، أو في أي مكان آخر، وأننا لسنا في بيتنا مطلقاً..

ولكن لا شك في أنه لا بد لحياة البحارة والرجوع من أن تتحول إلى شيء مشوق.. وعندما نلجأ إلى «ألف ليلة وليلة» نجد النســـخة العربية من الأوديســـة (أي رحلات السندباد السبع) ليست قصة عودة، وإنما قصة مغامرات، أظن أننا نقرؤها على أنها كذلك..

ويرى هنيدي في ضـــوء ما سبق أنَّه يمكن فهم بورخيس في ما قاله في السطرين الأولين من المقطع السادس:

«إنهم يخبروننا كيف أن يوليسيس، متخماً بالعجائب،

انتحب بحبٍّ ليلمح جزيرته إيثاكا من بعيد..»

فبورخيس لم يهتم هنا بشخصـــية يوليســـيس المتخمة بالمغامرات والعجائب وإنما أراد التأكيد على فكرة العودة، فكرة أننا كبشـــر نعيش على سطح هذا الكوكب، لسنا في بيتنا على الإطلاق، وأنَّ الحب وحده هو وسيلتنا لنلمح بيتنا الحقيقي ولو من بعيد..

فإلى رفاق يوليسيس المعاصرين.. الذين يتوسلون الحب وحده ليلمحوا بيتهم الحقيقي.. إلى هؤلاء الذين مازالوا يوجّهون أشـــرعتهم، نحو الأبدية الخضـــراء.. أهدى الدكتور الشاعر نزار بريك هنيدي بحثه «**دراسة تحليلية لقصيدة بورخيس (فن الشعر)**..».

❁ ❁ ❁

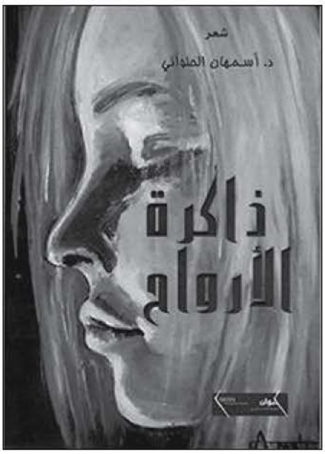
قراءات

الأرواح الحلوانية بين الذاكرة والأرض اليباب

دراسة نقدية في مجموعة الشاعرة والفنانة التشكيلية أسمهان الحلواني

سمير عدنان المطرود

استوقفتني؛ ذاكرة الأرواح الحلوانية من الحرف الأول فيها؛ وهي تنسل خشية السقوط في وجع آخر غير ذلك الوجع الذي نقش بصمته على حروف الروح؛ قائلة لنا إن الكلمات عاجزة عن التعبير عمّا تركته الحياة أثراً فوق جدران أنفسٍ أتعبتها الأهوالُ، وهي تمرّ عليها تارة حين تواكب اهتراءات الأقنعة اليومية المصطدمة بها نفس الشاعرة، وتارة أخرى حين تسقط هذه الأقنعة مرة واحدة بفعل سطوة متعددة المنابع؛ لتقول لنا منذ البداية من تكون نحن؛ وتقول عن نفسها من أنا؟



فعن أيّ ذاكرة كانت تتحدّث، وعن أيّ أرواح؟ هل كانت تتحدّث عن الذين كانوا ذات هواء ومضوا؟ أم عن الذين ما زالوا يفتحون اليوم صدور أحزان العالم بتنهداتهم البائسة؟

وجدتني كلما استغرقتُ في هذه المجموعة أكثر، أراني أعود إلى أرض الضياع «الأرض اليباب» لتوماس ستيرنس إيليوت.!

فبعد عدة قراءات متأنيّة استمتعت ببعضها وأتعبني بعضها الآخر، وأنا أركض خلف شَرَكِ الدلالة الذي أوقعتني

به الحلواني منذ البداية؛ أغرتني أكثر بالعودة لقصيدة إيليوت لأقرأها من جديد؛ ورحت أبحث عن السرّ الذي كان يمسك بي قائلاً: إن رابطاً خفياً؛ غير مرئيٍ كخيط العنكبوت؛ يصل بين أرض الضياع وبين ذاكرة هذه الأرواح المتعبة.!

رافقني هذا السر ولم يفارقني؛ جعلني أغوص بين ثنايا الحروف وكثافة اللون في الصور المتناثرة كزهر برّي في أرض بكر؛ مرّت عليها الفصول دفعة واحدة؛ فامتلأت منها هذه الذاكرة وهذه الأرواح.

بداية؛ أود أن أشير إلى أن هذه الدراسة لا تهدف إلى تقديم أحكام قيمة حول هذه المجموعة؛ إنما هي رحلة انطباعية تحليلية معمقة، حاولت من خلالها الولوج إلى كنه هذا المنجز الإبداعي؛ الذي اعتمد على التشكيل الفني سداةً؛ حاكت عليها الشاعرة خيوط معرفتها ووعيها العميقين لهذا العالم البائس؛ الذي اقترب كثيراً من عالم إيليوت؛ حين كتب قصيدته الإشكالية تلك؛ كردة فعل صارخة على الحرب العالمية الأولى، وما أورثته من كوارث وويلات ومآسٍ!

فكما أن الأرض اليباب التي كتبها إيليوت عام (١٩٢٢م) بعد نهاية الحرب العالمية الأولى قد عكست ثقافته العالية التي عبَّر عنها في النقد، وفي منجزه المسرحي والشعري؛ حتى ملأت الدنيا وشغلت الناس لفترة طويلة؛ كذلك كانت ذاكرة الأرواح الحلوانية موقفاً نقدياً من هذا الموت العبثي الذي فرضته أيضاً حرب عالمية أخرى؛ كانت في هذه المرة على جغرافية وطن الشاعرة الجريح.

بدأتُ أسير خطوة خطوة مع هذه الذاكرة وهذه الأرواح؛ وهي تصنع موقفها من هذه الحياة الممتلئة بأكوام المتناقضات؛ فالكلمة عند الحلواني هي صنو اللون الذي تجيد العمل عليه إجادتها للرسم بالحروف في هذا المعمار التشكيلي البديع الذي رسمتْ خطوطه؛ لتقبض على أجنحة الومضة قبل أن تطلق سراح ذلك الجمال الآسر.!

أرادت الحلواني أن تكوِّن الحروف كما الألوان؛ أداة حوار في البناء الفني لنصوصها الإبداعية؛ لذلك نرى أنها في هذه الذاكرة ارتكزت على لغة فنية عالية، عبرت من خلالها كثافة ملحوظة في الصور الحداثوية، التي شكّلت حجر الأساس في المبنى والمعنى لمنجزها المتفرّد شكلاً ومضموناً.

فبدءاً من عتبة العنوان حسب رولان بارت، نلج ذاكرة الأرواح لنرى ماذا سينتظرنا هناك من تداخلات لونية، ومشـــهدية بصـــرية؛ وهي تدفعنا لســؤال أنفســنا؛ أيّ ذاكرة تلك التي أرادتها الشاعرة أن تنتظرنا!

ولعل السؤالَ الأهم؛ هو أيَّة أرواحٍ تلك التي وضعتها الشاعرة في طريقنا؟

دعونا في البدء نقرُّ أن ما يعرفه المبدع ويقصـــده وعلى وجه الخصـــوص؛ الشاعر، ربما يكون شـــيئاً غير كل هذا الـــذي نقول؛ ولذلك أرى واجباً علينا أن نتدبّر بإمعان شـــديد؛ تلك المعرفة الخاصة بالذات الإبداعية؛ لصاحب هذا المنجز أو ذاك إذا ما أردنا أن نتلمس بعض المفاتيـــح من أجـــل الدخول إلى كينونة عوالم الإبداع؛ (وهنـــا أتقاطع مع آلان تيت في كتابه دراسات في النقد – ترجمة د.عبد الرحمن ياغي، والمنشور بالاشتراك بين دار المعارف في بيروت، ومؤسســـة فرانكلين بنيويورك عام ١٩٦١م)، ولذلك أتجرأ على القول إن النقّاد الذين يتهيّبون الدخول إلى ما وراء الحرف واللون والصـــورة؛ وما بينها من الظل والنور؛ ســـيجدون أنفســـهم لا يعلمـــون إلا القليل، عن هذا المنجز الإبداعي؛ وفـــي بعض الأحيان قد تجافيهم المعلومة كلياً.

إنَّ قصائد المجموعة التي عنونَتْها الحلواني بذاكرة الأرواح؛ كانت أشبه ما تكون بدراسة لوحة فنية؛ كيف لا، وهي الفنانة التشـــكيلية التي أجادت اســـتخدامَ اللونِ وتوظيفِه، إجادتها تشكيلَ الحروفِ؛ ولعل من أهم عوامل الفرادة في حرفها وصورها؛ اعتمادَها المنهج النفسي في البحث والتحليل كركائزٍ واعيةٍ وأساسات قادرة على حمل كافة أبعاد الصورة الشعرية.

فمن العتبة الأولى ذاكرة الأرواح؛ ترانا نقف أمام عنوان يشـــي بالمضـــمون؛ ويدل على الصلة الرابطة بين هاتين الكلمتين؛ فالذاكرة هي ذلك الملعب الذي ترمح به خيول اللحظات المســـروقة من وجعٍ حيناً، ومن فرح ماضٍ حيناً آخر، من لهفة وشوق الصوفيّ لخمرة الإله الخاصـــة، إلى غربةٍ وهجر من نوع الأسى والانكسار؛ إلى التحنّن والشغف لملامسة وعناق تمثال الوجد قبل انهيار المعنى.

ولا أُجانب الحقيقة حين أقولُ؛ إن من الصعوبة بمكان في هذه المجموعة، تحديد سمت هذه القصـــائد؛ أو بمعنى آخر؛ ما هو الميزان الدقيق لتلمّسِ المواضعِ التي كانت الشاعرة فيها؛ تنوس بين المفارقة أو المقاربة لرحلتها الشعرية مع المحسوس حيناً، وأغلب الأحيان مع المجرّد؛ كقولها:

(ليس اللؤلؤ؛ سوى رَنِيّ المحار عبر الزمن؛ بحبة الرمل؛ أعطني الوقت لأصنع لك عقد الجُمان؛ ولاطفني بنعومة محار).

إنَّ الشاعرة تتأرجح هنا على حبال ألوانها، وهي ترسم الطيف المتجلّي الذي يفر أمامها وهو يلاعبها بين رؤية العين، ورؤية القلب؛ فنجدها تسبح تارة مع أمواج العشق العذري أو الروحي المتصوّف، وتارة أخرى مع العشق المحرّم الموشح بالشوق والحنين والذكريات؛ كما في قصيدة الشجرة؛ (ص:١١).

وهنا نعود للسؤال مرة ثانية عن الذاكرة والأرواح التي تريد منا الشاعرة أن نعرف؛ هل هي ذاكرة الجرأة المتحفّظة التي ألقتها علينا منذ حبوِ الحرف الأول؛ أم ذاكرة الأسيرة المشبعة بالحرية حدّ الانعتاق من عالم العبيد؛ وهي تعلن أمام الحدود الفاصلة بين الطفو والغرق؛ حين تقول: إنها تلك الناهد حدّ الورع ونهاية التقوى، تبحث عن ذاتها لتجدها مرتخية بعناد مرير عند ربة الخصوبة؛ كمذاق (كراميل) في شفاه الذين يتجرؤون على تخيّل كيف ستكون هي (عروس مولد) هذا الوجود المثقل بجوهر الطقوس التي لا تنتهي.

إنها تمسك بيدها ثوب الملائكة الحمراء؛ وتلقي بعينيها على مساحة السماء، لِتَعلَمَ كم هي تحتاجها من أجلها ومن أجلنا؛ لتنتزع شوك الصخب المتراقص صبّاراً على وجنة الحياة؛ قبل أن تعلن أنها بتوحّدها وانشقاقها المتلاحق بالثواني الليلية والنهارية؛ أنها قد حصلت على هوية وجعها الضامن لها عبورها لتصبح من عائلة الـ(نرجس)؛ في الظرف الشرطيّ ذاته؛ الذي جعل (ت. س. إيليوت) يريد أن يكون من عائلة الزنبق؛ حين يقول:

(...أنتَ منحتني الزنابق أول مرة منذ عام؛ حتى أسموني فتاة الزنبقة؛ لكن عندما عدنا في ساعة متأخرة من حديقة الزنابق؛ ذراعاك مملوءتان، وجدائل شعرك مبتلة، عجزت عن الكلام، وعن رفع جفوني، لم أكُ حياً أو ميتاً، ولم أعلم شيئاً؛ وأنا أشق بعيني قلب الضياء والسكون؛ والبحرُ خواء مترامي الأطراف).

أمَّا عائلة النرجس التي أرادتها الحلواني؛ فهي شقيقة الزنبق.

(موجعٌ هو، صعودي ونزولي، على جسد نرجسك، توحّدي وانشقاقي، نهاري وليلي؛ مجدي وانحساري؛ لتقول في آخر القصيدة.. أنتظر أياماً تزهر بنوّار؛ على غصنك الغضّ، ما إنْ يذبل النرجس، وأحلّق).

لم يتبق للشـــاعرة الحلواني، إلا أيامٌ مسوّرةٌ بالانتظار؛ وهي ترقب ذبول الغصن الغضّ؛ حتى ترتمي في حضن الألق قافزة من فوق غموضها وإبهامها؛ حالمة أن تكون تلك (الشجرة)، فاتحة كفّيها تحت الســماء الإلهية؛ مصــلّية، باحثة عنك؛ لتجدك بين يديها طفلَها الكهل، ذاك الذي يخشـــى الســقوط، ويخشـــى أن تميد الحياة من بين يديه؛ إذا ما قَبِلَ أن يتأرجح على غصـــن البهاء الغضّ.. وإنْ نثرتْ لك ذراعين سمراوين مَهداً؛ يقيانكَ برد السقوط، إذا ما غامرتَ بصـــدرك العاري إلا من الحب، داعية أن تتوحد مع ذلك الفرع الأخير؛ لكنكَ يا أيها المتعب من كهولتك؛ قد بقيتَ عنها بعيد المنال؛ مبهماً.!

أتذكر حين اخْتَلَتْ بكلماتها تامة النضـــوج والأنوثة؛ كيف كنتَ تصـــلي على غموضـــك، وإبهامك بلغة مقدسة؛ وأنت تراقص خصر النور، رافضاً التسلل من طيش القرارات، وطقوس الحضور؛ إلى الأماكن التي تتناثر عليها قطعان الصمت.

كانت تنتظرك على سفح الوعي، وما كان عليك إلا أن ترمي حرارة يدك فوق مزلاج باب الروح؛ لتدلف بأناقة الحاجة؛ لكنك بقيتَ محاصـــراً بمقدس لغتك، وأنت تراقص الحروف العنيدة، حتى تلاشيتما وصرتما (ومضات) لا تنتهي..!

ففي (وشـــاية) البلاط الرخامي الذي كان يســـرق دفء الروح من بوابة قدم عارية ليشـــعل المكان؛ كانت غباشـــةُ تنهّـــداتِ القلبِ تزولُ؛ وتأخذُ معها ما تبقّى مـــن آثار لكلمة أحبكَ، التي نقشتها هناك على زجاج وجع الروح بينما كانت الصورُ المتعاركةُ الهاربةُ تعلن صلاة الخروج من كثافة هذا العالم؛ لقد عمَّ التيه حين كانت تظنه بوابةَ (رجوعٍ) (قُربٍ) التصاقِ الزهرةِ بالغصنِ؛ والزهرة هنا هي ذات الشاعرة، في حين أن الغصن هو الوطن المتألم من كثرة الجراح.

ولذلك نراها في قصـــيدة (نظرة) تقف حارسة على ركام الكتمان؛ وهي تحدّق بمفاتيح سماء ملونة بلا حدود؛ إلا من حدّ (اكتفاءٍ) لجسدٍ مُستغنٍ بذاته، بعد أن عرفَ الطريقَ وسط الزحام؛ فكانت تضيع في (لقاءِ) شهوةِ الأصابعِ لعناقِ خطوطِ الحياة.!

لقـــد أقلقلتْ الحلواني راحةُ الروح، يوم أذنت الشـــمسُ بالاحتراق وانبثقت مشـــرقةً من شـــرفِ (فَقْدٍ)؛ تسلل الجسد من خلاله وراح يعبر مســـامات الستارة الحمراء، تاركاً مدائن الروح تناجي (زهرة صـــغيرة)؛ على باب انزواء الحديقة، معلنة العصـــيان على مشـــاغبات الندى.!

كانـــت تتراقص ظهيرة عمرٍ في رحلة يقطعهـــا (محارٌ) قبيل اندثار الحلم؛ فمن قال إن نهاية العالم تتوقف عند تفاصيل الصعود إلى ما وراء سماءٍ؛ درجُها من ألقِ حروف وألوان؛ راحت الحلواني ترتقيها صـــعوداً بقصـــيدة مرســـومةٍ؛ على إيقاع حزن اللون حيناً، وأحياناً أخرى على تقاسيم أسئلة من شغف!

حاولت الشاعرة جاهدة؛ أن تصل إلى حقيقة وهج اللحظة في نهارات الحروف ولياليها، وأزعم أنها تمكّنت من الوصول سالمة إلى هناك؛ بعد أن عبرت تلك الفضاءات، ومرت بين النجوم التي كللتها، وتلك الخرافات التي أوهمتها أنها كآلهة الصدفة لا تشبع من الحروف، وهي تستلقي بعشق على ضفاف الأوراق البيضاء، تنتظر برجاء لقائك أيها الخلاص.

فنراها تقول في قصيدة شكراً:

(شكـراً علـى كل مغامـرة، وشكراً لأنني رغماً عني لا أملـك المغادرة، فهنـاك حيث أنتمي؛ لا أرض ولا سمـاء؛ فتحت بوابـة العبور، ولأجل لقائك؛ تبرعت بمفتـاح المرور؛ وهنـاك حيث أنتمـي؛ كنـتُ حوريـة قد قايضت كل الزعانـف؛ بأرجل وأنامـل وبضع زخـارف، لأجل لقائك؛ لأجل لقائك).

وفي قصيدتها (الطهر) أيضاً؛ كانت تتلمّس ذلك الجوهر المخبوء الذي لا يقبل المغايرة؛ وفـــي الوقت ذاته ما كانت تريـــده إلا واحداً لا يتجزأ؛ كروحها الوثابة؛ حين تعلن أنها تريده كاملاً؛ **(أريدك مطلقاً أبدياً بلا رواسب؛ فأنت الشوق الذي لا يكتمل).**

حين أدركت أنها بذات حروفها؛ كانت مرامَ ذلك الذي تطارده بصورها، وظلَّ لونها، وقد استطاعت أن تحرجه حين عرفت الحقيقة الأبدية في هذا الكائن الأثيري الذي كان يتلطّى خلف ستائر الحزن والغياب؛ إذ قال لها:

(أنت المرام الذي يقبل التمام؛ قبل أن يمضي بنور الموت..)

تعـدُّ هـذه المجموعـة الشـعرية من المجموعـات الثرية، في تناولها لقضـايا الإنسـان المعاصـر وإعطاء بعد حضـاري متواصـل من خـلال ربط الأحداث بالحالـة الذاتية، التي تعدّ المنطلق باتجاه العام؛ وتحتاج إلى ثقافة واسعة مـن الاطلاع وحب البحث والتحري والتقصي للوقوف على مراميها وأبعاد مضامينها.

فالذكر المخاطب هو الوطن بكل ما فيه من تناقضات؛ هذا الوطن الذي أتعبه الحزن، والموت، والخوف، والفقد والغياب؛ حتى جعلتنا الحلواني نشعر باللا جدوى الواقعية، وتركت لنا بصيص أمل خيالي!

إن هذا البعد الفلسفي العميق لفكرة الحياة والموت، جعل الحلواني تومض بريقاً؛ حين أخرجت المفاهيم السائدة للأشياء وحطمتها؛ لتوجد عوضاً عنها معادلاتٍ جديدةٍ لفكرها.. فعلى حين يتعاطى الغالب الأعظم من المبدعين مع فكرة الموت، على أنها ذلك البعد المظلم من الما وراء، كانت تراه عالماً من نور ممتد لا ينتهي؛ تغري الحبيب (الفكرة) بالذهاب إليه؛ وكأنها تؤكد هنا حقيقة أن حقيقة الحياة تأتي على إيقاع الاحتراق، الذي يبدو ظاهرياً أنه الموت الحتميّ، في حين نجدها تقدّمه لنا بوابة عبور من جديد للحياة؛ الحلواني باختصار تصنع فينيقها الخاص بها بتشكيل استثنائي متفرّد!

في قصيدتها (حين عشقت الرسم)؛ كانت الحلواني تنشر تفاصيل فلسفة هذه الروح المبدعة، وهي تضع أسس انطلاق فكرها الواعي للحياة؛ وكأنها تقول لنا؛ إنني ما كنت أريد أن أصبح هكذا لكن ثمّةَ أمراس، أحكمت التفافها حول حروفي وألواني لتقودني إلى كلِّ ما صرتُ إليه الآن؛ فنسمعها تقول:

(لم أكن أعلم، أن عليّ أن أرسم ذلك العطب في الحياة؛ تلك الملامح في الأخيلة.. بلا جسد، بلا قوام.. ذلك الحسّ المتثاقل الراسخ.. الصوت المتناهي في غياب لا يجيب النداء).

يقول ألن تيت، في كتابه دراسات في النقد: «إن الأثر الخيالي ينبغي أن يختلف عن سائر الآثار الفلسفية التي تفهمها عقولنا، وتُبقي عليها متكاملة في البناء المنطقي الاستنتاجي الذي يعين الذاكرة كثيراً...» من هنا أسأل أنا؛ أيهما أعمق في الرؤية والتحليل، المبدع أم الناقد؟

إنَّ الحلواني باختصار قد أوقعتنا في شرك كبير، فحواه كيف يمكن أن نكون واسعي الآفاق، ونقاداً في الوقت نفسه، من غير أن ننظر إلى المدى الذي يحقق لنا معرفة العالم والأفكار والإنسان على وجه العموم؟ إنها مصيدة المبدع، التي جعلتها تلوّن بالحروف، وترسم بالدفق الشعوري الإنساني العالي. فنجدها وقد استهلكت قطرات نزفها الروحي كلها، معلنة أنها:

(قاسيةُ ملامحُ الهوى؛ غامضٌ ذلك الأنينُ؛ لامعٌ سوادُ الليل؛ وبائسٌ مَن عَشِقَ رَسْمَ حلمٍ يتكرر بلا يقظةٍ).

إنَّ قصـــائد الحلواني مشبعة بالأبعاد الفلسفية؛ فهي في بعض الأحيان تحاول أن تبتعد قليلاً عن المباشرة والاستغراق في الوجودية الصاخبة، وفي الوقت ذاته نراها تسعى لإنزال قدمها فوق تلك الموجات المتلاحقة على شــطآن التصــوّف، حتى بدت وكأنها قد نبت لها جانحان من النور والظل، يحملانها إلى شطّ الحياة الحزين.

ونجد ذلك واضــحاً في قصيدتها (لحظة لا تُحتَمل) حين تدخل لقعر الذات الإنسانية وتصارع فيها هناك جملة من المتناقضات الكونية؛ حين تقول:

(..هي يقظة الوعي المضطرب، في غرفة منيرة الوحشة؛ وثغرات مفتوحة على نصف حلم ونصف صحو...).

لتضــعنا أمام جملة من الأسـئلة النقدية الشــائكة جداً؛ والتي قد سبق وأن تعرّض لها إيليوت في أشــعاره؛ حين قيل عن شــعره إنه ليس شعراً معاصراً، ولا يَحل أية مشكلة وعلى وجه الخصوص مشاكل العمال التي كانت حديث الساعة آنذاك؛ وإنه شعر خاص وشخصي من حيث النوع.!

يُجمع النقاد أن المعلومات التي يعرضــها إيليوت ليســت خاصة أبداً، وأنها خطة عامة لســلوك قد يكون ليس بذي جدوى للمتلقي، لكنَّ إيليوت من دون أدنى شــك، قد ترك أثراً كبيراً، بدليل أننا بعد مضي عشرات السنين، نستذكره الآن في الحديث.

هذه الأسئلة التي قادتنا إليها الحلواني، تتراوح بين مميزات الشعر المعاصر من جانب؛ ومن جانب آخر ما هي وظيفة الشعر؟ ولعل الأجدى أن نطرح الأسئلة بصيغة أخرى؛

كأن نسأل لماذا نقول الشعر؟ وهل الشعر ذاتي أم اجتماعيّ عضويّ؟ فهل كان المقصود بالكثلكة الإنكليكانية التي اتُهم بها إيليوت آنذاك، تشابه التعصب للفراهيدية؛ على مستوى المبنى في شعرنا العربي؟ وما مفهوم الالتزام في الشعر على مستوى المعنى؟

في قصــائد الحلواني؛ ثمة بابٌ مخفيٌّ ســيقرر مصــير تلك الأرواح المتصــاعدة في مســاحات الذاكرة؛ إنه عالم بأكمله؛ تختصـــره حقيقة واحدة؛ تلخّص هذه الحياة البائسة؛

وهي أن لا شيء حقيقي في هذا العالم المتهالك؛ لذلك فلا حدود حقيقية في أي عالم إلا ما تختار أنت!

ونجد ذلك واضحاً في قصيدتها حضارة دفينة؛ حيث تقول:

(...كانت بوابة شمسي؛ تفتح على عالم مترف بالدهشة؛ وجسد الروح يلتفُّ بالبردي؛ لا؛ لم أكن مومياء الحكاية؛ بل مليكة؛ أنا الحضارة الدفينة، وأنت أثريُّ اليقين).

إنَّ الحلواني تختصر الكثير من المقولات بتكوينها الجمالي؛ فهي تُدخل المتلقي في لعبة المواجهة مع الذاكرة الكونية؛ وكأنها تقول مؤكدة بسؤالها؛ هل تستطيع أن تلمس السماء؟ إنَّ سماءك هي فقط ما يمكنكَ لمسه؛ فالسماء هي حاجز حقيقي لدنياك؛ لا مجرد لون أزرق تنظر الآلهة من خلاله إليك.

(لا تلمني إن قلتُ يوماً لا أدري؛ فقد غفا الصمتُ؛ وارتاح التنهّدُ، في ربا صدري وأنا التي؛ مرّت بذاكرة الربيع فراشتي؛ وخفقت فوق الحقل تنسجُ رحلتي؛ عكست لي لوناً، على درب الهوى؛ فتجسّد الحلم ضياء صبابتي).

تقصّدت الحلواني فتح باب جديد بمواجهة شكّها في كل ما يجري على الحياة، لتنقذ روحها من أسئلة الوجود الكثيرة؛ إنها لقطة تختزل محنة المعرفة، لتدرك حقيقة معنى الشكّ الذي يقود إلى هدم كل التفاصيل الراسخة؛ التي ألفنا أنّ تركن إليها؛ هذه الحياة المأفونة!

(وأنا التي؛ تاقت إلى نور بعيد؛ أحرقتُ فيه النَّفس بعد اللوعة؛ وعُتِقتُ بعد الموت مثل سحابةٍ؛ حبلى بغيث الحب؛ مثل قبلةٍ).

أدمنت الشاعرة لعبة كشف الزيف، وواجهت فكرة الخضوع تحت مسمى الارتباط أو الحب؛ إلا إذا كان لهذا الحبيب الوطن؛ وكأنها تقول إن معنى الإيمان والتسليم بالمطلق أمرٌ صعبٌ جداً؛ بل متعبٌ حين الوصول إلى كُنهِ المعرفة الحقيقية؛ بعد رحلة صبرٍ بدأت منذ أزل الحروف، ولم تنتهِ مع آخرِ تنهيدةِ وجدٍ وهُيام؛ ونجد ذلك في قولها:

(لا تلمني؛ إن بحتُ يوماً، وصرتُ أكتبُ الشعر خمراً؛ وألثمُ القصيد ثغراً؛ أهزُّ خصر نخيلكَ؛ ليُحيلَ العمرَ تمراً؛ في واحة الصبر).

في الختام أقول: إن ذاكرة الأرواح؛ مجموعة شعرية عميقة بإحداثياتها وتحولاتها الداخلية وغرائبيتها؛ تفتن عقل المتلقي، حين يجتمع المحسوس بالمجرد؛ والكوني المطلق بألوان اللغة الفنية التي برعت باستخدامها فنانة تشكيلية كانت بالفطرة شاعرة، وصارت بالوعي عالمة نفس إنسانية.

❁ ❁ ❁

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

فرادة الرؤيا وجمالية العبارة
في شعر سوزان إبراهيم

العنــوان أعلاه، هو الكتاب الأول للناقد الأديب الســوري «عماد الفياض» الذي عرفناه من خلال أبحاثه ومقالاته النقدية الجادة المنشورة في غير صحيفة ومطبوعة.



صدر الكتاب عن دار إشراق للنشر في تونس العام الجاري (٢٠١٧م) وقد جاء في (٧٤) صفحة من القطع الكبير، موزعة على (٤) فصول:

الفصل الأول: سيكولوجيا الحزن وتمرد الذات الشاعرة في مجموعة «لتكن مشيئة الربيع» الشعرية.

الفصــل الثاني: تمجيد الأنا ونبوءة الزرقاء في مجموعة «كثيرة أنتِ» الشعرية.

الفصل الثالث: العتبات النصّية في مجموعة «أكواريل» الشعرية.

الفصــل الرابع: الرومانسية والصــوفية وأسئلة الوجود وتحولات اللغة في مجموعة «صرت الآن غابة» الشعرية.

جاء على الغلاف الخلفي للكتاب:

«ســوزان إبراهيم» من الأصوات الشعرية الســوريّة المعاصرة، التي استطاعت تجاوز حاجز المحلية بصدور كتاب عنها في المغرب العربي (تونس ٢٠١٥م).

في هذا الكتاب ينكبّ الناقد الســوري عماد الفيّاض على مدونتها الشــعرية المؤلّفة من أربع مجموعات منقّباً ومشرّحاً، بغية الوقوف على مظاهر التميّز في شــعرها أغراضاً (فرادة الرؤيا) وأسلوباً (جمالية العبارة).

بالإمكان القول: إن الأديب الناقد عماد الفياض- بكتابه الراهن- قد وصــل بمجسات أدبه ومســابر نقده، إلى مظانّ الأنوثة ومطاوي الأسى، لدى الشــاعرة «سوزان إبراهيم»، ليخرج لنا بنصّ نقدي أدبي، له وسامة المولود من جهة ومهارة الموصِّف من جهة ثانية.

إلّا قليلاً



هو ليس شــعراً، ليس سرداً، ليس ســيرة ذاتية، لكنه إلّا قليلاً يكاد يكون كلّ ما سبق.

هل هو نوع جديد من فنون الكتابة؟

تــكاد الإجابة أن تكون نعــم، إن ليســ بحرفية المعنى والمبنى، فبمجملها.

كتاب «إلّا قليلاً»: إصــدار مختلف للهيئة العامة السورية للكتــاب هذا العام (٢٠١٧م)، مختلف في غير صــفة وجهة، لمؤلفته، لأدبيته، لثقافيته، لماهيته، لمستواه وشفافيته.

تلفت الأديبة الإعلامية والمربية جمانة نعمان، التي طالما عرفناها على «الفيس بوك» باسم «نعناعة البستاني» إلى إبداعات الآخرين، بطريقة جدّ حميمية صادقة شاعرية، إلى حدّ ذوبان الأنا في تظهير إبداعات الآخر!

«إلّا قليلاً»، كتاب مرآة من أحاسيس ومشاعر نرى فيها أعمال وأخلاق رعيل من أصحاب الكلمة والريشة والصورة والمشهد في بلدنا «لجينة الأصيل، نهلة السوسو، لينا هويان الحسن، عبد اللطيف عبد الحميد، عادل محمود، محمد الوهيبي، وغيرهن وغيرهم».

جاء على الغلاف الخلفي للكتاب:

أصدقائي!

اخترتهم عبر صـفحة محمية على «الفيس بوك» باسـم مستعار لنبات يعيش في الظل وكنت أحسـبه سـيظل في الظل، وكان سـيبقى كذلك، لولا أن ما رأيته، وما قرأتـه وتذوقته أبهجني ودفعني لأن أكتب «إلّا قليلاً».

اليـوم أعود لاسـمي الحقيقي الذي «أخفيته» بين أوراق «نعناعة» أشـكرها لأنها لم تخذله، وتحية لأصدقائي وإبداعاتهم التي سوف أتابعها في كتاب قادم.

«إلّا قليلاً» يتألف من (٢٤٦) صفحة من القطع المتوسط، وقد صمم غلافه عبد العزيز محمد.

عين الجمل



الكتاب: عين الجمل.

النوع: رواية.

المؤلف: جنكيز أيتماتوف.

المترجمان: د. ثائر زين الدين- د. فريد حاتم المشحف.

الناشر: طوى للثقافة والنشر والإعلام- لندن.

التوزيع: منشورات الجمل.

الطبعة: الأولى (٢٠١٥م).

يقول المترجمان في مقدمة كتاب «عين الجمل» الذي يقع في ثمانٍ وسبعين صفحة من القطع الوسط.

(يمكننا القول إن المصـير الإبداعي لجنكيز أيتماتوف المولود عام (١٩٢٨م) في قرية شـكر القرغيزيـة كان سـعيداً، بغض النظر عن أن والده البولشـيفيكي القرغيزي، سـقط ضـحية الاضطهاد (١٩٣٧م)، واحتضنته عمته كاراغيز آبا؛ فقد بدأ الابن بنشر قصصه القصيرة الأولى منذ عهد سـتالين. كان أيتماتوف حينها يدرس في المعهد الزراعي، ثم عمل مهندسـاً زراعياً في معهد الدراسـات العلمية للثروة الحيوانية، لكنه موهبته الأدبية بدت جليّة منذ سنوات الدراسة المبكرة وكان واضحاً أن الكتابة ستكون مهنته الرئيسة).

وقد كتب جنكيز أيتماتوف مؤلف الرواية التي بين أيدينا «عين الجمل» ذات يوم:

«غالباً ما يسألونني من أين استقيت صورة جميلة ودانيار. يصعب الجواب بالتحديد عن هذا السؤال. لقد أخذت عن الناس الأحياء الذين عشت معهم وعملت في الكولخوز، وهم بالنسبة إليَّ

موجودون في الحياة نفسها، وأنا ألتقي بهم يومياً، وعلى مرأى منا يترعرع أناس جدد مثل جميلة ودانيار.. إنهم أناس رائعون بودي أن أكرس لهم أفضل الصفحات، وأكثرها إشراقاً».

من كُتُبِ المؤلف جنكيز أيتماتوف:

(جميلة، المعلم الأول، الكلب الأبلق، وداعاً يا غوليساري، السفينة البيضاء، النطع، الرياح تطهر الأرض، ويطول اليوم أكثر من قرن).

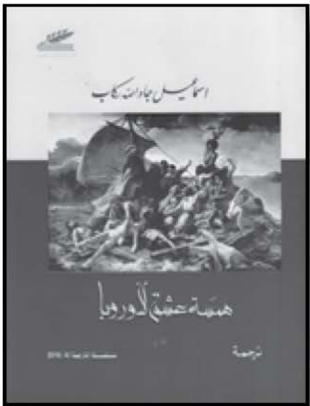
همسة عشق لأوروبا

«همسة عشق لأوروبا» هي مجموعة قصائد إنكليزية مترجمة، يعرِّفها المترجم الأديب السوري «إسماعيل جاد الله ركاب» بأنها:

«أحلى قصائد العصر الرومانسي في أوروبا» كما يورد المترجم في تقديم هذه القصائد التي يهديها لأوروبا، ما جاء على لسان الفيلسوف المؤرخ الكاتب الأمريكي «وليم جيمس ديورانت» في مؤلّفه «قصة الحضارة»:

«إن الآريين – يقصد الأوروبيين بشكل عام- لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها من بابل ومصر، لم ينشئوا الحضارة إنشاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما انتبذوه..»».

قصائد كتاب «همسة عشق..» الصادر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق، العام الماضي (٢٠١٦م) هي للشعراء:



«جون كيتس»، «بيرسي بيش شيلي»، «وليم بليك»، «وليم ووردس وورث»، «توماس كري». ومن قصيدة للأخير بعنوان «مرثاة كتبت في فناء كنيسة ريفية» اخترنا:

ناقوس الغروب يقرع معلناً رحيل يوم آخر،
وصوت الخوار يُسمع ملتفّاً ببطء فوق المرج الأخضر،
والفلاح يتهادى راجعاً إلى بيته في طريقٍ مُتعبة،
ويترك العالم للظلمة ولي.

«همسة عشق لأوروبا» من ترجمة الشاعر إسماعيل جاد الله ركاب، مجموعة قصائد موزّعة على مئة وصفحتين من القطع الصغير.

❁ ❁ ❁

ميخائيل بولغاكوف

نشيد الشيطان

ترجمة:

د. ثائر زين الدين

د. فريد حاتم الشحف

مقدمة

ولد ميخائيل أفانا سيفيتش بولغاكوف سنة (١٨٩١م)، في مدينة كييف. كان أبوه الأستاذ المساعد في الأكاديمية الدينية في كييف، عالم دين ومؤرخاً لنظرية الأديان، وأمّه - ابنةُ أيلنمس (أول الكهنة) في الكاتدرائية - معلّمة صف.

في الثامنة عشرة من عمره دخل ميخائيل بولغاكوف كلية الطب في جامعة كييف، وكان ذلك بعد وفاة والده بعامين، ليتخرّج فيها بدرجة (امتياز).

سنة (١٩١٦م) بدأ بولغاكوف العمل في المستشفيات العسكرية، على جبهة القتال في أوكرانيا ثم عمل طبيباً في أحد أقضية محافظة سمولنسك، حيث أدى واجبه المهني بأمانة وإخلاص في وسط غاية في البؤس والسذاجة والتخلف، وهو ما رصده الكاتب في عمله الجميل «مذكرات طبيب شاب»، الذي تمت بترجمته إلى العربية عام (١٩٩٤م) بالاشتراك مع الصديقين: د.أسامة أبو الحسن، ود.نجاة عبد الصمد. وكذلك في روايته المبكّرة «المورفين» التي نقلتُها إلى العربيّة منذ فترة قريبة.

لا بد من الإشارة أن كاتبنا بدأ كاتباً مسرحياً، حتى قبل أن يكتب «مذكرات طبيب شاب» و«المغامرات العجيبة لدكتور»، فأنتج أعمالاً تركت أثراً طيباً في نفوس المشاهدين منها: «الأخوان توربين» سنة (١٩٢٠م)، وفي وقت لاحق «أيام آل

توربين»، سنة (١٩٢٦م)، التي حققت له شهرة واسعة يوم ذاك، وشاهدها ستالين على مسرح موسكو الفني، مراتٍ عدة، لكن معظم ما كتبه في المسرح فيما بعد، ولا سيما مسرحيته «الهروب» - التي حظر تقديمها حتى على ستانيسلافسكي نفسه - لاقى عداءً منقطع النظير من النقاد السطحيين والمبتذلين من أعضاء الرابطة الروسية للكتاب البروليتاريين، وهي إحدى أهم التكتلات الأدبية والفنية في عشرينيات القرن الماضي.

انتقل بولغاكوف إلى موسكو عام (١٩٢١م)، وتفرّغ للعمل الأدبي تاركاً مهنة الطب، فكتب بين عامي (١٩٢٢م- ١٩٢٤م) رواية «الحرس الأبيض»، وهي أول عمل روائي كبير له.

وأضحت موسكو المدينة الضخمة، المتعددة الوجوه، مصدر إلهام الكاتب الأهم، ينضح منه مغذياً إبداعاته ذات النفس الناقدة الهجائية. وأخذت صحف العاصمة ودورياتها تنشر مقالاته وقصصه الحادة القارصة.

عام (١٩٢٤م) كتب بولغاكوف روايته «بيوض القدر» أو «البيوض القاتلة» التي قمت بترجمتها إلى العربية، بالاشتراك مع د. فريد الشحف عام (٢٠٠٧م) وهي رواية سخرية مرّة، وهجاء مقذع لروح المغامرة غير المحسوبة التي كانت تقود بعض القادة السياسيين المتحمسين في السلطة السوفييتية، والمندسين فيها، ممّن سخّروا العلم والثقافة والمعرفة لغايات غبية، وظني أن كبار قادة المرحلة لو انتبهوا إلى ما ضمّه العمل من بُعدِ نظرٍ ورؤية مستقبلية لكل ما ستؤول إليه أوضاع البلاد، لجنّبوا أوطانهم وشعوبهم الكثير من المآسي والخيبات، التي تراكمت خلال سبعين سنة وأدت أخيراً إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد حظيت تلك الرواية بإعجاب وتشجيع مكسيم غوركي، لكنها جوبهت بنقدٍ حادٍ، واتُّهم الكاتب «بسوء النية»، واتّباع «مزاج برجوازي جديد» وما إلى ذلك مما سبب له الكثير من الآلام والهموم، إضافة إلى محاربته وذلك من خلال منع نشر بعض أعماله.

والرواية القصيرة التي نضعها اليوم بين يدي القارئ العربي، تحت عنوان «نشيد الشيطان»، لا تبتعد كثيراً عن «بيوض القدر»، من حيث نقدها التهكمي للأوضاع التي آلت إليها روسيا.

كتبت الرواية عام (١٩٢٤م)، ورسمت بعمق وألم حالة الفوضى التي أصابت البلاد، وإحساس المواطن بالضياع والغربة، والخوف على المستقبل ووصوله إلى مرحلة الانهيار، أمام عصبة من الأشخاص تعبث بكل شيء، وتدمر كل شيء لغاية لا يُدركها إلا «الشيطان»!

إنَّ بطل العمل «كوروتكوف» أمين السر في مستودع أعواد الثقاب، الذي نزع من رأسه فكرة «تقلبات الدهر» وغرس عوضاً عنها ثقةً بأنه سيستمر في عمله هذا، في المستودع حتى نهاية الحياة على سطح الكوكب، وجد نفسه يعيش محنة قلَّ أنْ تحدث إلا في الأنظمة الشمولية، أو في موسكو بداية العشرينيات زمن الانتقال من نظام إلى نظام.

في هذه المرحلة يجد كوروتكوف نفسه مطروداً من عمله بحجة خطأه في اسم مديره الجديد، ولأن عينه تورّمت وهو يختبر علب الكبريت، التي استلمها عوضاً عن مرتبه الشهري. الشخصية التي تطاردُهُ - والتي سماها المؤلف ساخراً «كلسونير» شخصية غريبة جداً، فيها من البشر شيء ومن العفاريت أشياء، إنها تحتل المؤسسة وتبدأ العبث بها، وبموظفيها، وحين يحاول كوروتكوف أن يفهم ما الذي يجري، تبدأ متاعبه من سرقة وثائقه الشخصية، إلى اكتشاف أن «كلسونير» وجماعته «الكلسونيريين» يديرون البلاد كلها. ثم كلسونير هذا ليس إنساناً مثلنا إنه قادر على التحول إلى كل ما لا يخطر على بال القارئ: ديك أبيض، ساعة جدار، تنين وقد يغوص في باطن الأرض تاركاً رائحة كبريت نفاذة، وهو قادر مع مجموعته على ملاحقة كوروتكوف، ودفعه إلى الجنون... لينتهي العمل بمحاصرة كوروتكوف الرافض للانصياع على سطح أحد الأبنية العالية في موسكو ليختار أن يُلقي بنفسه إلى الهاوية وهو يردد «الموت لا العار»، لكنه حين يسلّم جسده إلى الهواء يشعر بأنه يطير إلى الأعلى نحو الشمس.. ويواصل طيرانه حتى يحس باصطدام تلك الكتلة الذهبية المضيئة برأسه. ويتوقف عن الإحساس بأي شيء.

إنَّ موضوعة «الشيطان» إحدى المواضيع المحببة إلى بولغاكوف، ولعل الوسط الديني الذي نشأ فيه، وقراءته للعهدين القديم والجديد وغيرهما، أشياء زودته بذخيرة كبيرة في هذا المجال. ومن يقرأ «المعلّم ومرغريتا»، التي أدى فيها

«فولند» - الشيطان، أحد أهم الأدوار يدرك عظمة موهبة بولغاكوف، الذي وظف هذه الشخصية الخيالية بصورة واقعية، للكشف عن تناقضات الواقع الحي، عن طريق الفانتازيا الساخرة. وظني أنه استخدم ما يشبه الواقعية السحرية في «نشيد الشيطان» و«المعلم ومرغريتا» وحتى في «بيوض القدر»، ربما قَبْل أنْ يبدأ أُدباء أمريكا اللاتينية بفعل ذلك بنحو خمسين سنة. وسيلاحظ قارئ «نشيد الشيطان»، أن قوة الشيطان المتمثلة بكلسونير والعجوز الغريب والمرأة المجنّحة، وغيرهم، هي قوة شريرة تماماً لم تؤدِّ إلا إلى الأذى، والفوضى والخراب، في حين أن «فولند» في «المعلم ومرغريتا» يؤدي دوراً مختلفاً تماماً، دوراً تلخصه العبارة التي استهلّ بها المؤلف الجزء الأول من روايته والمأخوذة من «فاوست، غوته»:

... ومن تكون إذن؟

- أنا من تلك القوة التي تريد دائماً الشر. فلا تفعل إلا الخير.

وهذا أمرٌ طبيعيّ، وإلا لكان بولغاكوف يكرر نفسه، في عمله الذي ختم به حياته، وهو عمل بدأه عام (١٩٢٨م). إلّا أنه توفي عام (١٩٤٠م) جرّاء تصلب الكليتين وهو ما يزال يعمل به، فقد أعاد كتابة «المعلم ومرغريتا» ثمان مرات، بل إنه وفي ظروف خاصة أحرق العمل كاملاً عام (١٩٣٠م)، وعاد إليه بين عامي (١٩٣٢ - ١٩٣٣م) يحاول تذكره، بمساعدة زوجته يلينا سرغيفنا وقد ولدت عبارة فولند: «المخطوطات لا تحترق»، جرّاء ذلك وأدت غاية مهمة في الرواية، التي لم تنشر إلا بين عامي (١٩٦٦- ١٩٦٧م) في المجلة الأدبية «موسكفا» على فصول.

ما أردت أن أطيل التقديم، لكنني أحببت أن أفسح المجال للقارئ كي يدخل فضاء هذا العمل «الشيطاني»-الذي جهدنا أنا وصديقي د. فريد الشحف في ترجمته بدقة وأمانة - وأن أضع بين يديه بعض المفاتيح.

***

قصة تروي : كيف أهلك توءمٌ أمينَ السر!

-١-

حادثة العشرين من الشهر

في ذلك الوقت عندما كان الناس ينتقلون من وظيفة إلى أخرى، كان الرفيق كوروتكوف يعمل أميناً للسر في المستودع المركزي لمواد أعواد الثقاب، وقد زاول الرجل منصبه هذا أحد عشر شهراً، كاملةً.

نزع كوروتكوف -الأشـقر، الرقيق والهادئ- من رأسه في غمرة انشغاله بعمله، فكرة وجود مـا يسمى «تقلبات الدهر» على وجه الأرض، وغرس عوضـاً عنها الثقة بأنه سيستمر في عمله هـذا، في المستـودع حتى نهاية الحياة على الكرة الأرضية، ولكن ما حصل -مع الأسف- كان مغايراً تماماً.

فـي اليوم الموافـق ٢٠ أيلول (١٩٢١م) غطّى محاسب مستودع أعـواد الثقاب رأسه بقبعةٍ مُزريـة ذات أذنين، ووضع في حقيبته شيكاً نقدياً مخطّطاً، وخرج، كان ذلك تمام الحادية عشرة ليلاً.

في الرابعة والنصف من ظهر اليوم التالي دخل مكان عمله مبللاً بالماء، بعد أن نفضَ قبعته جيداً من الماء ووضعها على الطاولة، وفوقها وضع حقيبته قال:

- لا تُلحّوا أيها السادة.

ثم فتش عن شيء ما داخل درج الطاولة، وخرج من الغرفة، ليعود بعد ربع ساعة، حاملاً دجاجة كبيرة ميّتة، برقبة طويلةٍ ملوية. وضع الدجاجة على الحقيبة، وثبّت يده اليمنى عليها ثم قال:

- لا توجد نقود!

- غداً؟ - صاحت جوقة النساء بصوتٍ واحد.

هزّ المحاسب رأسه قائلاً:

-لا غداً ولا بعد غد. لا تتدافعوا أيها الرفاق كدتم تقلبون الطاولة علي.

صاح الجميع ومن بينهم كوروتكوف الساذج:

- كيف؟!

قال المحاسب بصوتٍ باكٍ، رافعاً ساعده أمام وجهه ليحمي نفسه من كوروتكوف:

-أيها المواطنون إنني أرجوكم.

- كيف ترجونا - صرخ الجميع به، وكان صوت الماجنِ كوروتكوف هو الأعلى.

أضاف المحاسب مبحوحاً، وهو يخرجُ الشيك من حقيبتهِ ويعرِضهُ على كوروتكوف:

- أرجوكم اِهدؤوا.

فوق البقعة التي وضع المحاسب إظفره الوسخ عليها كتب بالقلم الأحمر وبخط مائل:

«يُصرَف. عن الرفيق سوبّوتنيكوف - سينات».

وكتب أسفل العبارة السابقة باللون الليلكي:

«لا توجد نقود. عن الرفيق إيفانوف ـــ سميرنوف».

- كيـــف ذلك!- صرخ كوروتكوف بمفــرده، بينما اندفع الآخرون وانحنـــوا فوق المحاسب حابسين أنفاسهم.

أجاب المحاسب متألماً:

- آه... يا إلهي، ما ذنبي أنا في كل هذا؟ أيها الرب...!

وضع الشيك في حقيبته بسرعة: وأدخل رأسه في قبعته الرطبة، بينما تأبط الحقيبة وهو يرفع الدجاجة بيده الأخرى ويلوّح بها فوق رؤوس الجمهور، صائحاً بهم:

- افتحوا لي الطريق... أفسحوا لي من فضلكم.

بصعوبـــة شق دربه بين النـاســ، واختفى وراء الأبواب. ركضت خلفـــه موظفة الديوان ذات الوجـــه الشاحب، والكعبين العاليين الحاديـــن، فنسمع انكسار الأيسر منهما وسقط عند الباب، مما جعلها تترنّح، ثم ترفع رجلها اليسرى فتنزع فردة الحذاء وتقف على هيئتها تلك وأمامها في الغرفة نفسها وقف الجميع حائرين ومن بينهم كوروتكوف.

-٢-

مواد الإنتاج

بعـد ثلاثة أيام من الحادثــة السابقة، فتح بــاب الغرفة المستقلة نسبيــاً، التي يعمل فيها كوروتكوف، ودخلت امرأة مبتلة العينين بالدموع، ثم قالت بغضب:

- رفيق كوروتكوف، اذهب واستلم مرتبك.

- معقــول؟! - قال كوروتكوف بسرور، وأخــذ يُصفّر مقطع من أوبرا «كارمن»، ثم هرع إلى الغرفــة، التي زين بابها بكلمــة «الصندوق»، ارتخى فكّه الأسفل وانفتح فمه واسعاً، حين شاهد عمودين ضخمين من العلب الصفراء، يلامسان سقف الغرفة.

المحاســب المتوتر المتعرق، الــذي أتعبه شرح الموقف للموظفين، علّــق الشيك بمسمار صغير على الحائط، وقد أُضيف إلى العبارتين المكتوبتين بالأحمر والليلكي عبارة جديدة بالحبر الأخضر هذه المرة:

«يُصرف من مواد الإنتاج.

عن الرفيق بوغويافلينسكي - بريوبراجينسكي.

وأنا أرى ذلك - كشيسنسكي».

خــرج كوروتكوف من غرفة المحاسب مبتسماً ابتسامــة عريضة بلهاء. كان يحمل في يديه أربــع علب صفراء كبيرة، وخمس خضراء اللون أصغر مــن سابقاتها، أما في جيوبه فقد دسَّ ثلاثيــن علبــة صغيرة زرقاء اللون عامرة بأعواد الثقاب. في مكتبــه غلّف العلب كلها بصفحتين كبيرتين مــن صفحات إحدى جرائد اليوم، وكان ضجيج الأصوات الدهشة القادمة من الديوان يمــلأ أذنيــه. خرج من العمل ساهماً دون أن ينبس ببنت شفة، أو يكلم أحداً. عند المدخل كادت سيارة أن تصدمه، لم يلتفت إليها، ولم يميّز مَنْ كان في داخلها.

فــي البيت وضــع العلب على الطاولة، وابتعد عنها ليتمعن في النظــر إليها، بينما كانت تلك الابتسامة البلهاء لا تفارق شفتيه، عبث قليلاً بشعره الأشقر، ثم قال لنفسه:

- الانتظار والاكتئاب طويلاً في هذا البيت لا ينفع، عليّ بيعها.

قـــرع بـــاب جارته ألكسانـــدرا فيودوروفنا، التي تعمـــل في مستودع المنطقـــة للمشروبات الكحولية.

- ادخل. أجابته بصوت بدا بعيداً.

دخـــل كوروتكوف، فأصابتـــه الدهشة، كانت ألكساندرا فيودوروفنـــا، التي عادت من العمل مبكّـــرة اليـــوم، تجلس على مخدّة وضعتها علـــى أرض الغرفة، دون أن تنـــزع عنها معطفها أو قبعتهـــا، وأمامها ينتصب صفٌّ من الزجاجات الملفوفة بـــورق الجرائد والمملوءة سائلاً أحمر كثيفاً.

التفتت المرأة نحو كوروتكوف قائلة:

- ستٌ وأربعون.

قال كوروتكوف مُجفلاً:

- مرحباً ألكسندرا فيودوروفنا. هل هذا حبر؟!

أجابت الجارة متنهدة:

- بل نبيذ كنائسي!

تأوه كوروتكوف قائلاً:

-كيف؟ وأنتم أيضاً؟

قالت ألكسندرا فيودوروفنا وقد صعقتها الدهشة:

- هل استلمتم أنتم أيضاً نبيذاً كنائسياً بدلاً من المرتبات!

أجابها كوروتكوف بصوتٍ خافت وهو يعقد زر معطفه:

- لا. أعطونا أعواد ثقاب.

صرخت ألكساندرا فيودوروفنا وهي تقف وتنفض تنّورتها:

- إنها لا تشتعل!

- ماذا تقولين؟، كيف لا تشتعل!

فزع كوروتكوف، وهرع إلى غرفته، لم يضيع ثانية واحدة، أمسك إحدى علب الثقاب، أخرج عـــوداً وأشعله، انبعث صوت اشتعال واضح، التهبـــت على أثره شعلة خضراء في رأس العود، ما لبثت أن انطفأت، كاد كوروتكوف أنْ يختنق جرّاء رائحة الكبريت اللاذعة، فبدأ يسعُل. أخرج

عــوداً آخر، وأشعلــه، طارت منه كتلتان ناريّتان، أصابت الأولى زجــاج النافذة، أما الثانية فقد كوت عينه اليسرى. رمى كوروتكوف العلبة جانباً وراح يتألم بصوتٍ عالٍ رافساً برجليه الأرض كحصانٍ لحظة توتر. ضغط يده على عينه، ونظر بفزع في مرآة آلة الحلاقة، فقد ظن أن الشعلة أطفأت عينه تماماً، لكن العين كانت في مكانها تماماً، إنما شديدة الحمرة وتسيل دمعاً.

- آه... يــا إلهي -زمجر كوروتكوف حانقاً، وهو يُخرج من أحد أدراج الثياب كيساً أمريكياً فرديــاً من الشاش الطبي، فتحه، ولفّ الجزء الأيسر من رأسه، فبدأ كجريح في إحدى المعارك الوطنية.

لــم تنطفئ النــار في شقة كوروتكوف طــوال الليل، فقد تمدد وراح يُشعــل أعواد الثقاب، استهلك خلال ذلك ثلاث علب كبيرة كاملة، وتمكن من إشعال ثلاثةٍ وستين عوداً.

قال كوروتكوف مخاطباً نفسه:

- تكذب تلك البلهاء. الأعواد ممتازة!

قبيــل الصباح كانــت الغرفة قد امتلأت برائحة كبريت خانقة، ومــع خيوط الفجر الأول غفا كوروتكوف، فشاهــد أحلاماً جنونية، مخيفة، فيها أنه كان يقف في مرجٍ أخضر فسقطت أمامه كرة بلياردو ضخمة حية، انتصبت على رجليها واقفةً.

كان حلمــاً مزعجــاً ومُقرفاً، جعل الرجل يصرخ، ويستيقظ مــن نومه، ليرى تلك الكرة تقف لثوان عديدة بجوار سريره في الظلام، مُصدرة رائحة كبريت نفاذة.

كان عليــه أن يحــدّق طويلاً، ليكتشف أنهــا غير موجودة في الحقيقة، ثــم ليعود إلى النوم العميق!

-٣-

ظهور الرجل الأصلع

أزاح كوروتكــوف لفافة الشاش الطبي عن عينه المصابــة، وتأكد أنها شفيت إلى حد بعيد، لكنه وزيادة في الحيطة أعاد اللفافة إلى موضعها من جديد.

وصل إلى مكان عمله متأخراً كثيراً، لكن كوروتكوف المخادع، وكي لا يثير اهتمام المنحطين ذوي التفكير الأعوج من الموظفين، سارع في الدخول إلى مكتبه مباشرةً، على طاولته وجد ورقة يسأل فيها مدير قسم التغليف رئيس المستودع:

هــل سيتم تقديم الثيــاب للضاربات على الآلات الكاتبة. حمل كوروتكــوف الورقة وانطلق بها سريعاً عابراً الممر نحو مكتب الرفيق تيكوشين رئيس المستودع.

عند باب الرئيس واجه كوروتكوف شخصاً غريباً أذهله شكله، كان قصيراً إلى درجة لم يتجاوز طوله خصر كوروتكوف الرجل الطويل، لكن ذلك القصير ترافق مع كتفين عريضين بصورة نادرة، أمــا خصره المربع فقد استقر على ساقين متقوستيــن، اليمنى منهما عرجاء، لكن على الرغم من ذلــك فقد كان العضو الأكثــر غرابة في بنيته تلك هو الرأس، بدا وكأنــه صورة مضخمة جداً عن البيضـــة، بيضة تتوضّع أفقياً رأسها الحاد إلى الأمام، وكان أصلعاً تماماً، كالبيضة أيضاً، بحيث تنعكس أضواء المصابيح عنها، وجه هذا الرجل الصغير الغريب، محلوق ربما لأكثر من مرة، بحيث اصطبغ بالزرقة، وعيناه الخضـــراوان الصغيرتان كرأسي دبوس، توضعتا عميقاً في محجريهما. لــفّ جسمـــه الغريب بزة عسكرية مفتوحـــة الأزرار مَحوكة من قماش بطانيـــة رمادية اللون، يظهر مـــن تحت معطفها قميص روسي مطرّز، ورجلاه فـــي بنطالٍ من القماش نفسه، بينما حذائه قصير بفتحتين جانبيتين، يعود طرازه إلى ما كان ينتعله الخيالة زمن القيصر ألكسندر الأول.

فكــر كوروتكوف: «يا لهذا الشكل!!»، وحاول المرور إلـــى باب مكتب تشيكوشين متجاوزاً الرجل الأصلع، لكن هذا منعه بصورة غير متوقعة.

– مــاذا تحتاج؟– سأل الأصلع كوروتكوف بصوتٍ جعل أمين السر المتوتر أصلاً يرتجف. كان صوتاً يشبه تماماً ضربةً على قدرٍ من النحاس، جرس أو رنين يجعل كل من يسمعه يشعر كما لو أنَّ سلكاً خشناً يمر على طول عموده الفقري، فقرة فقرة. وزد على ذلك أن كوروتكوف شمّ رائحــة أعواد الثقاب في كل كلمة تخرج من فم هذا الكائن وبغض النظر عن كل ذلك فقد ارتكب كوروتكوف –لقصر نظره– ما توجب ألا يرتكبه، فقد غضب وقال:

– أوف... غريــب جــداً. إنني أدخل بعمــلٍ خاص، هل تسمح لي أن أعــرف من تكون أنت لكي...

– هل تشاهد ما هو مكتوب على الباب؟

نظر كوروتكوف إلى اللوحة، وقرأ عبارة قديمة معروفة تقول:

«يمنع دخول من ليس لديه موضوع يطرحه».

وقال كوروتكوف بغباء وهو يشير إلى الورقة التي يحملها:

– لدي موضوع أطرحه!

انزعــج الأصلع المربع فجأة، وانبعثت من عينيه شرارات صفراء، ثم قال بصوتٍ يشبه قرع الطناجر النحاسية، صمَّ أذني كوروتكوف:

– أنــت أيها الرفيــق متخلّف، بحيث لا تعرف معنى أبسط اللوائح الوظيفية. أستغربُ كيف أنــك مازلت على رأس عملك حتى الآن، وعلى كل حــال لديك الكثير مما يثير الاهتمام، عيناك المضروبتان دائماً. لا بأس سنعيد الأمور إلى نصابها (تنهّد كوروتكوف) أعطني الورقة التي في يدك، وخطف الورقة من يد كوروتكوف وهو ينطق الكلمة الأخيرة، قرأها بسرعة، وأخرج من جيبه قلم رصاصٍ كيميائي متآكل، وضع الورقة على الجدار، وكتب عليها بخطٍ مائل بضع كلمات.

– اذهــب إلى شأنك! – قــال عبارته ودفع الورقة إلى كوروتكوف، بصورة كادت تصيب عينه السليمــة. صرَّ باب مكتب الرئيس وابتلــع الغريب، بينما بقي كوروتكــوف كالمخبول، دون أن يستطيع دخول مكتب تشيكوشين. خلال نصف دقيقة هدّأ كوروتكوف المرتبك من روعه، ومضى مسرعاً إلى ليدوتشكادي روني السكرتيرة الخاصة للرفيق تشيكوشين.

– آه آه.. –تأوه كوروتكوف. كانت عين ليدوتشكا معصوبة،بتلك الطريقة نفسها، التي عُصبت بهــا عينه هــو، مع فارق بسيط، أن نهايــة قطعة الشاش عندها كانت تتدلــى منها عقدة للزينة. سألها:

- ما الذي أصابك؟

أجابت ليدوتشكا بانزعاج:

- إنها أعواد الثقاب اللعينة!

سألها كوروتكوف وهو يتهالك على الكرسي بصوت منخفض:

- من يكون ذلك الشخص هناك؟

همست ليدو تشكا قائلة:

- لا تعرف حقاً من هو؟ إنه الجديد.

- كيف؟ وماذا عن تشيكوشين؟

- طــردوه يوم أمس - قالت ليدو تشـــكا بحقد، وأضافت وهي تصوب أصبعها نحو المكتب - يـــا له من ذكـــر أوز، إنه مصيبة بذاتها، لم أرَ مثله في حياتـــي، يصرخ! يطرد من العمل، هذا الأصلع الرخيص! عبارتها الأخيرة جعلت كوروتكوف يسمّر عينيه عليها... ويسأل:

- كيف؟

لكنه لم يستطع أن يتم سؤاله، فقد زعقَ المعني بالحديث بصوتٍ مخيف:

- المراسيل إلى هنا فوراً...

وخلال ثانية اندفـــع كل من كوروتكوف والسكرتيرة في اتجاهين مختلفين. حين وصل إلى مكتبه جلس خلف الطاولة يحدّث نفسه:

- اَي.. ياي.. ياي.. تورطت يا كوروتكوف، يجب تسوية الأمر.. «متخلّف!».. آ آ آ السافل، لا بأس! سترى كيف يكون كوروتكوف متخلّفاً.

ثم أنزل بصره إلى الورقة، وحدّق في العبارة التي كتبها الأصلع. بسرعة.

كان الخط رديئاً ومائلاً:

«سيعطـــى للضاربـــات على الآلات الكاتبـــة، وللنساء عموماً في الوقـــت المحدد كلسونات عسكرية»

- يـــا سلام!! - تمتم كوروتكوف دهشاً، وهو يرتجف من الشهوة، متصوراً ليدو تشكا وهي تلبس سروالاً داخلياً عسكرياً أخرج على وجه السرعة ورقة بيضاء، وخلال ثلاث دقائق كان قد خطّ البرقية الآتية:

«برقية

مديــر قسم التغليــف نقطة إجابة عن رسالتكم رقــم ١٠٠١٥ (ب) تاريخ ١٩ الشهر الجاري فاصلة يعلمكم مستودع أعواد الثقاب فاصلة بأنه سيعطي للضاربات على الآلات الكاتبة والنساء عمومــاً في الوقت المحــدد كلسونات عسكرية نقطة الرئيس شخطة توقيــع أمين السر شخطة فارفولومي كوروتكوف نقطة».

اتصل بالمراسل بانتيليمون. وعندما حضر قال له:

- خذها للرئيس كي يوقّعها.

عضّ بانتيليمون على شفتيه بعد أن أخذ الورقة ومضى يهزج.

مضــت أربع ساعــات وكوروتكوف في مكتبه يستمع إلى ما يجــري خارجه دون أن يغادر، مُقــدِّراً أنه في حــال قرر الرئيس الجديد إجراء جولة تفقدية علــى الموظفين فسيراه غارقاً في العمل. لكن صوتاً ما لم يصدر من المكتب المخيف.

وفجــأة تعالى صوت حديدي مبهم، يهدد بطرد أحد ما من العمل، لكن كوروتكوف لم يسمع من المعني بالطرد على الرغم من أنه وضع أذنيه على الباب تماماً. في الساعة الثالثة والنصف سُمِعَ صوت بانتيليمون من خلف جدار الديوان يقول:

- اذهبوا بالسيّارة.

تعالى بعد ذلك ضجيج، ثم ذهب كلٌ في طريقه إلى البيت.

كان الرفيق كوروتكوف آخر من خرج، مضى وحيداً باتجاه منزله.

-٤-

كوروتكوف يطير

في صباح اليوم التالي اقتنع كوروتكوف بسرور أن عينه لم تعد بحاجة إلى ضمادة علاجية، لذلــك نزع عنها قطعة الشاش بارتياح تام، فتحسّن مظهره، وتبدل. شرب الشاي بسرعة وأطفأ «بابــو» الكيروسين، ثم خرج مسرعــاً إلى العمل، حاول قدر المستطــاع ألا يتأخر لكنه تأخر خمسيــن دقيقة، بسبب مسير ترامــواي الخط السادس بشكل دائري، على خط الترامواي رقم سبعة، ودخوله شارعاً بعيداً تحيط به البيوت الصغيرة ثم تعطل هناك. اضطر كوروتكوف لقطع ثلاثة فراسخ مشياً على الأقدام، فدخل إلى الديوان لاهثاً، في تلك اللحظة التي كانت فيها ساعة المطبخ «الوردة الألبيّة» تدق تمام الحادية عشرة.

انتظــره في الديوان مشهد غير عادي لمثل هذا الوقت مــن الصباح! لم يكن موظفو الديوان جالسيــن إلى طاولات مطعم «الوردة الألبيّــة» السابق، بل كانوا متجمعين كتلة واحدة: ليدوتشكا دي روني، وميلوتشكا وليتوفتسيفــا، وآنا يفغرافونا، والمحاسب الأول دروزد، والمفتش غيتس، ونوميراتسكي، وإيفانوف، وموشكا، ومدوِّنة الصادر والوارد، وأمين الصندوق، كل هؤلاء تجمّعوا كتلــة واحدة أمام الجدار، الذي علّــق عليه بمسمار ربع ورقة عادية. عندمــا أصبح كوروتكوف قريبــاً من الجمع، خيّم عليهم الصمت فجــأة، وأخلوا مكانهم عند الجدار. تفرّقوا بصمت، فتقدّم كوروتكــوف من ربع الورقــة المعلّق. كانت السطور الأولى تنظر إليــه بوضوح وثقة أما السطور الأخيرة فأطلت عليه من خلال ضباب دامعٍ وفاجعٍ:

قرار رقم /١/

١- بسبب إهماله لواجباته الوظيفية، ما أدى إلى خلط صارخٍ في وثائق رسمية مهمة. وبسبب حضوره إلى العمل بمظهر غير لائق، ووجه مهشّم جراء اشتراكه في شجار على ما يبدو: يُسرّح الرفيق كوروتكوف من وظيفته وذلك من تاريخ السادس والعشرين من هذا الشهر، ويسلّم أجرة الانتقال بالترامواي حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه ضمناً.

مع أن الفقرة السابقة من القرار حملت رقم ١ إلا أنها كانت الأخيرة أيضاً، وتحتها وبحروف كبيرة جاء توقيع المدير:

المدير كلسونير

خـــلال عشرين ثانية خيّم في قاعة الكريستال المغبرة لمطعم «الوردة الألبيّة» صمت لا مثيل لـــه، وكان كوروتكوف المخضر هو الأكثر صمتاً، بل موتاً. في الثانية الحادية والعشرين انفجر الصمت عن كلمة واحدة:

-كيــف؟ كيف؟ - رددها كوروتكوف مرتين، وجاءت كصـــوت انكسار الكأس الأولمبي جرّاء رفســة بالنعــال ثم تابع: - اسم عائلته كلسونير؟؟ وعندما لفظ هـــذه الكلمة المخيفة قفز موظفو الديــوان في اتجاهات مختلفة، وخلال لحظة واحدة كانوا قــد جلسوا إلى طاولاتهم، تماماً مثل غربان على أسلاك كهرباء الشوارع.

أصبح وجه كوروتكوف شبيهاً بعفنٍ أخضر متقيّح على خلفيةٍ أرجوانيةٍ مرقطة.

قال سكفورتيس من بعيد وهو ينظر من خلال دفتر الحسابات الجارية:

- أوي. أوي. أوي. كيف فعلت ذلك يا عم؟ كيف؟

أجابه كوروتكوف بصوت متكسر:

- أنا فكرت، فكرت.. قرأت «كلسونات» بدلاً من «كلسونير» إنه يكتب بأحرف صغيرة![1]

قالت ليدوتشكا:

دعه يهدأ، إنني لا أريد أن ألبس شيئاً تحت بنطالي!

قال سكفورتيس بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- هس! ماذا تقولون؟ - ثم أخفض رأسه، وخبّأه خلف ورقة من دفتر الحسابات الجارية.

قال كوروتكوف بعد أن تحوّل لون وجهه إلى الأبيض:

– إنه ليس محقاً فيما يخص وجهي، فقد حرقت عيناي بأعواد ثقابنا، تماماً مثلما حصل مع الرفيقة ليدوتشكا.

– قال غيتس وقد اصفرّ وجهه:

– أَخفضـــوا أصواتكم! فقد جرّب يــوم أمس بنفسه أعواد الثقاب ووجدها رائعة! وفجأة رن الجرس الكهربائي فوق الباب.

– رن... رن... رن... رن... وفـــي الحـــال سقط جسم بانتيليمون الثقيل عن كرسيه، وتدحرج في الممر.

– لا! سأوضـــح الأمر، سأوضح الأمر! ـــ قال كوروتكوف بصوت عالٍ ورقيق ثم مشى إلى اليســـار، ثم إلى اليمين وراوح قليلاً في مكانه ربما بسبـــب الانعكاس غير الحقيقي الذي يظهر علـــى المرايا الألبية، ثم خرج إلى الممر، وتوجه إلـــى اللمبة الباهتة المعلقة فوق لوحة «المكاتب المنفصلة» مندفعاً بسرعة، حتى إذا بلغ المكتب المخيف وجد نفسه في أحضان بانتيليمون.

قال كوروتكوف بتوتر:

– اسمح لي أيها الرفيق بانتيليمون بالدخول، أريد أن أتحدث إلى الرئيس هذه اللحظة.

– ممنوع، ممنوع، لدي تعليمات بأن لا أسمح لأحد أن يدخل، ممنوع، اذهب من هنا–اذهب. ستحصل لي مصيبة يا سيد كوروتكوف بسببك فيما لو تركتك تدخل.

قال كلامه هذا بصوتٍ خشن، بينما كانت تفوح من فمه رائحة بصل قاتلة، خفّفت من إصرار كوروتكوف، الذي تابع كلامه بصوت أقل حدة:

– يا بانتيليمون، أحتاج للدخول، إنك تعلم يا عزيزي أنه صدر قرار بحقي...

اسمح لي بالدخول من فضلك.

وبفزع شديد سد بانتيليمون الباب بجسده الضخم قائلاً:

– آه يا إلهي! أقول لك ممنوع، ممنوع، أيها الرفيق!

في اللحظة نفسها سُمِعَ خلف الباب رنين جرس الهاتف، ثم صوت غليظ يردُّ أقرب إلى القرع على طبلٍ نحاسي:

– سأحضر حالاً!

ابتعد كوروتكوف وبانتيليمون عن الباب، الذي انفتح عن كلسونير وهو يهرع عادياً في الممر، معتمراً قبعة عسكرية، ومتأبطاً حقيبـــة جلدية. خلفه اندفع بانتيليمون بإصرار، ووراءهما بتردد انطلق كوروتكوف، عنـــد منعطف الممر قفز كوروتكوف متجـــاوزاً بانتيليمون ولاحقاً بكلسونير

قائلاً بصوتٍ متقطع:

- أيها الرفيق كلسونير، اسمح لي دقيقة واحدة من وقتك، للتحدث إليك في موضوع القرار.

أجابه كلسونير بشراسة، وتفكيره مشغول تماماً بأمر ما:

- أيها الرفيق، ألا ترى، أنني مشغول؟! مسافر! مسافر. ودفعه جانباً.

- إنني فيما يخص القرار...

- هل يُعقل أنك لا ترى مدى انشغالي؟ راجع أيها الرفيق أمين السر! كان كلسونير قد أصبح في البهو، في المكان الذي رميت فيه جانباً اللوحة الضخمة المهملة، التي حملت شعار«الوردة الألبيّة».

صاح كوروتكوف محقوناً بالهلع:

- إنني أنا أمين السر! اسمعني أيها الرفيق كلسونير!

زأر كلسونير مثل جنية بحر. دون أن يسمع ما يقوله كوروتكوف وقد التفت إلى بانتيليمون:

- أيها الرفيق اتخذ كل الإجراءات اللازمة لمنعه من إعاقتي!

صاح بانتيليمون خائفاً:

- أيها الرفيق، لماذا تحاول إعاقته وتأخيره؟!

ودون أن يـدرك عن أي إجراءات يتحدث رئيسه، أحاط بكلتا يديه خصر كوروتكوف، وضمه إليـه تماماً مثلما يضم امرأة يحبها! وقد كان هذا الإجراء فعالاً تماماً، إذ إنه مكّن كلسونير من الانعتاق والسير كأنما على دواليب صغيرة، ثم القفز خارج المدخل الرئيسي للبناء.

- ورّ! ورّ ررّ - هـدرت الدراجة النارية خمس مـرات متتالية خلف زجاج المدخل، ثم غطى دخانهـا النوافذ واختفت. حينها أطلق بانتيليمون كوروتكوف من إساره ومسح العرق المتصبب من جبينه قائلاً:

- مصيبة!!

سأله كوروتكوف بصوتٍ مهتزّ:

- بانتيليمون.. إلى أين ذهب؟ قل لي بسرعة، فقد فهم شيء آخر تماماً؟! لم يدرك عما أحدِّثه! هل تفهمني؟

- أتصور أنه ذهب إلى المركز الروسي للتموين.

ركض كوروتكوف بسرعة البرق نحو الداخل، إلى مكان تعليق الثياب الشتوية، خطف معطفه وقبعته، وانطلق خارجاً.

-٥-

خدعة شيطانية

حالف الحظ كوروتكوف، فقد حـــاذى الترامواي مبنى «الوردة الألبيّة» لحظة خروجه منها، قفز بنجاح إلى الداخل، وأسرع إلى الأمام، يصطدم بما حوله جرّاء فرملة عجلات الترامواي، كان الأمل يلهــب قلبه. الدراجة النارية تأخرت عن الترامــواي بسبب ما، ثم ها هي ذي فجأة تلحق به وتسير أمامه، كان ظهر الرئيس المربع يغيب عن عيني كوروتكوف، ثم يظهر مرة أخرى من خلال غيمة من الدخان الأزرق. خلال خمس دقائق كانت أعماق كوروتكوف تغلي وتفور، وقلبه يخفق وينقبض وهو واقف عند باب الترامواي، وأخيراً وقفت الدراجة أمام البناية الرمادية لمركز التموين الروسي. لاذ الجسد المربع خلف المارة واختفى. قفز كوروتكوف من الترامواي وهو يسير، فسقط وجرح ركبته، لكنه رفع قبعته عن الأرض وانطلق باتجاه المبنى غير عابئ بسيارة كادت تصدمه.

عشــرات الأشخاص ساروا في ملاقـــاة كوروتكوف، ومحاذاته، يغطّون الأرض ببقع رطبة. لمح بينهــم علــى المسار الثاني للسلم الظهر المربع، أسرع خلفه لاهثـــاً، كان كلسونير يصعد بسرعة عجيبة، غير طبيعية، انقبض قلب كوروتكوف عندما راودته فكرة: أنه سيفقده، وهذا ما حدث فعلاً، فعند الردهة الخامسة للسلم، وعندما خارت قوى أمين السر تماماً، ذاب الظهر المربع وسط الوجوه والقبعـــات والحقائب، وكالبرق قفـــز كوروتكوف إلى الردهة، ووقف للحظة حائـــراً أمام بابٍ علّقت عليه لوحتان إحداهما خضـــراء كتب عليها بالخط الذهبي «مَهجَع ...»، والأخرى بيضاء كتبٍ عليها بالأســـود «رئيس ديوان الإدارة التموينية»، اندفع كوروتكوف لحسن حظه عبر هذه الأبواب، فشاهد أقفاصاً زجاجية ضخمة، وكثير من النساء الشقراوات يركضن بينها. فتح كوروتكوف أول حاجز، فشاهـــد خلفه إنساناً في بذلـــة زرقاء، كان منبطحاً تقريباً على الطاولة، ويضحك بسرور عارم وهو يتكلـــم عبر سماعة الهاتف، في القسم الثاني وعلى طاولة كبيرة توضعت كتب كثيرة، بينها الأعمال الكاملـــة لشيلر - ميخائيلوف، وإلى جوار الكتب وقفـــت سيدة متقدمة في السن تضع على رأسها منديـــلاً، وتضع على الميزان سمكاً مجففاً ملأت رائحته المكان. في الحاجز الثالث تعالت طرقات

سريعــة تتخللها أجراســ متقطعة منبعثة من ست آلات كاتبة تجلســ خلفهن ست نساء شقراوات يضحكــن فتلتمع أسنانهن البيضاء الصغيرة، خلف الحاجــز الأخير بدت مساحة واسعة مفتوحة تتوسطهــا أعمدة ثخينة، وتتعالى في هوائها أصوات آلات مزعجة، كتلة هائلة من الرؤوس المختلفة نسائية ورجالية طالعت الرفيق كوروتكوف لكن رأس كلسونير لم يكن بينها، أوقف كوروتكوف التائه والمصاب بالدوار أول امرأة مرت به مصادفة، وهي تحمل في إحدى يديها مرآة:

– أما شاهدتِ كلسونير؟

وسقط قلب كوروتكوف من الفرح، واتسعت عيناه عندما قالت له المرأة:

– نعم. إنه الآن يغادر. الحق به.

ركضــ كوروتكوف عبر القاعة ذات الأعمدة، بالاتجاه الذي أشــارت إليه اليد البيضاء ذات الأظافر الحمراء اللامعة. قطع القاعة كالسهم، وعندما وجد نفسه في ردهة ضيقة ومظلمة بعض الشيء شاهد باب المصعد الكهربائي المفتوح والمضاء، وارتجفت فرائصه حينما شاهد الظهر المربع اللحافي والحقيبة السوداء اللمّاعة يحاولان دخول المصعد.

– أيها الرفيق كلسونير– صاح كوروتكوف وتجمّد مكانه. دوائر خضراء تطايرت في الردهة بأعداد كبيرة، شبك حديدي انغلق أمام الباب الزجاجي للمصعد، اهتز المصعد، واستدار الظهر المربع فتحوّل إلى صدرٍ عملاق. عرف كوروتكوف كل ما في الرجل:

البزة العسكرية الرمادية، والقبعة والحقيبة، والعينين الزبيبيّتين، إنه كلسونير، لكنه كلسونير بلحية آشورية مجعّدة وطويلة، تتدلى على صدره. فكر كوروتكوف لوهلة:

«لا بد أن هذه اللحية نمت عندما كان يقود الدراجة، ويصعد السلالم – هل هذا معقول؟».

ثــم فكر مرة أخرى: «لحيــة اصطناعية – هل يُعقل؟!»، في هــذه الأثناء تحرك المصعد إلى الأسفل اختفت في البداية قدما كلسونير، خصره، ثم بطنه، ولحيته، فمه، ثم عيناه، وكان لحظتها يقول بكلمات ناعمة وقوية:

– الوقت متأخر أيها الرفيق. احضر يوم الجمعة.

«الصــوت أيضاً هو نفسه» – قرعت الفكــرة جمجمة كوروتكوف، وأحس برأسه خلال ثلاث ثوانٍ يغلي، لكنه تمالك نفسه وفكر أن عليه ألا يسمح لأي سحر أن يوقفه، الانتظار في حالته هذه معناها الهلاك. قفز نحو شبكة المصعد، وتهيأ له أن بإمكانه أن يتسلق الشبك ليصل إلى الحبال الحاملــة للمصعد وينزلق عليها. فجأة امرأة سمراء خرجت من مكان ما ولمست يد كوروتكوف برقة بينما التمعت أحجار كريمة في شعرها.

سألته بلطف:

- هل لديك مشكلة في القلب أيها الرفيق؟

- لا، آه، لا أيتها الرفيقة- أجابها كوروتكوف المفجوع وهو يخطو نحو الشبكة-أرجوكِ لا تعيقيني.

- إذن، اذهب أيها الرفيق إلى إيفان فينوغينو فيتش.

- قالت الجميلة بصوتٍ حزين وهي تمنع كوروتكوف من بلوغ شبكة المصعد.

- لا أريد، إنني في عجلة من أمري أيتها الرفيقة، ألا ترين؟!

لكن المرأة بقيت مكانها حزينة وعنيدة!

- إذن، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، أنت تعلم ذلك بنفسك - قالت المرأة وهي تمسك كوروتكوف من يده. توقّف المصعد، بصق رجل يحمل حقيبة على الأرض، ثم أغلق الشبكة، وانطلق المصعد إلى الأسفل من جديد.

- اتركيني! - زعق كوروتكوف، وهو يخلص يده من المرأة، شتم وهرع ينزل السلم على قدميه. قطع ستة منعطفات مرمرية، وكاد في أثناء ذلك يقتل امرأة عجوز طويلة تزين شعرها بمشبك يجمعه إلى الخلف، رسمت إشارة الصليب على صدرها وهي ترتجف.

وجد نفسه أخيراً بجانب جدار زجاجي جديد ضخم، عُلّقت عليه في الأعلى لوحة فضية اللون كتب عليها باللون الأزرق: «المناوبات سيدات راقيات» وكُتِبَ في الأسفل بخط اليد على ورقة عادية: «الاستعلامات».

رعبٌ أسود سيطر على كوروتكوف. خلف الجدار الزجاجي عَبَرَ بصورة واضحة تماماً كلسونير، كلسونير نفسه، ذو اللحية المحلوقة، المحلوقة حتى زرقة الجلد، مرَّ قريباً جداً من كوروتكوف، لا تفصله عنه سوى طبقة الزجاج رمى كوروتكوف أفكاره وهواجسه كلها جانباً وحصر تفكيره بقبضة الباب النحاسية اللمّاعة، هزّها بعنف، ولكنها لم تستجب. صرَّ على أسنانه، وشدّها من جديد، دون جدوى، انتبه فجأة إلى بطاقة فوق القبضة كُتِبَ عليها عبارة تقول: «حول المبنى، من خلال المدخل السادس». ولحظتها لمح كلسونير من جديد، ثم رآه يختفي في فجوة سوداء خلف الزجاج نفسه.

- أين المدخل السادس؟ أين المدخل السادس؟! - نادى كوروتكوف أحداً ما بصوت ضعيف، لكن بعض العابرين تنحّوا عنه جانباً. انفتح باب صغير جانبه وخرج منه عجوز يلبس بلوزة خنق صوفية تلتمع بعض خيطانها، ونظارات زرقاء، ويحمل قائمة ورقية ضخمة. نظر إلى كوروتكوف من فوق نظارته، ابتسم، وعلّكَ شفتيه. تمتم:

- مــا بــك؟ لائب من جهة إلى أخــرى؟ والله إنك تفعل كل ذلك ســدىً. اسمع نصيحتي أنا العجوز، دعك من ذلك كله. إنني في جميع الأحوال قد شطبتك... ها... ها.

قال كوروتكوف مذعوراً:

- من أين شطبتني؟

ضحك العجوز بسرور وهو يقول:

- خي.. واضح من أين، من القوائم. بقلم رصاص.

شخطة، وكل شيء جاهز - خي خي...

- عذ...راً، من أين تعرفني؟

- خي... أنت مزوح فاسيلي بافلوفيتش.

قال كوروتكوف وهو يلمس جبينه الأملس البارد بيده:

- أنا فارفولومي، بتروفيتش.

غــادرت البسمة وجه العجــوز المخيف لدقيقة. أخذ يحدّق بالقائمــة، وبإصبعه الجافة ذات الإظفر الطويل شرع يتنقل بين السطور، ثم قال:

- لماذا تغالطني؟ هذا هو: كولوبوف ف. ب.

أجاب كوروتكوف على عجل:

- أنا كوروتكوف.

قال العجوز منزعجاً:

- وهــذا ما أقوله: كولوبكوف، وهــا هو كلسونير. نُقِل الاثنان معــاً، وحلّ مكان كلسونير- تشيكوشين.

صاح كوروتكوف من شدة سعادته وقد نسي نفسه:

- ماذا؟ رموا كلسونير؟!

- تماماً. لم يتمكن من الإدارة إلا يوماً واحداً وقذفوا به.

هتف كوروتكوف مبتهجاً:

- يــا إلهي قــد أُنقذت. قد أنقذت! ودون أن ينتبه لنفسه، شــدَّ على يد العجوز الهزيلة، ذات الأظافر الطويلة. ابتسم العجوز، وخلال لحظة خمدت سعادة كوروتكوف. شيء ما غريب... حقود لمع في الحفرتين الزرقاوين لعيني العجوز، وبدت ابتسامته غريبة جداً، عرّت لثة أسنانه الدقيقة. لكن كوروتكوف طرد لحظتها إحساسه السيئ، وقال مبدياً الاهتمام:

- هذا يعني أنّه عليَّ أن أذهب إلى مستودع أعواد الثقاب؟

أكد العجوز الكلام قائلاً:

- بالتأكيـد. كُتِب هنا: إلى مستودع أعواد الثقاب. اسمح لي بدفتر عملك(٢) فحسب سأكتب فيه ملاحظة بقلم الرصاص.

مدَّ كوروتكوف يده إلى جيبه مباشرة، فامتقع لونه. مدَّ يده إلى جيبه الآخر، زاد اصفرار وجهه. ضرب جيوب بنطاله بيديه، ثم ولول ولولةً مكتومة، وهرع يصعد السلم، ينظر بين رجليه، اصطدم بالمارة. انطلق كوروتكوف اليائس إلى أعلى السلم. أراد أن يدرك تلك الجميلة المزينة بالأحجار الملونة الثمينة ليسألها سؤالاً ما، وشاهد أن الجميلة تحولت إلى صبيٍّ مشوّهٍ أمخط.

اندفع كوروتكوف نحوه قائلاً:

- عزيزي! محفظتي الصفراء...

أجابه الصبي بغضب:

- غير صحيح، لم آخذها، إنهم يكذبون.

- ليس الأمر كذلك. أنا لست... لست أنت... إنما الوثائق.

عبس الصبي، وفجأة زمجر بصوتٍ عالٍ.

صاح كوروتكوف يائساً:

- آه... يا إلهي. وهبط مسرعاً إلى الأسفل نحو العجوز.

لكنه لم يعثر عليه في مكانه. اختفى. أسرع كوروتكوف إلى الباب الصغير، شدّ قبضته، تبيّن أنــه مقفل، بينما انبعثت رائحة رطوبة خفيفة مــن ذلك المكان المظلم أخذت الأفكار تعصف في رأس كوروتكوف مثل زوبعة، وقفزت فجأة واحدة منها:

«الترامــواي»، تذكّر بوضوح كيــف حسره شابان اثنان عند بــاب الترامواي، أحدهما كان نحيفاً له شارب أسود كأنه ملصوق على وجهه لصقاً.

- آخ مصيبة. حلّت علي مصيبة. أسوأ ما يمكن تصوره من مصائب.

هــرع إلى الشــارع، ركض حتى آخره. انعطف إلى شارع فرعــي، فوجد نفسه أمام مدخل بناية صغيرة، ذات تصميم معماري مزعج. شخص رماديٌ، أحول وعابس وقف هناك، كان ينظر جانباً، ليس إلى كوروتكوف، لكنه سأله:

- فيما تحشر نفسك؟

- أنا الرفيق كوروتكوف ف.ب. الذي سُرقت منه وثائقه قبل قليل. كل وثائقه. يستطيعون الآن

توقيفي وحجزي.

وبكل بساطة - وافقه الشخص الواقف تحت سقيفة المدخل.

- لذلك اسمح لي..

- دع كوروتكوف يأتي بنفسه إلى هنا.

- إنه أنا الرفيق كوروتكوف.

- أعطني بطاقة عملك.

أنَّ كوروتكوف قائلاً:

- سرقوها مني لتوّهم، سرقها أيها الرفيق شاب له شارب.

- لـه شارب؟ إنــه كولوبكوف. بالتأكيد إنه هو. إنه يعمل في حيّنا بصورة خاصة، عليك الآن أن تبحث عنه في أماكن شرب الشاي!

بكى كوروتكوف قائلاً:

- لا أستطيــع أيها الرفيق، أحتاج الآن أن أصـــل إلى مستودع أعواد الثقاب، إلى كلسونير اسمح لي من فضلك...

- أعطني ما يثبت أنها سُرقت منك.

- ممّن الإثبات؟

- من مسؤول المبنى السكني!

غـــادر كوروتكوف مدخل المبنى ومشى في الشارع. فكّـــرَ: «إلى مستودع أعواد الثقاب، أم إلـــى مسؤول المبنى السكني؟ لكن مســـؤول المبنى لا يستقبل المراجعين إلا صباحاً، عليّ إذن أن أذهب إلى المستودع».

دقّـــت الساعة في هذه اللحظـــة أربع مَرّات من فوق برجها الأشقـــر، وأخذَ الناس يخرجون مـــن الأبواب حاملين حقائبهم. كانت علامات الغسق قد بدأت تخيّم، وتساقطَ ثلجٌ رطب نادر من السماء. فكّر كوروتكوف:

«تأخر الوقت، يجب عليّ الذهاب إلى البيت».

-٦-

الليلة الأولى

تدلّت رسالة بيضاء من أذن قفل الباب. قرأها كوروتكوف وسط الظلمة.

«جاري العزيز!

أنا مسافرة إلى أمي في زفينيغورد. تركت لك النبيذ هدية، اشربه بالصحة والعافية. لم يرغب أحد بشرائه. الزجاجات في زاوية الممر. جارتك أ.. بايكوفا».

ابتسم كوروتكوف ابتسامة صفراء. أدار مفتاحه فقعقع القفل، وخلال عشرين رحلة ذهاباً وإياباً تمكّن من نقل زجاجات النبيذ كلها من زاوية الممر إلى غرفته. أضاء المصباح، ارتمى على السرير بكامل لباسه: المعطف والقبعة الفرو، بقي على حاله تلك نصف ساعة تقريباً، مسلوب العقل، يحدق في صورة كرومفيل الذائبة في غبش الظلمة الكثيف، ثم قفز عن سريره فجأة ودخل في نوبة غضبٍ عنيفة. رمى قبعته بعنف في الزاوية. ألقى علب أعواد الثقاب كلّها على الأرض وراح يدوسها بقدميه.

- هكذا... هكذا... هكذا - عوى كوروتكوف، ومضى يرفس علب الأعواد الشيطانية التي أصدرت خشخشة، فيما كان يحلم بصورة غير واضحة أنه رفس رأس كلسونير.

وبينما هو يتصوّر ذلك الرأس البيضوي، بزغت فجأة فكرة مؤرقة عن الوجه المحلوق، والوجه ذي اللحية، توقف كوروتكوف عن الرفس:

- اسمحوا لي... - تمتم وهو يمسح عينيه بيده.

- كيف يكون ذلك؟ ما هذا؟

لماذا أقف هكذا الآن وأتصرف ببلاهة، في الوقت الذي يبدو فيه الأمر مفزعاً. أليس هو شخصين اثنين في الواقع؟!

زحف الخوف من خلال النوافذ السوداء إلى غرفته، حاول كوروتكوف ألّا ينظر إليها، سترها بالستائر. لكن شيئاً لم يتغيّر. وجه مزدوج، مَرّة بلحية، ومَرّة محلوقاً، راح الرأس يظهر بين الفينة والأخرى من الزوايا محرِّكاً عينيه الخضراوين.

أخيراً لم يستطع كوروتكوف الاحتمال، شعر أن دماغه سينفجر من شدة التوتر، فبدأ البكاء الهادئ.

بعد أن انتهى من ذلك، ارتاح قليلاً، أكل البطاطا الملساء، التي كان قد طبخها البارحة ثمَّ عاد من جديد إلى الأحجية اللعينة. وبكى قليلاً، ثم بدأ يتمتم:

– اسمحوا لي... لماذا أبكي، بينما لديّ نبيذ؟

جرعَ نصف كأس كبيرة دفعة واحدة. بدأ تأثير السائل الحلو بعد خمس دقائق، وراح صداع مؤلم في صدغه الأيسر يزعجه. رغب أن يشرب ماء بسبب حرقه أحسها في معدته وشعور بالإقياء، فجرع ثلاث كؤوس كبيرة، ونسي تماماً كلسونير بفعل الألم في صدغه. نزع عنه ثيابه الخارجية وهو يئن. بتكاسل أغمض عينيه وانطرح على السرير. «آه لو كان لدي دواء مسكّن للألم...».

تمتم بالعبارة طويلاً حتى ناء عليه نومٌ كدر.

-٧-

الآرغن والقط

فـــي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي غلى كوروتكـــوف الشاي بسرعة، وشرب ربع فنجان من دون شهية. خرج من غرفته وهو يشعر أن أمامه يوماً صعباً ومزعجاً.

مشى في الضباب، فوق الإسفلت الرطب لفناء المبنى.

على باب البناية الجانبية كان قد كتب: «مسؤول السكن»[٣]. كان كوروتكوف يمدّ يدهُ ليضغط جرســـ البـــاب، حين وقعت عيناه على لافتـــة تقول: «لن تُعطَى الشهـــادات والوثائق بسبب وفاة المسؤول».

صاح كوروتكوف بضجر:

- آه يا إلهي، ما سوء الحظ هذا، الذي يصادفني في كل خطوة. ثم أضاف:

- تؤجّـــل الوثائق الآن، عليّ في هذه اللحظة أن أسارع إلى مستودع أعواد الثقاب، يجب أن أفهم ما يحدث. ربما يكون تشيكوشين قد عاد إلى العمل.

ســـار مشياً على قدميه. فنقوده سرقت البارحة. وصـــل كوروتكوف إلى المستودع، بعد أن عبر البهو اتجه نحو الديوان، توقف عند عتبته فاتحاً فمه، لم يكن في القاعة الزجاجية أحد ممن يعرفهم: لا دروزدن ولا آنّا يفغرافوفنا. باختصار: لا أحد منهم. خلف الطاولات - كان هناك من يذكِّر ليس بالغربان التـــي تقف على شريط الكهرباء، بل بصقور ألكسي ميخائيلوفيتش الثلاثة. كانوا ثلاثـــة أشخاص متشابهين تماماً. ذقونهم حليقة جيـــداً. شعورهم شقراء، يرتدون بذلات رمادية فاتحة ومرقّطة. وكان هناك امرأة، شابة، لها عينان حالمتان، وقرط ماسي في أذنيها. لم يعر الشبان كوروتكوف أدنى اهتمام، وتابعت أقلامهم الصرير في دفاتر الحسابات اليومية، أما المرأة فقـــد غمزته بعينها، وعندما ابتسم ابتسامة حائرة رداً على غمزتها، ابتسمت له ابتسامةً متعجرفـــة وأشاحت بوجهها. «غريب» فكر كوروتكوف، وتعثّـــر بالعتبة، وهو يحاول الخروج من

الديوان. تردد عند باب غرفته، ثم تنهّد عندما نظر إلى اللوحة العزيزة القديمة: «أمين السر»، فتح البـــاب، ودخل. انطفأ النور في عيني كوروتكوف. واهتزت الأرض قليلاً تحت رجليه، خلف طاولة كوروتكـــوف جلس كلسونير نفسه، مباعداً بين يديه، ويكتب بشكل جنوني بالريشة، شعر لحيته المتغضّن اللامع غطّى صدره. توقف تنفس كوروتكوف بينما كان يحدّق في الصلعة اللماعة فوق الجوخ الأخضر. كلسونير كان أول من خرق الصمت عندما قال باحترامٍ وبصوتٍ ناشزٍ قليلاً:

– ماذا تريد أيها الرفيق؟

لعـــق كوروتكوف شفتيه بتشنج، ومـــلأ صدره الضيق بمتر مكعب من الهواء، ثم قال بصوت يكاد لا يسمع:

– أم.. أنا أيها الرفيق أمين السر هنا... أيّ... نعم، ألا تذكر القرار.

الدهشة غيرت فجأة الجزء الأعلى من وجه كلسونير. ارتفع حاجباه الأشقران، وتحوّل جبينه إلى هارمونيكا(٤). ثم أجاب بلباقة:

– عذراً، ولكن أمين السر هنا، هو أنا.

شلَّ كوروتكوف بُكمٌ مؤقت. حتى إذا تحرر لسانه منه قال بضع كلمات:

– كيف ذلك؟ يوم أمس. أقصد، آه، نعم... عفواً من فضلك. على كل حال أنا أخطأت. من فضلك.

خرج من الغرفة ماشياً إلى الخلف، وقال لنفسه بصوت مبحوح، وقد أصبح في الممر:

– تذكّر يا كوروتكوف ما هو تاريخ اليوم؟ ثم أجاب بنفسه:

– الثلاثاء، أعني الجمعة، ألف وتسعمئة..

استدار فاشتعل أمامه مباشرة على كرةٍ إنسانية وعظام فيل مصباحاً، مرَّ وحجَب العالم كله وجه كلسونير الحليق!

– جيد – دوى صوت ارتطام قِدرٍ،– إنني انتظرك. ممتاز. سعيد بالتعرف إليك.

بهـــذه الكلمات اقترب من كوروتكوف، وشدّ على يده بصـــورة جعلته يقف على رجل واحدة كاللقلق، ثم قال بسرعة كلاماً هاماً متقطعاً:

– أنـــا عيّنت الكادر الجديد، ثلاثة هناك –وأشـــار بيده نحو الديوان– وطبعاً مانيشكا. وأنت مساعـــداً لي. وكلسونير أميناً للسر. طـــردت القدماء كلهم، وذلك الأبله بانتيليمون، حصلتُ على معلومات تقول إنه كان خادماً في «الوردة الألبيّة» أنا الآن ذاهب إلى القسم، أما أنت فاكتب مع

كلسونير ملاحظاتكما فيما يخص الموظفين السابقين، ولا سيّما ما يتعلق بـ...ما اسمه؟!... نعم كوروتكوف. بالمناسبة أنت تشبهه قليلاً.. ذلك السافل، لكن عينه هو مضروبة!

قال كوروتكوف وهو يتمايل، وحنكه السفلي متدلٍ:

- أنا، لا، أنا لست سافلاً. فقد سرقوا وثائقي كلها.

صاح كلسونير:

-كلها؟ كلام فارغ. هذا أفضل.

تشبث بيد كوروتكوف، الذي يتنفس بصعوبة، وقاده في الممر، أدخله إلى مكتب معروف، ودفعه إلى كرسي جلدي منفوخ، بينما جلس هو خلف طاولة المكتب. كان كوروتكوف ما يزال يشعر بهزات أرضية غريبة تحت رجليه. شد أعصابه وعضلاته وأغمض عينيه، ثم تمتم قائلاً: «العشرون من الشهر كان يوم الإثنين، هذا يعني أن الثلاثاء واحد وعشرون. لا. ماذا أصابني؟ العام الواحد والعشرون، الرقم الصادر ١٥٠، مكان للتوقيع، شخطة، فارفولومي كوروتكوف، هذا يعني أنا، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت، الأحد، الإثنين، والأحد بحرف أ، مثل الأربعاء، والإثنين مثل...» خشَّ القلم على الورقة التي يكتب عليها كلسونير بشدة، ثم طبع الختم بعنف عليها. وقدّمها لكوروتكوف، في اللحظة نفسها رنَّ جرس الهاتف بحدة، رفع كلسونير السماعة وصرخ فيها:

- أيوا، نعم، نعم، سآتي حالاً.

قفز نحو المشجب، خطف القبعة عنه، وغطّى صلعته، واختفى خلف الأبواب وهو يردد كلمات الوداع:

- انتظرني عند كلسونير.

كل شيء أصبح ضبابيّاً في عيني كوروتكوف عندما قرأ ما كتب على الورقة مشفوعاً بالختم:

«حامل هذه الوثيقة، هو بالفعل مساعدي الرفيق فاسيلي بافلوفيتش كولوبكوف، وهذه الوثيقة موثقة أصولاً.

كلسونير».

- أوو. وو - أَنَّ كوروتكوف. بينما سقطت الورقة والقبّعة من يديه - ما الذي يجري؟!! في اللحظة نفسها صرَّ الباب بصورة مزعجة، وعاد كلسونير ذو اللحية هذه المرة.

- هل هرب كلسونير؟! - وجّه سؤاله بنعومة ورقة إلى كوروتكوف، الذي أظلمت الدنيا من حوله.

- آ آخ خ خ - زمجـر كوروتكوف، غير قـادر على تحمل عذابه، ودون أن ينتبه إلى ما يفعله قفـز باتجاه كلسونير وهو يصرُّ علـى أسنانه، بدا الهلع فوراً على وجه كلسونير قبل أن يتحوّل إلـى اللون الأصفر، وارتمى إلى الخلف نحو البـاب، خرج وأغلقه بقوة، ثم سقط على أريكة في الممر، لكنه نهض بسرعة وركض صارخاً:

- أيها المراسل، أيها المراسل، ساعدني!

استفاق كوروتكوف وعدا خلف الرجل مسرعاً وهو يناديه:

- قف... قف... أرجوك يا رفيق...

شيء ما هدر في الديوان، وقفز الصقور الثلاثة، وكأنهم تلقوا أمراً ما معاً.

خفقت عينا المرأة الحالمتان أمام الآلة الكاتبة، وصرخت بصوت هستيري:

- سوف يطلقون الرصاص... سوف يطلقون الرصاص!

كلسونيـر قفز من البهـو إلى الردهة، ومنها إلى مكان الأرغـن الأول، وحار للحظة إلى أين يفـر؟ ثم اندفع مجتازاً الزاوية، واختفى خلف الأرغن انطلق كوروتكوف خلفه، فزلت قدمه، وكان مـن الممكن أن يحطم رأسه على الدرابزين لولا القبضة السوداء الضخمة الملتوية، المتدلية من الجانـب الأصفر، التـي أمسكت معطف كوروتكوف، ثم أفلتت بعد ذلـك القماش الصوفي وهو يصدر أنيناً هادئاً، ليجد كوروتكوف نفسه جالساً بهدوء على الأرض الباردة.

انطبق باب المدخل الجانبي خلف الأورغ وراء كلسونير.

- يـا الله... - بدأ كوروتكوف، ولكنـه لم يكمل عبارته فقد تعالى صوت غريب في الصندوق الضخـم، المثبتـة فيه الأنابيب النحاسيـة، لكأن كأساً زجاجية قد انكسـرت، ثم انبعث صوت أكورديـون عال، بعث الدم في الأوتـار، وعزف الصندوق الأصفر المفـرغ الراكد ذو الأشرعة الثلاثة صوتاً:

دوى، هدر الحريق الموسكوفي...

ظهر وجه بانتيليمون الشاحب من مربع الباب الأسود، بشكل غير متوقع. ثانية، ورافقه تحول غريـب. التمعت عيناه بنظرات النصـر، استقام، ومرَّر يده اليمنى من خلال اليسرى وكأنه يلقي عليها منديلاً ورقياً غير مرئي، اندفع من مكانه وهبط على الدرج بشكل جانبي منحرف لافاً يديه وكأنه يحمل طبقاً عليه فناجين شاي:

الدخان انبسط فوق النهر...

صاح كوروتكوف من الفزع:

- ما الذي فعلته؟!

سيارة سارت باستقامـــة، مخترقة الأمواج الراكدة الأولى، زئير ورنين لآلاف الرؤوس ملأت القاعات الفارغة لمستودع أعواد الثقاب.

أما على جدران بوابات الكرملين...

اخترق زامور سيارةٍ العواء والقصف وأصوات الأجراس، ولحظتها عاد كلسونير من المدخل الرئيسي للبناء - كلسونيـــر الحليق المتوعد الرهيب، وفي إشراقةٍ زرقاء حاقدة صعد بسلاسة السلـــم. ارتجــف الشعر على بدن كوروتكـــوف وشرع يصعد الدرج المتعـــرج من خلال الباب الجانبـــي الواقع خلف الأرغن، إلى الفناء المغطى بالحصى، ثم إلى الشارع، عدا مسرعاً وكأنه يشارك في سباق، بينما كانت تتناهى إلى مسامعه زمجرة مكتومة «الوردة الألبيّة».

كان يقف بسترته الرمادية(٥)...

عند زاوية الطريق اقتلع الحوذي الفرس الهزيلة من مكانها وهو يلوح بسوطه.

زعق كوروتكوف مضطرباً:

- يا إلهي! يا إلهي! هذا هو ثانية، ما الذي يجري؟!

كان كلسونير ذو اللحية قد طلع من تحت الجسر وقفز إلى العربة، وبدأ يضرب الحوذي في ظهره صارخاً به بصوته الحاد:

- اِلحق به، اِلحق بهذا السافل!

اندفعـــت الفرس الهزيلـــة، وراحت تركل الأرض بقدميها، ثم - تحـــت تأثير ضربات السوط الحارقة- طارت مسعورة مالئة الشارع بقعقعة العربة.

مـــن خلال دموعه المنهمرة شاهد كوروتكوف كيف طارت قبعة الحوذي الملونة، ومن تحتها تطايـــرت في اتجاهات مختلفة أوراق العملة المجعـــدة. ركض أولاد خلف النقود وهم يصفرون، استدار الحوذي، شدَّ العنان بيأس، لكن كلسونير ضربه بقبضته على ظهره، وزعق به:

- تحرك.. انطلق.. سأدفع لك.

صاح الحوذي فاقداً الأمل:

- آه... صحتك بالدنيا، هل يستحق ذلك الموت؟

ثم أطلق العنان للفرس الهزيلة، لتعدو بسرعة السهم، واختفى كل شيء خلف الزاوية.

باكياً نظر كوروتكوف إلى السماء الرمادية التي تسير فوق رأسه بسرعة، ترنّح، صاح متألماً:

- حسبي. لن أدع الأمر يمر هكذا! يجب أن أستوضح وأفهم.

قفز إلى عربة الترامواي وتمسك بقبضة الباب، راحت القبضة تؤرجحه خمس دقائق، ثم رمته عند المبنى الأخضر ذي الطبقات التسع، دخل كوروتكوف البهو ثم أدخل رأسه في الحاجز الخشبي ذي النوافذ الأربعة، وسأل «لوحاً» ضخماً أزرق اللون:

- أين مكتب الشكاوي أيها الرفيق؟

أجابه «اللوح» بصوت نسائي:

- الطابق الثامن، الممر التاسع، الشقة ٤١، غرفة رقم ٣٠٢.

أخذ كوروتكوف يتمتم وهو يصعد مسرعاً السلم العريض:

- الثامن، التاسع، الشقة٤١ ، ثلاثمئة... ثلاثمئة... كم الرقم؟ يا إلهي ٣٠٢

آه نعم، الشقة٤٠

مرَّ أمام ثلاثة أبواب في الطابق الثامن. شاهد على الباب الرابع رقماً أسود «٤٠».

الباب أفضى إلى قاعة فسيحة ذات لونين، تتوسطها أعمدة، في زوايا القاعة توضّعت لفافات كبيرة من الورق، وافترشت أرضها قصاصات من الورق المستعمل من قبل، بدت من بعيد طاولة صغيرة، عليها آلة كاتبة، وخلفها تجلس امرأة ذهبية، تدندن أغنية ما، وتسند عنقها بقبضة يدها. تلفّت كوروتكوف مرتبكاً، وشاهد كيف نزلت عن خشبة المسرح شخصية رجل ضخم، خطت بصعوبة كانت تلبس قميصاً أوكرانياً أبيض طويلاً، على وجه الشخصية المرمري تدلّى شاربان شائبان. اقترب الرجل من كوروتكوف مبتسماً ابتسامة لطيفة، غير عادية! ابتسامة لا حياة فيها، وصافحه بلطف. ثم تمتم وهو يطقطق بكعبي حذائه:

- يان سوبسكي.

أجاب كوروتكوف دهشاً:

- غير معقول!

ابتسم الرجل بغبطة، ثم تكلّم بلكنة:

- تصوّر: كثيرون يدهشون، لكن لا تفكر أيها الرفيق، أن لي أي علاقة مع قطاع الطرق

هــؤلاء. آه لا. مجــرّد تشابه مُرّ، لا أكثر ولا أقل. وقد تقدمــت بطلب لتثبيت اسم عائلتي الجديد: سوتسفوسكي. إنّه اسم أكثر جمالاً، وأقل خطورة، على كل حال إنْ كان ذلك لا يسركم ـــ ولوى فمه مغموماً ثم تابع– فأنا لا أجبركم. نحن دائماً نجد الأشخاص. لأنهم يبحثون عنّا.

– عفــواً، لا سمح الله – صاح كوروتكوف متألماً، ومتوقعاً أن تبدأ هنا، قصة غريبة مثل كل مرّة. تلفّتَ حوله، تلفت مطارد خوفاً من أن يبزغ الوجه الحليق، وقشرة الصلعة من مكان ما، ثم أضاف بلغة ركيكة: أنا سعيد جداً، نعم جداً...

بــدت الحمرة رقشاً على وجه الإنسان المرمــري، ضغط بلطف على يد كوروتكوف. واقتاده إلى الطاولة وهو يقول:

– وأنــا سعيد جداً، لكن المصيبة هي أن لا مكان أستطيع أن أجلسك فيه. فقد وضعونا في زريبة، بغض النظر عن أهميتنا (وأشار الرجل بيده إلى لفافات الورق)... مكائد... لكن لا تشغل بالك نحن نتدبر أمرنا.. همم... ما الجديد الذي ستسرّنا به؟ – سأل الرجل كوروتكوف الشاحب برقة – آه، نعم إنني مخطئ. مخطئ ألف مرة، اسمح لي أن أعرّفك – وأشار بيده البيضاء بلطف نحو الآلة الكاتبة – إنها غيزيتيا بوتابوفنا بيرسيمفانس.

صافحــت المرأة مباشرة بيدهــا الباردة يد كوروتكوف، ورمته بنظــرة فاترة، تابع صاحب المكان بعذوبة:

– وهكــذا، بماذا ستسروننا؟ مقالات هجائية؟ تحقيقات صحفية؟ – أغمض عينيه. ثم تابع

– لا تتصور كم نحن بحاجة لهذه المقالات.

– «أيتها الملائكة السماوية.. ما الذي يحدث؟».

– فكّر كوروتكوف بضبابيّة ثم تكلّم بتشنّج يعكس حالته النفسية:

– قد حصل لي شيء مخيف، هو... إنني... لا أفهم، أرجوك لا تفكّر – لأجل الله أن ذلك هلوسة.. أم.. آآآ (حاول كوروتكوف أن يتصنع الابتسامة، لكنه لم يفلح) إنه حي. إنني أؤكد لكم، لكنني لا أفهم شيئــاً، أحياناً أشاهده بلحية، وبعد دقيقة من دون لحية. لا أفهم مطلقاً.. وهو يغير صوته، وعدا عن كل ذلك، سرقوا وثائقي كلّها بالكامل، ومسؤول البناية لسوء حظي مات. إن كلسونير هذا...

صاح سوبينسكي:

– هذا ما كنت أتوقعه، إنهم هم أنفسهم؟

قالت المرأة:

- آه يا إلهي... طبعاً، آه، هؤلاء الكلسونيريون...

قاطعها سوبينسكي متوتراً:

- أتعرف أنني أجلس على الأرض بسببهم. تصوّر. ما الذي يفهمه هو بالصحافة؟

- وأمسك بعروة كوروتكوف وتابع قائلاً- كن عطوفاً وقل لي ما الذي يفهمه في الصحافة؟ منذ يومين قَدِمَ إلـى هنا، وضايقني كثيراً، فلم أجد بدّاً من الذهاب إلى فيودورفاسيليفيتش ولك أن تتصور مقدار سعادتي، فقد عزله أخيراً. وضعتُ المسألة أمامه بحدّة:

إمـا أنا، وإمّا هو. فنقلـوه إلى مستودع أعواد الثقاب، أو... الشيطـان وحده يعلم إلى أين أيضـاً. لتفح منه الآن رائحـة أعواد الثقاب، لكن الأثاث... الأثاث، فقـد تمكن من نقله إلى ذلك المكتـب اللعين قبل أن يغادر، هل ترى ذلك صحيحاً؟ أخبرني من فضلك عن أي شيء سأكتب؟ وأين ستكتب أنت؟ أنا لا أشك أنك ستصبح صديقنا العزيز (وضمّ كوروتكوف بيديه).

أثـاث الأطلس الممتاز لوي كاتـورز، نقله هذا الذيل بصورة غير شرعيـة إلى ذلك المكتب اللعين، والذي سيقفلونه غداً على أي حال،... إلى أمّ الشيطان. سأل كوروتكوف مبحوحاً:

- عن أي مكتب تتحدث؟

قال المضيف متكدّراً:

- آه، نعم.. الشكايات أو كيف يسمّونها الملاحظات؟!

صاح كوروتكوف:

- كيف؟ كيف؟ أين هو؟

- هناك - أجاب متعجباً وخبط بيده على الأرض.

نظر كوروتكوف لآخر مرة نظـرة جنونية إلى القميص الأوكراني الأبيض، وبعد لحظات كان في الممر. فكّر قليلاً وذهب باتجاه اليسار باحثاً عن الدرج الذي يقود إلى الأسفل.

ركض خمس دقائق، متابعاً منعطفات الممر المتقلبة، لكنه وجد نفسه يعود إلى المكان نفسه الذي انطلق منه: الباب رقم /٤٠/.

- يا للشيطان - تأوه كوروتكوف ووقف حائراً في مكانه، ثم ركض نحو اليمين، وبعد خمس دقائـق عاد من جديد إلى الباب ٤٠، فتح الباب وعدا داخل القاعة، فانتبه أنها خالية، كانت الآلة الكاتبة فحسب تبتسم له دون حراك مبدية أسنانها البيضاء على الطاولة، ركض كوروتكوف بين الأعمدة، شاهد سوبينسكي، كان واقفاً على المنصة بوجه يبدو عليه الانزعاج.

– أعتذر منك لأنني لم أودعك.. – بدأ كوروتكوف كلامه هكذا ثم خرِس تماماً، كان سوبنسكي واقفـاً هناك من دون أنــف وأذن، ويده اليسرى مكسورة، ثم شــرع يمشي ببرود وتمهل. هرع كوروتكوف من جديد إلى الممر. انفتح باب لم يكن مرئياً من قبل، وخرجت منه عجوز بنية جعد الزمن وجهها، وذات كرش، تحمل سطلين فارغين على ذراع معدني.

– أيتها المرأة... أيتها المرأة – صاح كوروتكوف مضطرباً – أين المكتب؟

– لا أعلم يا أبتاه، أيها المُطعِم ــــ أجابت العجوز.

– لا تركض يا عزيزي، لا يمكنك أن تجده بمفردك. هل يُعقل: عشرة طوابق!

– أيتها الحمقاء – صرَّ على أسنانه وزأر، ثم اندفع من خلال الباب الذي خرجت منه، فانغلق الباب خلفه. ووجد كوروتكوف نفسه في مكان نصفه مضاء، مغلق تماماً دون مخرج. أخذ يرمي بنفسه على الجدران، ويخرمش بأظافره مثل إنسان طُمِر في منجم، ثم وجد أخيراً بقعة بيضاء، اخترقهـا فأفضت إلى سلم، ركض نحو الأسفل. سمع وقع خطــوات صاعدة نحوه، قلقٌ كئيبٌ أخذ يضغط على قلبه، وشعر أنه يوشك على التوقف، لحظة وتراءت له قبعة لامعة، ولاحت أمامه بطانية رصاصية ولحية طويلة.

انتصــب كوروتكوف بقامته الطويلة وأمسك بيده الدرابزين. التقت نظراتهما في وقتٍ واحد فصــرخ الاثنان خوفاً وهلعاً بصوت حاد. تراجع كوروتكــوف بضع خطوات إلى أعلى، وتقهقر كلسونير بضع درجات إلى الأسفل، وقد سيطر عليه فزع شديد. صاح كوروتكوف مبحوحاً:

– قف، دقيقة، وضّح لي فحسب...

– النجدة – زمجر كلسونير مبدلاً صوته الرفيع، بصوته الأول النحاسي العميق، تعثر وسقط على قفاه،السقطة لم تمرّ سُدىً، فقد تحول إلى قط أسود بعينين فسفوريّتين، ثم طار مسرعاً إلى الخلف، اجتاز مطلع الدرج مندفعاً بخفة.

التصــق بمحطبٍ، وقفز إلى أسفل النافذة، ثم اختفــى داخل زجاج محطم وشبكة عنكبوت. للحظــة غطت غشــاوة بيضاء دماغ كوروتكوف، ثم انقشعت بسرعــة، وسيطر عليه وضوحٌ غير عادي، فقال بصوت خافت، مبتسماً بهدوء:

– الآن أصبح كل شيء واضحاً، آها... فهمت. هكذا إذن. قطط!

واضح تماماً قطط.

بدأت ضحكاته تعلو شيئاً فشيئاً، حتى امتلأ بيت السلّم بصدى عدوٍ.

-٧-

الليلة الثانية

في غبش المساء شرب الرفيق كوروتكوف، وهو يجلس على السرير ذي الشرشف الخفيف الـــذي يغطيـــه، ثلاث زجاجات من النبيذ، كــي ينسى ويهدِّئ من روعـــه. كان رأسه كله في هذه اللحظـــات يؤلمه: صدغه الأيســـر، والأيمن، وقفا رأسه، حتى جفناهُ كانـــا يؤلمانه. ثمالة خفيفة أحسها تصعد من قعر معدته، وتتحرك في جوفه أمواجاً، وتقيَّأ الرفيق كوروتكوف مرتين.

تمتم بهدوء وهو يطأطئ رأسه إلى الأسفل:

– سأتبـــع مـــا يلي: لن أحاول غداً أن ألتقيه. لكن بما إنـــه يتحرك في كل مكان، فسأنتظره.. سأنتظره: في الزقاق، أو في الطريق المسدود، فيمر بجانبي، وإذا حاول أن يلحق بي فسأهرب أمامـــه، وفـــي هذه الحالة قد يتركني وشأني. ويقول لي: اذهـــب وشأنك. وأنا لا أريد العودة إلى مستـــودع علب الكبريـــت. بأمان الله اعمل بنفســـك، مديراً وأميناً للسر، ولا أريـــد أيضاً أجرة الترامـــواي، سأتدبر أمري من دونهـــا أريد منك فحسب أن تتركني وشأني، من فضلك. إنْ كنت قطـــاً أو لم تكن، بلحية أو من دون لحية، أنت بحالك وأنا بحالي. سأجد مكاناً آخر للعمل، أخدم فيه بهدوء وسلام. أنا لن أتعرض لأحد وأنت كذلك. لن أقدِّم شكوى ضدك، وغداً سأسوي وضع وثائقي... وكفى.

بـــدأت تسمع دقات ساعة جداريـــة، بعيدة وخافتة... بام... بام. اعتقد كوروتكوف أنها ساعة عائلـــة بيستروخين، أخذ يعدُّ وراءها: العاشـــرة، الحادية عشرة.. منتصف الليل، الثالثة عشرة، الرابعة عشرة، الخامسة عشرة... أربعون!!

– أربعيـــن مرة دقت الساعة – ضحك كوروتكوف بألم، ثـــم بكى من جديد. ثم أخذ يتشنج، ويتقيأ بصعوبة، بسبب النبيذ الكنائسي.

– آه إنه ثقيل. نبيذ قوي – قال كوروتكوف. ووضع رأسه على المخدة وهو يئن. مرت ساعتان من الزمن. أنار المصباح الذي لم يطفأ وجهه الأصفر، وشعره الأشعث... على المخدة.

-٨-

رعب الآلات الكاتبة

استقبـــل الرفيق كوروتكوف اليوم الخريفي التالي بغموض وغرابة. صعد الدرج إلى الطابق الثامن متلفتاً حوله ومرعوباً. استدار جُزافاً إلى اليمين وارتعش سروراً، حين شاهد يداً مرسومة علـــى الجدار تشير إلى لوحة كتب عليها: «الغرف من ٣٠٢ إلـــى ٣٤٩». ومسترشداً بإصبع يد النجـــاة وصل إلى الباب الذي كتب عليه: «٣٠٢ـــــ مكتب الشكاوي» مد رأسه ونظر بحذر خلف الباب، كي لا يصطدم بمن لا يحبّذ رؤيته.

دخل كوروتكوف من الباب فوجد نفسه أمام مجموعة من النساء يجلسن خلف الآلات الكاتبة. حـــارَ قليلاً، ثم اقترب من المرأة التي تجلس فـــي طرف القاعة، كانت ذات سُمرة متألقة، انحنى نحوهـــا وهمَّ أن يقـــول شيئاً لكن صاحبة الشعر الأسود قاطعته فجـــأة. توجّهت نظرات النساء جميعاً صوب كوروتكوف.

ـــــ لنخرج إلى الممر – قالت المرأة المتألقة بحدّة، وهي تسوّي شعرها بتشنّج.

«يا إلهي، ماذا أيضاً، ماذا...»، بكآبة دارت هذه الفكرة في رأس كوروتكوف تنفّس بصعوبة، وخَرجَ طائعاً، فأخذت النسوة الستة الباقيات يتهامسن بقلق.

أخرجت ذات الشعر الأسود كوروتكوف إلى الممر الخالي، شبه المظلم وقالت:

– أنـــت فضيـــع... بسببك لم أنم طيلة أمســـ، وقرّرت أن يكون الأمر كمـــا ترغب، سأسلمك نفسي.

نظر كوروتكـــوف إلى السمراء، التي تنبعث منها رائحة السوسن بعينين جاحظتين تحشرج صوتـــه، ولم يقل شيئـــاً، رمت سوداء الشعر رأسها إلى الخلـــف، وكشّرت عن أسنانها بعذاب. خطفت يدي كوروتكوف، شدته إلى جسدها، وهمست قائلة:

– لماذا أنت صامت أيها الغاوي؟ قد فتنتني بشجاعتك يا ثعباني. قبّلني، قبّلني بسرعة، قبل أن يأتي أحد من لجنة الرقابة.

طار صوت غريب من فم كوروتكوف. تمايل، وشعر بمذاق حلو وطري على شفتيه جحظت عيناه:

– سأسلمك نفسي– همست قائلة، وقد لفحت أنفاسها شفتي كوروتكوف.

أجابها مبحوحاً:

– لا أحتاج لذلك. فقد سرقوا وثائقي.

علا صوت من الخلف فجأة:

– هكذا.. إذن.

التفت كوروتكوف فشاهد العجوز الأصلع.

– آ آخ– صرخت ذات الشعر الأسود، وغطت وجهها بيديها، ثم دخلت الباب مسرعةً.

قال العجوز:

– آو، جميل. لا أذهب إلى مكان إلا وأجدك فيه سيد كوروتكوف. كفى بالله عليك. ماذا هناك: أن تقبل أو لا تقبل؟!، فلتقبل إذن مهمة السفر. فقد أعطوني أنا العجوز مهمة مشابهة، ويجب أن أسافــر، هذا كل ما في الأمر. قال كلماتــه تلك ووجه راحته الجافة ذات الأصابع الممدودة نحو كوروتكوف، ثم تابع بينما التمع وجهه بغضب:

– سأقــدّم شكوى ضـــدك. نعم اغتصبت ثلاث فتيــات في المكتب الرئيســي، والآن تحاول الوصول إلى المكاتب الفرعية؟ إن ملائكتهن يبكين الآن، وسيّان عندك على ما يبدو؟ إنهن يحترقن الآن، الفتيات المسكينات. لن يكون بإمكانك أن تعيد شرف العذارى المهدور لهنّ. لا يمكنك إعادته فقد حدث ما حدث.

وأخرج العجوز منديلاً كبيراً، مزيناً بورود برتقالية، بكى، وتمخط، ثم تابع:

– أتريد أخذ الفتيات الباقيات من يد العجوز يا سيد كولبوكوف؟

ليكــن... ارتجف العجوز، وبكى بصوت عالٍ، وسقطــت حقيبته على الأرض لكنّه تابع كلامه – خذهــن كلهن، دع العجوز غيــر المتحزب والعاطفي يموت جوعاً دعه... إنها الطريق التي يهلك بهــا الكلــب العجوز. لكن تذكّر يا سيد كولبوكوف – وهنا أصبــح صوت العجوز نبويّاً، متوعّداً وراح يلــوّح بقبضتي يديه – إن هذه النقــود لن تعود عليك بالنفع، إنها نقود شيطانية. ستصبح مثل الخازوق في حنجرتك – وتعالى نشيج العجوز.

تملّكت الهستيريا كوروتكوف، وراح يركل الأرض بشكل مفاجئ غير متوقع، ثم صاح بصوت حاد، دوّى مريضاً في الاتجاهات كلها:

– فلتذهـــب إلى الجحيم. أنا لست كولوبكوف. اتركني وشأني. لست كولوبكوف. لن أسافر. لن أسافر. وبدأ يمزّق قبة قميصه.

صمت العجوز مباشرة، وأخذ يرتجفُ من الفزع. نعق الباب:

– الآتي.

صمت كوروتكوف وانسل داخلاً، اتجه نحو اليسار، مرّ أمام ضاربات الآلات الكاتبة، ووجد نفسه أمام شاب أشقر طويل وأنيق، يلبس بِزّةَ زرقاء. هزَّ الأشقر رأسه لكوروتكوف ثم قال:

– اختصر أيها الرفيق. مرة واحدة. لحسابين. إلى مدينة بولتافا أو إلى إيركوتسك؟

– سرقوا وثائقي – صاح كوروتكوف المنهك بصوت وحشي – ظهر القط. وهولا يملك الحق. إنني لم أدخل في شجار مع أحد طوال عمري، كان ذلك بسبب أعواد الثقاب. لا يملك الحق في ملاحقتي. إنني لا أنظر إليه على أنه كلسونير. فقد سرقوا وثا...

– هـــذا هراء –أجابه الأزرق– سنقدّم لك اللباس، القمصان والشراشف. وإذا اخترت السفر إلى إيركوتسك فسنقدم لك اللباس نفسه إضافة إلى معطف فرو قصير مستعمل. اختصر.

وضع المفتاح في القفل فأصدر صوتاً موسيقياً، سحب درج الطاولة وقال مُرحباً:

– تفضّل سيرغي نيقولايفيتش.

مـــن صندوق الطاولة أطلَّ رأس أشقـــر بلون الغزال، شعره مسرّح وعيناه زرقاوان تتحركان بسرعـــة، بعده ظهرت رقبة تتلوى مثل أفعى، وطقطقت قبـــة قميصه المنشاة، ثم ظهر الجاكيت، فاليـــدان، فالبنطال، وخلال ثوانٍ انتصـــب سكرتيرٌ كامل، صوّص: «صبـــاح الخير»، ثم انسل مـــن الصنـــدوق فوق قطعة جوخ حمراء، نفّض نفسه مثل كلـــب استحمّ لتوه. انتصب من جديد، ســـوى أكمامـــه إلى الأعلى، سحب من جيبه ريشة خط ملفوفـــة بالشاش، ثم شرع يكتب كلمات عشوائية.

استفاق كوروتكوف من الصدمة مد يده تجاه الأزرق شاكياً:

– انظر.. انظر.. فقد انسلَّ من طاولتك. ما هذا!؟

– بالطبـــع انسلّ – أجاب الأزرق – لن يستطيع الاضطجاع طوال النهار في الصندوق، حان الوقت. التوقيت انتهى.

– لكن كيف؟ كيف؟ – رن صوت كوروتكوف كالجرس.

أجاب الأزرق قلقاً:

– آه، يا إلهي، لا تُعق عملنا أيها الرفيق!

انسلّ الرأس الأسمر من خلال درفة الباب، وصاحت صاحبته قلقة ومسرورة معاً:

– أرسلــت وثائقه إلى بولتافا، وأنا سأسافر معه. خالتي تعيش هناك، في موقع على الدرجة ٤٣ عرضاً، والخامسة طولاً.

أجاب الأشقر:

مدهش، قد مللت من هذا المزمار!

صاح كوروتكوف وهو يجول ببصره:

– لا أريــد. هي تسعى لأن تسلّمني جسدهـــا، وأنا لا يمكنني تقبّل ذلك. لا أريد. أعيدوا إليّ وثائقي وعائلتي المقدسة. أعيدوهما إلي.

خنّ السكرتير قائلاً:

– أيها الرفيق هذا من اختصاص قسم الزواج، نحن هنا لا نستطيع مساعدتك.

هتفت المتألقة وهي تطلُّ برأسها ثانية:

– آه أيها الغبي. وافق. وافق. – قالت ذلك بصوت الملُقّن، الذي يلقّن الممثلين على المسرح، وأخذ رأسها يظهر تارة ويختفي أخرى.

جهش كوروتكوف بالبكاء، ومضى يمسح دموعه ويقول:

– أيها الرفيق، أيها الرفيق، أتوسل إليك، أعطني وثائقي. كن صديقاً. كن.. أرجوك من أعماق قلبي، وسأذهب فوراً إلى أحد الأديرة وأصبح راهباً.

أخذ الأشقر يرعد وقد بدأ يخرج عن طوره:

– أيها الرفيق، كفَّ عن هذه الهستيريا، وضّح باختصار، وبتجرد، كتابياً وشفهياً، بالسرعة القصـــوى، والسرية التامة: ستذهب إلى إيركوتسك أم إلى بولتافا ؟ لا تُضِع وقت رجل مشغول جداً! لا تخرج إلى الممر. لا تبصق. لا تدخن. لا تحرجني لعدم وجود «فكّة».

– تمنع المصافحة بالأيدي – وقوق السكرتير مضيفاً.

– يحيا العناق! – همست المتألقة بشهوة عارمة، ومثلَ نسمة أخذت تطوف في أرجاء القاعة وهي تبخ السوسن على عنق كوروتكوف.

– جاء في الوصيّة الثالثة عشرة: لا تدخل على قريبك دون موضوع – قال العجوز المبرقش وطـار في الهواء ملوِّحـاً بجناحيه، ثم تابع – أنا يا سيدي لا أدخـل، لا أدخل. ومع ذلك سأرمي لك الورقة على كل حال... هوب... هوب...! ستوقّع على الوثيقة التي تختارها . وعلى كرسي الاتهام! – ثم رمـى من كمِّهِ الأسود الواسع رزمة من الأوراق البيضاء. طارت ثم استقرت على الطاولات، مثل النوارس على صخور الشاطئ.

اعتكرت الصالة واربدّت وبدأت النوافذ بالاهتزاز.

بكى كوروتكوف المنهك وهو يقول:

– أيهـا الرفيق الأشقر، أطلق الرصاص عليّ هنـا في مكاني، لكن حَرِّر لي وثيقة صحيحة، أياً كانت. سأقبّل يديك.

أخذ الأشقر ينتفخ ويتضخم متكدّراً، وهو يوقّع مسعوراً من دون توقف أوراق العجوز ويقذف بها إلى السكرتير، الذي يلتقطها بهرير سعيد.

– ليذهـب إلـى الشيطان – قعقع الأشقـر – ليذهب إلى الشيطان، هيّـا يا ضاربات الآلات الكاتبة! ولوّح بيده الضخمة، فانهار الجدار أمام عيني كوروتكوف، وراحت ثلاثون آلة كاتبة ترن، وتعـزف الفوكوستروت(٦). تحرّكت ثلاثون امـرأة باستعراض إلى الأمام، ودُرْن حول الطاولات، متمايـلات بأردافهـن، وهازات أكتافهن بسرور عـارم، وقاذفات بأرجلهـن وسيقانهن العاجية الفقاعـات البيضاء، التي ملأت القاعة. انسلّت ثعابين الـورق البيضاء في أفواه الآلات الكاتبة، وأخذت تلتف، وتدور وتنفتح... وتخاط، ثم انسلت بنطلونات بيضاء ذات شرائط طولية ليلكية من أفواه تلك الآلات، كتب عليها:

«إن من يبرز هذه الوثيقة، هو بالفعل من يبرزها ،وليس أي إنسان فارغ!».

هدر الأشقر في الضباب:

– البس!

– اَي ي ي ي أَنّ كوروتكـوف بصـوت داوٍ،وأخذ يضرب رأسه بزاويـة طاولة الأشقر. هدأ صداعه للحظة.وظهر وجه ما دامع أمام عيني كوروتكوف.

– أحضروا الفاليريانكا!(٧) – صرخ أحدهم من السقف.

حجبت مجنحة النور كطائر أسود، وتمتم العجوز قلقاً:

- مـــا ينقذني الآن شيء واحـــد!، إلى ديركين في القسم الخامس. فلأمشي.. أمشي! فاحت رائحـــة إيتير، نقلت أيدي لطيفـــة كوروتكوف إلى الممر شبه المظلم. عانقت المجنحة كوروتكوف وجذبته إليها وهي تقول ضاحكة:

- هـــا أنا قد ألحقت بهم أذى كبيراً: نثـــرت لهم على الطاولات أشياء تكفي لإصابة كل منهم إصابات لمدة خمس سنوات في ساحة المعركة. فلأمشي...أمشي!

طـــارت المجنحة جانبـــاً، وقد سحبهـــا الهواء والرطوبـــة بفعل هبوط شبكـــة المصعد إلى الأسفل.

-٩-

ديركين المخيف

أخــذت الحجرة الزجاجيــة تسقط إلى الأسفــل، وفيها سقط كوروتكــوف المزدوج. نسي كوروتكــوف الأول والرئيس سميَّهُ الثاني في مرآة الحجرة، وخرج وحده إلى البهو البارد، حيث واجهه رجل سمين جداً وردي اللون، يعتمر قبعة أسطوانية عالية، بالكلمات الآتية:

– ياللروعة. ها أنذا أستطيع اعتقالك.

– أنا يمنع اعتقالي- أجابه كوروتكوف وهو يضحك ضحكة شيطانية – لأنني مجهول الهوية. طبعاً، لا يمكن اعتقالي أوتزويجي. كما أنني لن أسافر إلى بولتافا.

ارتجف الرجل السمين من الخوف، وحدّق في مقلتي كوروتكوف، ثم تراجع إلى الخلف.

– اعتقلني إذن – صوّص كوروتكوف وهو يمد للرجل السمين لسانه الأصفر، الذي يرتجف وتفــوح منه رائحة الفاليريانكا – كيف ستعتقلني؟ إلا إذا أردت ذلك عوضاً عن الوثائق، خذ إذن «ووجه له إصبعه الوسطى» قد أكون أنا غوغينتسوليرن(٨).

– يــا إلهي أيها المسيح – قال السمين وهو يرســم إشارة الصليب بيده المرتجفة، وتحوّل لونه الوردي إلى الأصفر.

سأله كوروتكوف بصوت متقطع وواصل التحديق إليه:

– هل التقيت كلسونير؟ أجب أيها السمين.

أجابه السمين وقد تبدّل لونه من الأصفر إلى الرصاصي:

–لا. أبداً.

–ما الذي عليّ فعله الآن؟ ها؟

– ليس أمامك سوى الذهاب إلى ديركين – تمتم السمين –هذا أفضل ما يمكن أن تفعله، إلاّ أنه رهيب. آه رهيب. لا تقترب منه. قد سبقَ وسقط اثنان من عنده، من الأعلى، وحطم الهاتف.

أجاب كوروتكوف وهو يبصق:

- لا بأس. سيّان عندنا الآن. اصعد!

- احذر أن تؤذي رجلك. أيها الرفيق المفوّض -

أجاب السمين برقة وهو يقود كوروتكوف إلى داخل المصعد.

عند البهو الأعلى للمصعد واجههما فتى صغير في السادسة عشرة من العمر، صرخ بالسمين بحدة:

- إلى أين تذهب؟ قف؟!

قال السمين وقد انكمش على نفسه، وغطّى وجهه بيديه:

- لا تضرب أيّها العم. إنني ذاهب إلى ديركن نفسه.

- ادخل.

همس السمين مخاطباً كوروتكوف:

- ادخل سيادتك، أما أنا فسأنتظر هنا على المقعد. آه... إنه ألم مبرِّح..

وجـــد كوروتكوف نفسه في غرفة انتظار مظلمة، فيها مدخل إلى صالة فارغة، تغطي أرضها سجّادة منظّفة.

تردد كوروتكوف طويلاً أمام الباب الذي كتب عليه «ديركين»، لكنه دخل أخيراً فوجد نفسه في مكتب مؤثّث فسيح، فيه طاولة ضخمة حمراء داكنة اللون، وساعة معلقة على الجدار. قفز ديركين القصير المنتفخ، وكأن نابضاً قد دفعه إلى الأعلى، من خلف الطاولة. فتل شاربيه وزأر:

-اِخرس!... على الرغم من أن كوروتكوف لم ينبس ببنت شفة.

فـــي اللحظة نفسها ظهر في المكتب فتى شاحب اللون، يحمل حقيبة يد، فغطّت وجه ديركين في الحال تجاعيد ابتسامه:

- آ.آ. أرتور أرتوريتش. جماعتنا أعطوك...

- اسمع يا ديركين - قال الفتى بصوت معدني.

-أنت كتبت إلى بوزيريف[٩]، مدعياً أنني أسست في صندوق التقاعد ديكتاتوريتي الخاصة. واستوليت على نقود شهر أيار (مايو) المُقدَّمة للصندوق من قبل الحكومة؟ أنت؟ أجب أيها السافل الأجرب. تمتم ديركين وقد تحول بسحر ساحر من ديركين الرهيب، إلى ديركين الطيّب:

-أنا؟... أنا! أرتور ديكتاتوريتش[١٠]... أنا، طبعاً... هذا ظلم.

– آه، أنت نذل، نذل – قال الفتى العبارة مُجزّئاً كلماتها بهدوء، وهازاً رأسه، ثمّ لوّح بحقيبته، وضرب بها جانب وجه ديركين، على أذنه. وكأنه يقذف شطيرة في صحن.

تأوّه كوروتكوف بعفويّة،ثم صمت.

– هكذا سيكون مصيرك، ومصير كل سافل، يسمح لنفسه أن يحشر أنفه في شؤوني – قال الفتى مرتاحاً، وهو يشهر قبضته الحمراء مودعاً كوروتكوف، ثم خرج.

ســادت دقيقتــان من الصمت فــي المكتب، لم يتخللهــا إلا رنين الشناشيــل المعلّقة على الشمعدانات بسبب مرور شاحنة ثقيلة قرب المبنى.

– هكــذا أيهــا الشاب – قال ديركين الطيّب المُهان وهو يبتســم بمرارة ابتسامة ساخرة – هذه هي مكافأة لقاء الغيرة والحميّة ليال لا تشبع منها النوم، ولا الطعام، ولا الشراب، والنتيجة واحــدة دومــاً: صفعة على الوجه. لعلك أنت أيضاً أتيت من أجــل ذلك؟ ليكن.. اضرب ديركين، اضرب، إن شحنته مستعارة على ما يبدو، وقد تؤلمك يدك؟ خذ الشمعدان إذن، واضرب به.

وعرض ديركين وجنتيــه المنتفختين من خلف طاولة الكتابة، بشكل مغرٍ. ابتسم كوروتكوف ابتسامــة خجولة مائلة. من دون أن يفهم شيئاً. ثم أمســك الشمعدان من قاعدته وهوى به على رأس ديركين. الذي أخذ الدم ينزف من أنفه على الجوخ. ثم هرب من خلال الباب الداخلي وهو يصرخ: «أيها الحارس».

-كو- كو! – صاح بسعادة وقواق الغابة، الذي اندفع من بيت نيورنبرغسكي المرسوم على الجدار، ثمَّ تابع صياحه وقد تحول إلى رأس أصلع:

-كو – كلوكس- كلان، سنكتب كيف تضرب العاملين!

تمّلكت الحماسة كوروتكوف، لوّح بالشمعدان وقذف به ساعة الجدار، فأجابت بصوت راعد وبعثــرة لعقاربها الذهبية، قفز كلسونير مــن الساعة وتحول إلى ديك أبيض مكتوب على صدره «الصــادر»، واندفع عبر الباب بسرعة، بينما تعالى في اللحظة نفسها صُراخ ديركين من خلال الأبواب الداخلية:

«ألــق القبض عليه، إنه قاطع طريق!» – وطارت خطــوات الناس الثقيلة في الاتجاهات كلها، فاستدار كوروتكوف واندفعَ هارباً.

-١٠-

السينما البوليسية والهاوية

قفــز السميــن من البهو إلى المكتب. واندفع ككتلة من الشبــاك ثم هوى إلى الأسفل، وعلى السُلّم الضخم المتآكل هبطوا راكضين على الشكل الآتي: الأول: هو القبّعة السوداء الأسطوانية للرجل السمين، الثاني: الديك الأبيض «الصادر» وخلفه: الشمعدان الذي طار على دائرة معدنية فــوق رأســ أبيض حاد، ثم كوروتكــوف، فالفتى ذو السادسة عشرة حامــلاً في يده مسدساً، وخلفهم جميعاً مجموعة من الناس يدبون بأحذيتهم العالية ذات الحذوات المعدنية.

أنّ السلــم أنينــاً برونزياً، وأوصدت الأبواب التي تقضي إلــى بيت السلم. تدلى أحدٌ ما من الطابق العلوي، نحو الأسفل وصاح في البوق:

- أي قسم ينتقل من مكانه؟ فقد نسيتم الصندوق النقدي، الذي لا يحترق!

أجابه صوت نسائي من الأسفل:

- قطاع طرق!!

كان كوروتكــوف أول من اندفع خارجاً من الأبواب الضخمــة إلى الخارج وقد سبق القبعة الأسطوانيــة، والشمعــدان. استنشق كمية كبيرة من الهواء الساخــن وطار في الشارع. الديك الأبيض تــوارى داخل الأرض تاركاً رائحة كبريتية نفّــاذة، المجنحة السوداء هبطت من الهواء وعدت إلى جوار كوروتكوف وهي تصيح بصوتٍ حادٍ ممطوط:

- إنهم يضربون أعضاء الجمعية أيها الرفاق!

كان المارة يتدافعون في اتجاهات مختلفة عن طريق كوروتكوف، ويزحفون من تحت البوابات الحديدية. وراحت صفرات قصيرة تصدح وتصمت.

أحدٌ ما أخذ يعول ويولول، وانطلقت صيحات مبحوحة مضطربة تقول: «اقبض عليه»، ستائر معدنية أُنزِلت مصدرة صريراً مزعجاً. رجل أعرج راح يردد جالساً على سكة الترامواي:

– بـــدأت!! تطايرت الطلقات النارية الآن احتفاءً بسعـــادة كوروتكوف، كأصوات زينة شجرة الميـــلاد. كانت الرصاصات تأتيه مرة من الجانبيـــن ومرة من الأعلى، بينما انطلق مزمجراً مثل كيـــر حداد، محاولاً الوصول إلى المبنى الضخـــم ذي الأحد عشر طابقاً. الذي يطل جانبه على الشـــارع العريض. أما فِناؤه فعلى زقاق ضيق. على زاوية البناء نفسه علقت لوحة زجاجية كتب عليهـــا «RESTORAN IPIVO» وتشع على شكل نجمة، وقـــرب البناء على الجسر جلس حوذي هرم يداعب تيساً، وتعلو وجهه تعابير قاتمة، وكان يردد:

– يا سلام! ما بكم أيها الأخوة من تطاردون؟

اندفع شخص من زقاق جانبي وحاول أن يمسك بكوروتكوف من معطفه، فبقي المعطف في يده. انعطف كوروتكوف خلف الزاوية، وطار عدة أمتار، ليدخل فضاء البهو الزجاجي. وثب فتى ذو جدائل وأزرار مذهّبة من المصعد وقال باكياً:

– أدخل يا عم، واجلس، لكن لا تضرب اليتيم!

اندس كوروتكوف داخل صنـــدوق المصعد، وجلس على المقعد الأخضر مقابل كوروتكوف الآخر، وتنفّس مثل سمكة على الرمل. اندس الفتى خلفه وهو ينشج، أغلق الباب، وتمسك بالحبل، انطلـــق المصعد إلى أعلى، في هذه اللحظـــة دوّت أصوات طلقات نارية في البهو الزجاجي، في الأسفـــل، وأخذت الأبواب الزجاجية تدور. كان المصعـــد يرتفع إلى أعلى بهدوء ودقة، وقد هدأ روع الفتى، الذي مسح أنفه بيده، بينما كانت الأخرى تلتف على الحبل.

سأل الفتى بفضول وهو يحدّق بكوروتكوف المنهك:

– هل سرقت نقوداً أيها العم؟

أجاب كوروتكوف وهو يأخذ نفساً عميقاً:

– إننا نهاجم... كلسونير، وها هو يبدأ الهجوم المعاكس.

– الأفضل لك أيها العم أن تصعد إلى أعلى البناء، إلى غرفة البلياردو – نصحه الفتى – هناك يمكن أن تُمترِس، ولا سيما لو كان معك رشاش.

– هيا إلى الأعلى – وافق كوروتكوف.

دقيقة وتوقف المصعد بسلاسة، فتح الفتى الأبواب، وحرّك أنفه قائلاً:

– أخرج أيها العم، واصعد إلى السطح.

قفـــز كوروتكوف، وأخذ يتلفت حوله ويُنصت. من الأسفل بـــدأ الضجيج يتزايد، ومن الجهة الجانبية وصلته أصوات نقرات كرات عظمية، خلف زجاج قاعة البلياردو، وتراءت له وجوه قلقة، قفز الفتى عائداً إلى المصعد، أغلق أبوابه على نفسه وهبط من جديد.

تردد كوروتكوف للحظة وهو ينظر نظرة نسر، ثم هتف كما لو كان في ساحة معركة:

«إلــى الأمام»، دخل صالة البليــاردو، امتدت أمامه ساحات خضـــراء، فوقها كرات بيضاء لامعة، وأمامها وجوه شاحبة. دوّى في الأسفل، في مكان قريب صوت زخات من الرصاص، ومن مــكان ما اندفع صوت تحطّم زجاج وتناثره، رمــى اللاعبون عصيّ البلياردو الواحد تلو الآخر، وكأنهم تلقّوا إشارة واضحة. اندفعوا يتخبطون نحو الأبواب الجانبية.

أســـرع كوروتكوف يوصد الباب الرئيسي بالمزلاج. ثم أقفــل بقوة باب المدخل الزجاجي الـــذي يفضي من السلم إلى صالة البليــاردو. خلال لحظة تسلّح بكرات البلياردو. ثوانٍ وتراءى لكوروتكــوف أول رأســـ ينتصب بجانب المصعد، خلف الزجـــاج. طارت كرة من يد كوروتكوف صافــرة في الهواء ومخترقة الزجاج، فاختفى الرأســـ مباشرة. وومض مكانه ضوء شاحب، ثم ارتفع رأس ثانٍ، وبعده ثالث.

وتطايــرت الكرات الواحدة تلو الأخــرى وتحطّم زجاج الحاجز تماماً، وكجواب على قرع كرات البليـــاردو والزجاج المحطّم الذي غطّى السلّم دوّى صوت زخات من الرصاص متتابعة كدرزات آلة زيفيروفسكي للخياطة، فاهتز المبنى كله، وانحفر خطٌّ طويل في الزجاج والإطارات في الطابق العلوي، كما لو تم ذلك بسكين، سحابة من غبار الإسمنت وبودرة الطينة غطّت أرجاء صالة البلياردو.

أدرك كوروتكــوف أن ليســ بإمكانه الصمود في موقعه هذا. غطّــى رأسه بيده حامياً رأسه وركل برجلــه الجــدار الزجاجي الثالث الذي بدت خلفه طبقة منبسطـــة من الإسفلت على سطح فسيــح. هوى الجــدار الزجاجي وتناثر. تمكن كوروتكوف تحت أزيـــز الرصاص أن يرمي على السطــح خمس كرات، تدحرجت علــى الإسفلت مثل الرؤوس المقطوعـــة فقفز خلفها في الوقت المناســـب، لأن زخات من الرصاص القادم مـــن الطابق الأسفل اخترقت المكان الذي كان يقف عليه. وتعالى صوت مشوّش:

– استسلم!

انفتحـــت أمام كوروتكـــوف مباشرة سماء شاحبة، شمسٌ غثة فـــوق رأسه. ونسيم وإسفلت جامـــد. المدينة في الأسفل وفي الداخل كانت تنذر بعويل هادئ ومضطرب قفز كوروتكوف على السطـــح الإسفلتي، ومسح المكان حوله، اختطف ثلاث كرات، تسلّق الجدار ونظر إلى الأسفل، تجمّد قلبـــه. انكشفت أمامه أسقف بيوت بدت صغيرة ومفلطحـــة، والساحة التي تزحف فوقها الترامـوايات، والناس المرعوبين، ولاحظ أجساماً رصاصية اللون، تتراقص متجهة إلى المدخل من خلال شقوق الزقاق، وخلف تلك الأجسام لعبة ثقيلة مزيّنة برؤوس ذهبية لامعة.

– حاصروني – انفجر كوروتكوف –رجال الإطفاء!

بعد أن اعتلى الجدار رمى كوروتكوف ثلاث كرات الواحدة تلو الأخرى، صعدت الكرات في البداية، ثم رسمت قوساً، وهوت إلى الأسفل. تناول كوروتكوف ثلاث كرات أخرى وصعد الجدار مــن جديد، لوّح بها ورماها. لمعت بلون فضي، ثمّ تحولت وهـــي تسقط إلى الأسفل سوداء، ثم التمعــت من جديد واختفت. تهيّأ لكوروتكوف أن المرعوبين هرعوا مضطربين إلى الساحة التي تغمرها الشمســ. انحنى كوروتكوف كي يلتقط دفعة أخرى من الذخيرة، لكن الوقت لم يسعفه، بدأ بشرٌ في قاعة البلياردو يصدرون قرقعة وأصوات تكسر الزجاج، فقد تناثروا في المكان مثل حــب البازيلاء، وها هم يتسلقون السطح. تطايرت قبّعات رصاصية، ثم معاطف رصاصية. ومن خلال الزجاج العلوي ومن دون أن يلمس الأرض طار عجوز بكنزة نصف صوفية لمّاعة، ثم انهار الجدار تماماً، وانزلق بشكل رهيب على عجلات كلسونير الحليق وبين يديه بندقية قصيرة.

– سَلّــم نفسك! – انطلقت أصوات من الأمام والخلــف والأعلى، وغطّى عليها جميعاً صوت عميق مدوٍّ لا يحتمل، كصوت ارتطام قدر نحاسي!

– طبعاً – صاح كوروتكوف بصوت ضعيف

–طبعاً، خسرت المعركة.. تا..تا..تا

وغنّى على شفتيه بوق الانسحاب.

تفجــرت في روحه شجاعــة الموت. صعد كوروتكــوف عمود الجدار، محــاولاً التشبث به والتوازن. تأرجح عليه. انتصب فجأة بقامته المديدة، صاح:

– الموت ولا العار!

كان ملاحقــوه على بعد خطوتين منه، شاهد كوروتكوف الأيدي الممدودة نحوه. وكتلة اللهب التــي خرجت من فم كلسونير باتجاهه. لجّــة الشمس أوحت لكوروتكوف بما جعل روحه تتوثب وتمتلــئ، أطلق صرخــة نصر حادة وقفز طائراً إلى الأعلى، وللحظــة انقطع تنفسه. بشكل غير واضــح، غير واضح أبداً شاهــد شهاباً بثقوب سوداء، كأنه ناتج عن انفجار ما، طار محاذياً له إلــى أعلى، ثم شاهد بشــكل واضح جداً كيف أن الشهاب سقط إلى الأسفل، أما هو نفسه فقد واصل ارتفاعه إلى أعلى الشق الضيق من الزقاق، الذي اتضح أنه فوقه. ثم اصطدمت الشمس الدموية برأسه محدثة دوياً، وما عاد يشاهد شيئاً بعد ذلك.

الهوامش

١- يفترض أن يكتب الحرف الأول من اسم العلم واسم عائلته بشكل كبير، مثل كل اللغات الأوروبية لكن الشخص الذي يدور الحديث عنه يكتب أحرف اسمه، أحرفاً صغيرة! /المترجمان/.

٢- لكل شخص في الاتحاد السوفييتي (السابق) دفتر عمل خاص به، يرافقه دائماً أينما انتقل وظيفياً. /المترجمان/.

٣- يستخدم الروائي هنا مفردة «دامافوي» وهي مفردة لها معنى مزدوج فهي تستخدم أحياناً بمعنى الشيطان الذي يقاسم البشر المسكن، ويبقى مسالماً طالما لم يغضب منهم، أو يسيئوا إليه والأمر مقصود على ما يبدو /المترجمان/.

٤- هارمونيكا: آلة موسيقية روسية تشبه الأكورديون.

٥- هذا الشطر وما سبقه مقبوس من قصيدة أو أغنية لم نستطع أن نحدد مؤلفها وربما هي من نظم الروائي نفسه، وفي الحالتين يقوم الروائي بتضمينها في نصه لغاية فنية وفكرية./المترجمان/.

٦- إيقاع رباعي راقص /المترجمان/.

٧- الفاليريانكا: قطرة دوائية من عشب الفاليريانا، تستخدم مهدئاً للأعصاب في روسيا/المترجمان/.

٨- (Hohenzollern): إمبراطور بروسي – ومؤسس تلاه مجموعة من الأباطرة حملوا كنيته/المترجمان/.

٩- هذه الكنية تعني «فقاعة» وقد استخدمها الروائي قاصداً السخرية على ما يبدو /المترجمان/.

١٠- من الواضح أن الارتباك جعل ديركين يمزج كلمة ديكتاتور مع أرتوريتش، فخرج بكنية جديدة /المترجمان/.